كيت بولينجر

عاشقة مصر

هذه الترجمة الكاملة لرواية

THE MISTRESS OF NOTHING

KATE PULLINGER

عاشقة مصر

كيت بولينجر

ترجمة / على طوبار ومروة سلام (سفنكس)

الغلاف/هانيبال - هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - رواية من كندا

الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٣

رقم الإيداع:- ٢٠١٣/٥٠٥١

ISBN :٩٧٨-٩٧٧-٥١٨٥-٣٧-٢

وكالة سفنكس

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل
أوأي جزء منه بأي وسيلة
تصويرية أوإليكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل
الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأي
وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من
الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

The translation of this book has been funded and supported

by the Canada Council for the Arts

٢٠١٣ © Sphinx Agency

كيت بولينجر

عاشقة مصر

ترجمة / على طوبار ومروة سلام

عاشقة مصر

كيت بولينجر

ولدت "كيت بولينجر" بكندا، ثم انتقلت للعيش بلندن عام ١٩٨٢ حيث ما زالت تحيا بها، وهي مؤلفة "الروابط الصغيرة" وهي عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة، ورواية "عندما يموت الوحش"، ورواية "الأخوات الساحرات"، ورواية "غريب قليلاً"، التي طبعت بواسطة "سيربنت تايل"، وتعاونت "كيت بولينجر" مع "جين كامبيون" بقصة رواية فيلم "البيانو"، وكتبت للسينما والتلفزيون والراديو، وهي الآن تحاضرة في مجال الكتابة الإبداعية والإعلام الحديث بجامعة "دى مونتفورت".

النقد الجيد والمديح الذي وجه لرواية (غريب قليلا): صحيفة "إندبندنت أون صينداي": تكتب "بولينجر" بخفة وبراعة مع استخدام أسلوب عجيب يميل للكـــآبة وحوار شديد الحدة، وتدور الرواية حول الحديث عن الجنون وقسوة الحياة..... وأوضحت "كيت بولينجر" بخبرة قسوة عالم شخصياتها من خلال كتابتها الهادئة." .

صحيفة "الجارديان": تعاملت "بولينجر" مع فكرة التعاطف الذي يعمق الحرمان من خلال كسر الرابطة التي تربط الأم والطفل." .

أوبسيرفر: تصوير "كيت بولينجر" لتربية الأطفال في ظل الفقر بلندن الثرية يحيي ضمائر الناس." .

"باتريك دونكر": قصة "كيت بولينجر" قوية ومحورية وتجذب الانتباه؛ حيث تدور حول فتاة عادية تقوم بأمور غير عادية؛ حيث تتخلى عن طفلها وزوجها ومنزلها، وتستقل الطائرة متجهة إلى "لاس فيجاس"، وتلك الفتاة محيرة لكونها ماكرة، وتعيش شخصيات "بولينجر" بعالم هش وضعيف، ولكنه عالم مألوف مليء بصدى أصوات كافة أفراد العائلة: الآباء والأشقاء والرفقاء والأطفال، وقبل أن تخاطر ويكون لديك طفل، فعليك أولا قراءة هذا الكتاب." .

صن داي تايمز: "رواية متواضعة، ولكنها مؤثرة." .
"ذا ليست": "عرض أخاذ لمشكلة الأسرة النواة بصورة تتحكم بالمشاعر في هذه الأيام وهذا العصر.... واستعملت "بولينجر" اللغة بصورة جذابة، وقاومت استعمال شخصياتها للأكليشيهات -المصطلحات المتكررة- وهذا ما أعطانا كتابة هادئة تنبض بالحياة." .

"إندبيندنت": صورت "بولينجير" بذكاء التحديات المظلمة الكئيبة التي تحيط برعاية طفل لا زال يعلمه البالغون السير، ويتضمن الخوف العام من أن تصبح النساء أمهات سيئات ينقلن صفاتهن السيئة لأطفالهن في دائرة مغلقة...، وهذه

الرواية تستحق القراءة لسحرها وخفتها؛ حيث توضح وتهاجم المخاوف الأساسية التي يمنع الحديث عنها بين الأمهات." .

"جلاسكو إيفينينج تايمز": "كتابة جميلة وصفحات كتبت بعناية لتصبح رواية." .

"واليز آون صن داى": "قالب حقيقي للصفحات يشير إلى السلبيات الحتمية المتعلقة بالأبوة التي يحرم الحديث عنها." .

باحث أيرلندي: رواية حبكت بمهارة؛ حيث تناولت "بولينجر" إحباط ما بعد الولادة والشعور بالذنب والحزن والضغوط الكثيرة التي تواجهها الأسرة النواة المعاصرة." .

"كتابة جميلة ورواية حبكت بمهارة تشبه في أسلوبها "مارجريت أتورد" أو "آنيتا شريفي"...، وتفزعك رواية (غريب قليلاً)؛ حيث تجعلك تفكر بجدية بتغيرات الحياة التي تواجهها." .

"فينو بريستول": جو صالح للقراءة، ومهارة "بولينجر" في تكوين الصور الأدبية يجعلك أثناء قراءتك للكتاب تشعر أن هناك ما تريد أن ترسمه." .

"بيج إيشو إن والس": رواية "غريب قليلاً" تحتوي على جرأة الصراحة التي تصدم الآخرين.... وهي بداية لتوضيح تأثير العلاقات الأسرية.".

"نوتينجهام إيجينيل ج بوست": "هذه الرواية تحاكي ما تقصه

الأمهات أثناء وجودهم بالخارج مع أطفالهم الصغار بصورة كبيرة، والتي تعد وثيقة الصلة بالموضوع الذي تعالجه الرواية.".

"مترو": "كتابة "كيت بولينجير" شديدة العمق ومليئة بالعاطفة المؤثرة، وهى نقل ممتاز لخبايا الحياة الإنسانية.... وهي رواية المثيرة." .

"صنداى اكسبريس" : "دائما ما يكون صادما أن يأتي من روائي تحبه ما يجعلك تدرك أن شخصيات العمل حولنا ولو لبعض الوقت، ولكنك لم تلحظهم؛ "فبولينجر" مؤلفه قوية بشكل مدهشٍ وتستحق أن يكون لها جمهور كبير من قراء "غريب قليلا"، وهي رواية ليست عادية؛ حيث جمعت بين التميز الأدبي المصحوب بالجودة مع نظرة عادية جدا وسهلة المنال بالنسبة للحياة." .

"ديفا" : "تعمق بالأحداث من خلال استرجاعٍ أحداث مؤثرة حول الأسر والعلاقات، وتجعل رواية "غريب قليلاً" -التي كتبت بصورة متقنة وجميلة- القلب ينبض بالحيوية."

"أبسوربيج ريد بوس" : "هي قصة مؤثرة تكشف كيف أننا جميعا أفراد أسوياء ونتواصل داخل أسرنا، وقامت "كيت بولينجر" بإثارة شعور الأسرة المعاصرة بما يشوبها من حلاوة ومرارة." .

الفصل الأول

في الحقيقة، لم ترني سيدتي كإنسانة كاملة، وربما جعلها ذلك تعاملني معاملة سيئة، لم أشك أبدا أنها أحبتني، وهذا ما أشعرني بالأمان معها، لكن ما حدث هو أنها أحبتني كحيوان منزلي أليف؛ حيث كنت جزءً من خلفية المشهد؛ فأنا أعمل باجتهاد وأنظم أمورها كواحدة ضمن العاملين لديها، وكنت أقربهم إليها، ففي السنوات الأخيرة قمت بعمل كل شيء تقريبا؛ حيث تم اختياري لمرافقتها برحلتها النهائية الطويلة، ولكن كوني جسدا وروحا لم يعكس عندها واقعا ملموسا لجميع احتمالات النجاح والفشل في حياتها، وكان خطئي هو عدم إدراك هذا الأمر منذ البداية؛ فعندما أخطأت طردت من الخدمة، لم أعد ذات أهمية بالنسبة لها، والأسوأ من ذلك هو الشعور بأنني جزء من مرضها الكريه الذي ينبغي استئصاله وبتره، أو طرف زائد خبيث متعفن بحاجة للتخلص منه؛ لذا طردت كعضو غير نافع من لحم وعظم تم بتره من جسدها.

إنها لمأساة كبيرة، لكني لم أستسلم لها على الرغم من وضعي، والحقيقة أنها كرهت سعادتي وكرهتني؛ حيث وجدت الحب حينما هجرها، وكرهتني لأنني كونت أسرة حينما فقدت هي أسرتها، وكرهت كوني أحيا، بينما تواجه هي الموت، ولم تستطع الاعتراف أنها تشعر بهذا؛ فكيف يستطيع شخص الاعتراف بأنه يشعر بمثل هذه المشاعر؟! ولذا عاملتني كشخص لا يستحق العطف أو الكرم أو الرحمة التي عاملت مرافقها الرجل بهم، ولكن قصتي لا تبدأ هنا، والأهم من ذلك أنها لا تنتهي هنا؛ فهذه لم تكن نهايتي؛ فبمجرد أن تخلت عني وطردتني، لم تستطع التحكم بي أكثر من ذلك.

تبدأ قصتي ب"إيشير" في انجلترا عام ١٨٦٢ منذ فترة بعيدة وبمكان بعيد جدا عن مكان إقامتي الحالي.

الفصل الثاني

ها أنا ذا امرأة تتحدث بصراحة، وسأخبركم عن قصتي؛ حيث انهارت سيدتي على العشاء.

كان جميع السادة المقربين لها موجودين-السيد "جورج ميريديث" والسيد "ألفريد تينيسون"، وسيدتي جميلة وشعرها أسود لامع وملابسها الرمادية تلمع كالفضة في ضوء الشموع مع أحد الشالات العجمية حول كتفيها، ولكنها شاحبة بل شاحبة جدا، وجب عليَّ أن أعرف ذلك؛ فعندما دخلت غرفتها بوقت سابق في هذا اليوم، كانت في منتصف نوبة سعال والتفتت بعيدا وصرفتني وأصرَّت على أنها بخير. سيغضب السيد "أليك داف جوردن" أنني وحدي من يعلم ذلك، ولكنني عرفت أنها تشتاق لهذه الأمسية، ولكن حالتها الصحية ليست جيدة بما يكفي للحفلات الكبيرة، وكانت تبصق دماءً باستمرار، واستطعت شم رائحته عند دخولي غرفتها، ولكن هذا لا يظهر عليها؛ فسيدتي ليست على حقيقتها ولا طبيعتها؛ فهي ليست

بمريضة ولا مشوشة ولا منحنية بما يجعلها تسقط وتلقى حتفها في آية لحظة، بل هي قوية، ومعافاة، ومتعلمة، ومولعة، بالجدل والمغامرة، وفاتنة، وممتعة، ولها نشاط واسع؛ كما يلاحظ الناس السيدة "داف جوردن" ويتذكرونها، فعندما تدخل الغرفة يتغير المكان ويزداد توهج المصابيح وتضرب النيران والأشربة ويعج المكان بالحركة والنشاط، وتعتدل السيدات في جلستها، ويقف الرجال باعتدال، ودائما ما يقول أحد أفراد المجموعة: "ها هي لوسي!"؛ فسيدتي محبوبة جدا حتى بالنسبة لهؤلاء الذين تضايقهم كوالدة زوجها -على سبيل المثال- والتي تعتقد أن تفكيرها رجولي بصورة كبيرة لدرجة تجعلها تعتقد أن عقل سيدتي يشبه الرجال بصورة تجعلها غير قادرة على أن تكون زوجة جيدة.

علمت أن صحتها لا تسمح لها باستضافة حفلة هذا المساء؛ لذا بقيت صامتة وبقيت على مقربة منها، فعندما بدأت بالسعال بمنتصف تناولها الطعام، دخلت مسرعة إلى الغرفة خلف "كاثي" وصينية الطعام التي تحملها، وأدمعت عيون سيدتي من مقاومتها لمحاولة احتواء نوبة السعال ولوحت لي بطريقة فهمتها على الفور؛ فساعدتها للذهاب بعيدا عن منضدة الطعام، لم يدرك أيٌّ من السادة الحاضرين أنها بحاجة للمساعدة، ووقفت سيدتي وابتسمت وقالت: "أيها السادة أرجو أن تعذروني لبعض دقائق."، بصورة تظهر أنها تم دعوتها لتقوم ببعض الواجبات المنزلية، وكان من الواضح أنها لن تستطيع صعود درجات السلم؛ لذا قمت باصطحابها إلى المطبخ، وساعدت سيدتي للجلوس على كرسي وأعطتني الطاهية قطعة قماش مبخَّرة وضعتها في صدرها.

الأمر فظيع؛ حيث كان السعال شديدا جدا مصحوبا بالبلغم

والقيء وبخيط خفيف من أنسجة الدم، وبدا كما لو أن رئتيها تتمزق لأجزاء، وبدأت تسعل بشدة وصارت تتنفس بصعوبة، واعتقدت أنها سيغشى عليها ولو لدقيقة واحدة لترتاح . لم تدعني أعالجها، وبدلا من ذلك، تنفست بصعوبة أثناء سيرها بطريق العودة عقب انتهاء نوبة السعال الحقير، وجلست لفترة ترتجف من البرد، وبعد دقائق أخذت رشفة من المرق، ووقفت على قدميها وعدَّلت شالها وصحبتها إلى غرفة العشاء، حيث أنتقل الضيوف لتناول الحلوى، وأشارت إليَّ لأنصرف كما لو أنني أضايقها، لم أمانع هذا، وقالت للسيد "ميريديث":

-حسنا يا "جورجي" ماذا... فأتني؟

وحينما عبَّر عن اهتمامه بصحتها -حيث أن السيد "ميريديث" دائما ما يلاحظ حال سيدتي- قالت:

-إن "رانية" استيقظت بعد رؤيتها لحلم سيئ، ولم تستطع الفتاة تهدئتها.

ووجدت أن السيد "ميريديث" لم يصدقها، ولكنه أبقى هذا لنفسه، وبعد ذلك عندما كنت أنظر بالداخل مرة أخرى، وجدتها تدخن السيجار وتجادل لدعم رأيها بنفس الحيوية التي لا تجعل أية ضيف جديد بالمنزل يعلم أن سيدتي لم تكن بصحة جيدة، وغمز إلى زوجها السيد "أليك" وابتسم كما لو أنه يقول: " لتعتني بها جيدا فهي رائعة أليست كذلك؟".

بدأت رحلتنا الأولى منذ سنتين؛ حيث قضينا شتاء عام ١٨٦٠ في جزيرة "وايت" وفقا لأمر الدكتور "أيزود" الذي قرر أن مناخ "إيشير" سيكون قاسٍ جدا على سيدتي ولن تستطيع تحمله، وكان هذا الوقت سيِّئ جدا وتساءلت باستمرار إذا ما كان الطبيب "أيزود" قد ذهب إلى جزيرة "وايت" من قبل؛ حيث لم تكن المكان الذي سيساعد في شفاء سيدتي ، وسرنا

خلال رواق هذا الفندق الرخيص، كان إلى حد ما يبدو حقيرا، وعندما كانت سيدتي تستلقي بفراشها، كنا نشعر جميعا -بما في ذلك سيدتي- كما لو أنها ستموت.

وفي الشتاء التالي، انطلقنا بملحمة الأوديسة الخاصة بنا في رحلة إلى جنوب إفريقيا وعدت منها أنا وسيدتي فقط، ولم يتوفر المال لوجود صحبة؛ فعائلة "جوردن" دائما ما يحتاجون إلى الكثير من المال، على الرغم من أن سيدتي تقول أنه منذ انتقال السيد "أليك" من المالية إلى الإيرادات الداخلية ب "سوميرسيت هويس"، أصبحت الأمور أيسر، ويمكنني أن أشهد على ذلك؛ فراتبي دائما ما يُسدد بموعده هذه الأيام.

أحببت مغامرتنا على تلك السفينة والتي كانت مغامرتنا هروبا ذكيا، أحببت المدن التي تطل عليها الموانى؛ فقد كانت المناظر شديدة الغرابة كلما سافرنا جنوبا، أحببت مغامرتنا أكثر عندما كنا في البحر؛ حيث لا توجد يابسة من حولنا ولا أشجار ولا مباني ولا أشخاص، فقط توجد المياه والسفينة وسيدتي وأنا.

سألتني سيدتي ذات يوم:

-هل تفتقدين الجو الأسري؟

فابتسمت وكان بإمكاني القول أنها تفتقد أسرتها فقلت:

-ولا بقدر ضئيل؛ فأنا لا أفتقد أيَّ شيء في انجلترا.

فضحكت وقالت:

-حسنا، إذن فأنتِ مخلوق غريب يا "سالي نالدريت"، ولكنك ممتازة بالنسبة لي.

ضحكت، وكانت الحقيقة أنني شعرت بالراحة لمغادرتي "إيشير" والابتعاد عن نشر الإشاعات والحقد والقرب الشديد من الموظفين الآخرين؛ حيث أحببت أن أعتمد على نفسي،

وأحببت أن أكون المسئولة الوحيدة عن سيدتي، وأحببت الابتعاد عن طلبات صغار طاقم العمل من النساء والذكور وعدم مساعدتهم، وقلت:

-إنني أستطيع البقاء في عرض البحر إلى الأبد بسعادة.

وعلى الرغم من أن هذه الرحلة كانت مرضية لي بصورة كبيرة، إلا أنها لم تلبي احتياجات السيدة "داف جوردن"؛ حيث أن السفر الطويل على صفحات المياه ولآلاف الأميال التي قطعناها وكل هذا السفر بالبحر لم يكن ما تحتاجه، بل الجو الجاف والدفء وضوء الشمس لتجفيف رئتيها وجذورها الدفينة، فبإمكانها التخلص من مرضها للأبد

عدنا إلى "إنجلترا" مرة أخرى بعد عام كامل على متن السفينة، وبالنسبة لسيدتي كان وجودها مع أسرتها شيء جميل، كانت الأسرة بالكامل عند ميناء "فيكتوريا"، والسيد "أليك" يلوح بمنديل أبيض، وابنتها الكبرى السيدة "جانيت"، مدام "هنري روس" والتي قرب موعد وضعها لطفلها الأول، والسيد "موريس" الذي أصبح طويلا ويبلغ ما يقرب من ثلاثة عشر عاما، والطفلة "رانية" التي تبلغ الآن ثلاثة أعوام؛ واندفعت سيدتي من المركب كالأسد الذي ينقله القبطان على متن السفينة وحرره الآن من قفصه. أخذت أفكر كيف أن سيدتي كانت تفتقد أسرتها بشده، ولماذا لم ألاحظ مدى افتقادها لها بينما كنا بعيدا؟ !

بالبداية بدا أن "رانية" لم تعرف والدتها تلك المرأة الشاحبة التي يفوح من شعرها رائحة البحر، ولكن في العربة أخذت الفتاة الصغيرة تنظر وتفحص وجه والدتها التي لم تستطع أن

تظل صامته أو تتوقف عن الكلام عن "إفريقيا" والتماسيح والفيلة والأسود وكافة العجائب التي رأيناها، وبعد مرور فترة نزلت الفتاة الصغيرة من مكانها حيث كانت تجلس على قدم والدها، ثم تسلقت وجلست في حضن والدتها، وهنا توقفت سيدتي عن الكلام وابتسمت بصورة واضحة.

وهكذا انقضى شهر يونيو/حزيران واستمرت سيدتي تبتسم ل"رانية" دائما طوال الأسابيع القليلة التالية، ولكنني عرفت قرار الطبيب قبل أن يقوله؛ حيث لم يكن للسنة التي قضيناها بالخارج أثر في شفاء لحالة سيدتي؛ فالمرض متمكن من السيدة "داف جوردن" في قبضته ويستنفذها ويسرقها منا جميعا خلال هذه العملية.

ويئست من الوصول إلى حل وكذلك الجميع؛ لأننا في أعماقنا نعلم أنه لا يوجد علاج لمرضها، وقال الجميع هذا، ولكنهم قالوه بصوت أعلى هذه المرة؛ حيث أخبرها كلا من الدكتور "أيزود" والسيد "ميريديث" أنها لن تنجو إذا قضت شتاء آخر في إنجلترا.

سافر الدكتور "كويل" من لندن خصيصا ليعطي التعليمات لسيدتي بنفسه؛ فإذا أرادت أن تحيا فعليها المغادرة، ويجب عليها أن تترك وطنها الحبيب مرة أخرى ومنزلها الدافئ وما يحتضنه من كتب وكتيبات وأوراق ونقاشات جيدة صاخبة ذات حس فاكهي، كما يجب أن تترك زوجها المخلص وأطفالها الأعزاء وتسافر إلى مكان دافئ ومضيء وجاف خلال أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير ومارس الرهيبة، وحتى شهر إبريل يكون شديد البرودة ورطبا في انجلترا، ولم أعتقد أن الطقس من

الممكن أن يكون سببا في الموت، ولكن شتاء آخر في انجلترا قد يقتل سيدتي.

هكذا وجب أن ترحل وتحدد مصيرها، وسأقوم بمصاحبتها في رحلاتها مرة أخرى وسأذهب أنا وهي إلى "مصر".
سأهمس بتلك الكلمة الرائعة مرة أخرى: "مصر".
أنا خادمة السيدة "داف جورن" أبلغ من العمر ثلاثون عاما، وهذا سن كبير بالنسبة لامرأة عزباء، أعتقد أنني أصبحت عانسا منذ عدة سنوات، أعمل بمنزل عائلة "داف جوردن" منذ ما يقرب من عشر سنوات، تلك السنوات العشر كانت جيدة بالنسبة لي وقبلهم كان الفقر مصاحبا لي؛ حيث أصبحت أنا وأختي "إلين" يتيمتين عندما توفي والدانا صاحب متاجر "الباترسي" في حادث خروج القطار عن القضبان في "كلافام"، وكنا نقيم عند الخالة "كلارا" في هذا الوقت، كان والدنا في طريقه لإعادتنا إلى المنزل، وبقينا عند الخالة "كلارا"، ولكنها لم تستطع الإبقاء على طفلين إضافيين، وهكذا ذهبنا للعمل بالخدمة وذهبت أنا بنفس العام ثم "إلين" بعد عام، وكانت وظيفتي الأولى خادمة في حجرة غسل الأطباق بمنزل متواضع في "إيشير"، واتخذت فراش نومي على الأرض بحجرة المؤن، بينما نامت الآنسة "هارتنيل" -مدبرة المنزل- على منضدة المطبخ مثل الملكة، كما اعتادت أن تقول ذلك وتضحك، وكانت الآنسة "هارتنيل" مرحة ومليئة بالحيوية وتعرف كيف تعمل بصورة جيدة وسريعة، أجدُّ بهذا المنزل حيث تعلمت سريعا وانتقلت لمنزل آخر بمكانة أعلى في سلم تدرج الخدم؛ ثم أتت أسرة "داف جوردن" إلى "أشير" واتخذوا مسكنا بمنزل السيدة "داف جوردن" الذي يسمى "ذا جولدن آرمس"، واستطعت أن أقدم طلبا لشغل وظيفة بهذا المنزل الأكثر رقيا

وتم قبولي وبقيت هناك.

وعملت باجتهاد، وكانت سيدتي تكافئ العاملين لديها، وكل شيء قمت به كان على نحو جيد أو هكذا جعلتني أعتقد. كان لديَّ يوم عطلة في الشهر؛ حيث أضع قبعتي وأركب القطار وأنطلق إلى لندن.

دائما ما كانت سيدتي تقول أن امرأة في مثل سني في إمكانها السفر بمفردها إلى لندن، ولا يمكنني سوى أخذ القطار إلى "لندن" والسير بالمدينة -تذكر ذلك يجعلني أبتسم من السعادة- حيث الزحمة والناس والروائح وصعود سلم متحف "بلومسبري" والسير بغرف العرض والأروقة والمصفوفات الزجاجية مرورا بالزرافة ذات العنق الطويل الذي قد تتسبب في الأذى لعنقك وأنت تتطلع إليه ومرورا بالسكاكين والعملات والكؤوس والجرار في عرضهم، حتى وصلت إلى الغرفة التي كنت أقصدها وهي معرض المنحوتات المصرية، جلست وأغلقت عيناي قبل البدء برؤية الأشياء؛ حيث لم أرغب في أن أفسد توقعاتي برؤيتها مرة واحدة، أتيت كل هذا الطريق، وعلى الرغم من ذلك فبمجرد وجودي هنا أصبحت غير قادرة على النظر، ثم فتحت عيني ورأيت الفراعنة وآلهتهم والكتابة الهيروغليفية وأسرار تلك الأرض القديمة المنقوشة على الحجر.

كان لديَّ ما أفضله؛ ففي أول مرة رأيت وجهه الطويل الجميل اعتقد أنه امرأة، ولكنه رجل فرعوني قوي البنيان له عيون مكحله تشبه عيون القطط. أردت أن أتحسس خديه بيدي إذا استطعت الوصول لهذا الارتفاع أعلى شفتيه وللأسفل عند

ذقنه لأتلمس عظامه الحجرية أسفل بشرته الحجرية الباردة الناعمة، ونظرت إليه كما نظر إليَّ وضحكت من نفسي؛ فهو رجل أحلامي.

ذهبت هناك لفترة طويلة، لا أعرف سببا لهذا، وسألتني الخادمات الأخريات عن سبب ذلك؛ فهن يعتقدن أن هذا غريب جدا؛ فلماذا أقطع كل هذه المسافة وصولا إلى المدينة لأجلس بالمتحف؟

معظمهن لم يذهبن إلى هناك وستنتهي أيامهن ولن يذهبن أبدا، لكنني لم أعرف كيف أجيب عليهن فقد حاولت ذات مرة مع الطاهية؛ فقلت:
-لأنني أحب الغموض.
فنظرت إليَّ كما لو أنني نسيت كيف أتحدث الانجليزية، وزرت هذه الغرفة مرات عديدة على مدار العام، وحقيقة أننا ذاهبون الآن إلى مصر، كانت مصادفة جميلة لصالحي للمرة الأولى.

وبعد متحف النحت كنت أذهب لأرى المومياوات في أغلفتها، هذه الغرفة مقلقة على الرغم من ذلك ذهبت إليها، وقد شعرت أنه ليس من اللائق نقل المومياوات من مقابرها وعرضها هكذا، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليهم؛ حيث كنت فضولية ومستمتعة كأطفال المدرسة

دائما ما كان هناك تزاحم من الطلاب الذين يتدافعون، وكنت أقف مثل شجرة النخيل بفيضان النيل بينما تدور الدوامة من حولي، أمعنت النظر بمسميات الأغلفة المعروضة وحاولت فك شفرة المعلومات المذكورة: طيبة، أنثى تبلغ من العمر ما يقرب

من ثمانية وعشرون عاما، فقلت لنفسي أنها تصغرني بسنوات قليلة.

ذات مرة تحدث إليَّ رجل في المتحف وأنا في غرفة الموميات، كان له وجه قريب من وجه المومياء نفسها، روعني ظهوره بشده لدرجة أنني لم أسمع كلماته ولم أكن قادرة على الرد عليه، لابد أنه أعتقد أنني بلهاء أو أجنبية أو كلاهما؛ فأنا غير معتادة على أن يتحدث معي الرجال بصورة مباشرة على الأقل الرجال الذين لا أعرفهم بالفعل وربما كان هو نفسه أجنبي أو مصري يشعر بالحنين لوطنه وأتى لينظر إلى رفقائه من رجال دولته، وربما كان يسعى خلف شيء ما، لا أعلم فقد سرت مبتعدة.

بعد أن أنهيت النظر بالغرفة المصرية بالمتحف، سرت عائدة من خلال شارع "كوفنت غاردن" إلى محطة "نشارنج كروس" وعدت إلى "إيشير" مرة أخرى ثم إلى "جولدن أرمس" عائدة لسيدتي؛ السيدة "داف جوردن" -"لوسي"- بالطبع أنا لا أدعوها باسمها الانجليزي؛ فـ"لوسي" اسم جميل وعظيم على النقيض تماما من اسمي؛ فـ "سالي" اسم عادي وبسيط قد يطلق كاسم كلب، وهذا ما اعتد قوله لأختي "إلين" عندما كنا صغارا وكانت تضحك بشدة فهو اسم خادمة.

هناك صورة لسيدتي مختلفة عن شكلها الآن؛ فقد شاب شعرها وأصبحت نحيفة، وقد رسمها السيد "هنري فيليب" حينما كان يمكث في "جولدن أرمس" وكانت لوحته تصور الحالة الحقيقة التي عليها سيدتي؛ وقد كسر كاحله عندما سقط على سلم محطة "واترلو" فلازم المنزل حتى تمام شفائه، وسمعت سيدتي تقول للسيد أليك:

-يشعر "هنري" بالضجر.

فقد كتب لها ملاحظة يشتكي فيها فدائما ما يكتب أصدقاء سيدتي لها ليخبروها بشكواهم، واعتاد السيد "أليك" أن يقول لها:

-إنك تحظين بثقة نصف سكان لندن.

وقام السيد "فيليب" بترتيب القماش على الحبال والبكرات، وبذلك أصبح يستطيع رسم سيدتي بينما يتكئ على الأريكة ورجله مقيدة ومرفوعة، ويقومان برن جرس صغير عندما يحتاجان إلى تجديد الشاي والكيك لهما ويحدث هذا باستمرار، ويمتلئ المنزل بحديثهم وضحكاتهم، وكنت أنا والخادمات الأخريات نتجادل حول من سيذهب بالصينية.

عند عرض اللوحة بالأكاديمية الملكية سافرت سيدتي والسير "أليك" من "إشير" لرؤيتها؛ وعند إفطار اليوم التالي للزيارة، قالت لي سيدتي:

-لقد ضحكنا من رؤيتي أخلد على هذا النحو، ولكنني صدمت يا "سالي" أيضا؛ فقد بدأ الأمر كما لو أن السيد "فيليب" قد أستطاع رؤيتي من الداخل بصورة مباشرة.

وتوقفت، وقال السيد "أليك":

-إنك تحفة فنية.

وقالت سيدتي:

-إنني مرحة وممتلئة وقد كان أمرا محرجا أن أقف أحدق بنفسي كما لو أنني أنظر بمرآة في معرض عام، وهذا شيء عديم القيمة.

ولكن الجميع استطاع رؤية سعادتها وتم تعليقها في غرفة الرسم، ونظرنا إليها كلما مررنا بجوارها، ومن وقت لآخر، كنت أراى سيدتي تنظر إليها، يبدو أنها تفكر وتقول: "نعم هذا أنا على حقيقتي معافاة صحيا وصغيرة ومحبة للحياة والعيش.

هذه المرة لا يظن أحد أن الرحيل عن الوطن سيكون مؤقتا، وأبن سيدتي الوحيد "موريس" سينطلق إلى "أتون"، وطفلة سيدتي "رانية" ستذهب إلى عمة سيدتي السيدة "تشارلوت"، والسيد "أليك" سيمكث مع السيد "تايلور" في "لندن" فسيكون بالقرب من مكتبه.

عند مغادرة الجميع لا توجد ضرورة للإبقاء على "جولدن أرمس"، وألغوا عقد إيجاره حيث سيكون الفراق طويلا ليظل بانتظار عودتهم، ومع غلق المنزل وتعبئة حقائب الأطفال، أصبح هناك الكثير من العمل لنقوم به، وكنت أنا وسيدتي ممتنتين لوجود الكثير من العمل لننجزه ، فقد شغل أذهاننا عن الفراق الذي يقرب موعده مع مرور كل يوم.

أتت مدام "هنري روس" ابنة سيدتي الكبرى لمساعدتنا، ودائما ما تكون الطاهية ضجرة لأن السيدة "جانيت" لا تتفق مع سيدتي وتقول أنها لم ولن تكون كذلك في يوم من الأيام، فمنذ أن كانت فتاة صغيرة أصابتها خيبة الأمل من والدتها كما لو أن سيدتي قد فشلت في أن تقابل توقعاتها، واعترضت الطاهية وهي تهز رأسها قائلة: "لم أراى في حياتي مثل هذا."، وهذا صحيح؛ فالسيدة "روس" كانت تفضل أن تكون سيدتي تقليدية؛ فيبدو لي أن الطبيعي وجود شيء مشترك بين الفتاة وأمها، ولكنهما مشتركتان بأمور قليلة جدا على آية حال.

أطاحت سيدتي بالأغراض من على أريكتها، فقد أضعفها المرض مرة أخرى، فحاولت أن أمنعها من العمل. والآن ونحن نقوم بتعبئة الأشياء أصبح من الجلي لنا أن البيت ممتلئ بأشياء لا يريدها أحد، وتساءلت السيدة "جانيت" قائلة:

-لماذا تحتفظين بكل هذه الأشياء يا والدتي؟ فالخزائن مليئة بآنية خزافيه مشققة ومكسورة وبياضات أصبحت مستهلكة بشدة لدرجة أنها غير قابلة للتصليح.
فأعطتنا سيدتي إشارة للتخلص منها، إن رؤيتها هذا المنزل وهو ينهار بهذا الشكل يعد صدمة.

قضينا أيامنا ونحن محاطين بالخردة والحطام التي كنا نقتنع جميعا أننا بحاجة إليها، حتى الكتب قمنا بتوزيعها، وقمنا بلف كتب سيدتي الأربعة عشر-روايات فرنسية وألمانية وتاريخية- لتذهب مع ممتلكات السيد "أليك"، ومن الطبيعي عدم أخذ سيدتي قرارا بأخذ هذه المجلدات معها إلى مصر.

تزوجت السيدة "روس" من السيد "هنري روس" وهو مصرفي وعاشا بالقاهرة في الأسكندرية وهي مدينة عظيمة تقع عند مصب نهر النيل، هذا ساعد سيدتي في اتخاذ قرارها بالسفر إلى "مصر" بنفسها على الرغم من أن الأسكندرية مع هواء البحر الأبيض المتوسط ليست جافة بشكل كافٍ لسيدتي؛ لذا لن نستقر هناك. قالت السيدة "روس" : "ستكون الأسكندرية شديدة الرطوبة بالنسبة لك، وستتسبب بضرر شديد."، إنني متأكدة من أن هذا أراحها.

أختي "ألين" هي خادمة مدام "روس" وهي موجودة في "إيشير"، وتعمل معي في تجميع أغراض المنزل وقالت:
-تعد الأسكندرية مدينة حسنة تشبه "مارسيليا" غير أنها قذرة إلى حد ما، وهناك أشخاص أجانب آخرين يعيشون هناك ومعهم خادمات أجنبيات أخريات.". قالت هذا لطمأنتي، ولكنني لم أكن بحاجة لطمأنة.

تقضي "إلين" الصيف في "إيشير" مع عائلة "روس"، وستنجب السيدة "روس" مولودها الأول بالخريف هنا؛ لذا سأصل أنا وسيدتي إلى القاهرة قبلهم بفترة طويلة، وعلى الرغم من ذلك، فقد أراحني معرفة أنه سيكون هناك اثنان من أسرة "نالدرات" بمصر في نفس الوقت.
عشت أنا وأختي معا ب"جولدن أرمس" لعدة سنوات، وأفتقد وجودها بجواري منذ زواج السيدة "جانيت".

ليس من دوري إبداء ملاحظات على مشاعر سيدتي الداخلية، ولكنني أستطيع أن ألحظ إحباطها بسبب الفوضى الموجودة بمنزلها وتشتت أسرتها، وأعلن الأطباء أن قضاء سنتين في مصر قد يساهم في استردادها لصحتها، كل وداع يؤلم النفس قدر الوداع السابق له، وبالنسبة لسيدتي كان الوجع الجسدي قدر الوجع نفسي تفترسها الحال التي هى عليها؛ مما جعل نوبات سعالها تسوء، وتنهدت وتحدثت إلى نفسها أكثر أكثر من حديثها معي ونحن نجرد رزمة الحقائب وصناديق الثياب الكبيرة : " متى أرى أبنائي مرة أخرى؟" ، وقالت: "كيف ستعرفني "رانية"؟ ولم أعرف ماذا أقول؛ لذا تحدثت بعاطفة قائلة: "لا تتضايقي ولا تقلقي."، ولكن الكلمات بدت جوفاء حتى بالنسبة لي.

لا يوجد أي شخص هنا لأودعه بخلاف أفراد الخدم بالمنزل، والكل مثقل بأحزانه كالآخر؛ ولذا لم يكن هناك حاجة ولا رغبة في حديث الوداع؛ فهم يفقدون العمل وصاحبه، ولكن بالنسبة لي الأمر مختلف؛ فالمغادرة هي أمر سار بالنسبة لي؛ فساترك "إيشير"، وساترك المنزل والأشخاص الذين خدمت بينهم، لا شئ يربطني بهذا المكان؛ فأنا مغرمة "بإيشير" ومغرمة "بالطاهية" و"كاثي" و"إيستر" الذي يعمل بالمنزل الكبير

بآخر الشارع، وكما يقول الجميع، ففي" لندن" يمر الربيع كلمح البصر وسأفتقد رحلاتي إلى المدينة لزيارة المتحف، ولكن رحلاتي مع سيدتي جعلت للعالم معنى؛ فحياتي في "جولدن آرمس" كانت مغلقة، وهدفي الأساسي هو تجنب الناس وتجنب الكلام، ولأكون أكثر تحديدا تجنب الرجال؛ فالرجال يريدون أشياء ولهم مطالب ويحبون التظاهر كالرجل الذي كان بالمتحف في "بلومسبوري" وكانوا يضعون أنفسهم في طريقي، ولكن خادمة السيدة يجب أن يكون ولائها لسيدتها، والخادمات لا يتزوجن، وليس لديَّ أية رغبة في ترك سيدتي.

جهزت لسفر سيدتي مبكرا حيث أرادت أن تكون ثيابها في أحسن حال قبل المغادرة، وقد استمر فقدانها للوزن خلال فترة الصيف -فشلت محاولات الطاهية في هذا الصدد- لذا فهناك قدر كبير من الإصلاحات الواجب عملها، وساعدتني "لورا" -إحدى الخادمات الصغيرات التي مضى على وجودها بالمنزل عدة أشهر قليلة- في هذا، ولكنها تبث الإشاعات والتكهنات، وهذا الأمر قضيت حياتي وأنا أتجنبه ولن أفتقده بمغادرتي، إنها فتاة عذبة الحديث وكنت بالكاد أستمع لها عندما قالت:

-ألا تشعرين بالخوف؟

فقلت:

-ماذا اعذريني؟

فقالت:

-ألا تشعرين بالخوف؟

فقلت:

-لقد سافرت مع سيدتي من قبل.

فقالت "لورا":

-ولكن لم يكن بغرض الحياة ولا لتحيوا بمثل هذا المكان الغريب.

فقلت:
-أنا لست خائفة.
فقلت:
-أنا غير مهتمة بالذهاب.
فقلت:
-بالطبع تفضلين مغامراتك بالزقاق الخلفي.

كنت أشير إلى هذا بمرح، ولكن الفتاة رمقتني بنظرة تعبر عن صدمتها، ولتزيد من خجلي، انفجرت بالبكاء وقالت:
-لا أعرف هذا.
فقلت:
-لا تعرفين ماذا؟ !
فقالت:
-كان قليل من المرح، ولم أعرف أنها سيكون لها مثل هذا......
كافحت لتجد الكلمة المناسبة ثم قالت:
-هذه العواقب.
فوضعت يدي حول كتفيها الضيقان وجلسنا معا على السرير، كان هذا سرير سيدتي، ولكني أعلم أنها لن تمانع في مثل هذه الظروف، وتركت "لورا" تبكي وربت على ظهرها وسألتها قائلة:
-ماذا حدث؟
ولكنني كنت أعلم بالفعل فقالت:
-أوه، أنا ..
ووجهت نظرها إليَّ وكان وجهها أحمر اللون، فقلت:
-هل سيتزوجك؟
وامتنعت عن إهانتها بشكل أكبر بسؤلي لها:
-من هو؟

فهزت رأسها وقالت:
-لقد ذهب؟
فقلت:
-ذهب ؟ إلى أين؟
فقالت:
-لا أعلم والوقت الآن متأخر جدا والمنزل سيغلق ولن يعرف أين يجدني.
فاحتضنتها وهي ترتعد؛ حيث أدركت حدود مأزقها؛ بل إن كلمة مأزق تعد تخفيف، بل هي كارثة، فكيف ستؤمن مكانا في منزل آخر؟ وإذا حصلت على المكان فكيف ستحتفظ به لدى وصول الطفل المنتظر؟ ؛ فنظرت إليها ورأيت نفسي، ولهذا السبب أنا سعيدة لتركي "إيشير"، و"انجلترا" فقلت:
-دعينا نذهب ونتحدث مع سيدتي.
فقالت الفتاة:
-أوه، لا فأنا ......
فقاطعتها قائلة:
-لابد أن تخبري السيدة "داف جوردن" بكل شيء؛ فهي ستساعدك، هيا بنا.
وجذبتها خارج الفراش قائلة:
-تعالي معي.
وأعطيت "لورا" منديلا نظيفا خاصا بسيدتي، واصطحبتها أسفل السلم.

ليس هذا هو سبب اعتراضي على الرجال أو اعتراضي على الزواج. فقد قُدمت لي العديد من العروض لا يمكن سردها، والقليل منهم توقعوا أن أسقط في حبهم بقولهم: "أنت جميلة."، ثم يقومون بوصف بشرتي وشعري وملامحي

كما لو أنني لم أقف من قبل أمام مرآة، وكان هناك بعض الرجال الوسيمين من بينهم "جورج داوسون" صانع البراميل و"ربرت سميث" من بريوير، ولكنني رفضتهم؛ حيث لم أستطع ترك سيدتي فهي بحاجة إليَّ أكثر مما يحتاجوني، فإذا قمت بالزواج من "جورج داوسون" وأنجبت له أطفاله، هل كنت سأشاهد العالم كما شاهدته مع سيدتي؟ .

أتى الوداع شيئا فشيئا، وبالنسبة لسيدتي، كانت والدتها الحبيبة السيدة "ساره أوستن" والسيدة "داف جوردن" والدة السيد "أليك" والسيد "ميقيريديث" والسيد "تينسون" والسيد "تايلور" أصحاب سيدتي الحقيقيون المخلصون وأبناؤها هناك، ولكن كيف ستودع "موريس" و"رانية" دون معرفة متى ستراهم مرة أخرى؟ ، وكالمعتاد، تحملت سيدتي حزنها ورافقنا السيد "أليك" في المرحلة الأولى من الرحلة، وسيكون وداعه آخر وداع تقوم به سيدتي ومما لا شك فيه أنه سيكون الأصعب.

انطلقنا إلى "إيوكس بونيه" الفرنسية في العشرين من أغسطس وكنا نأمل أن نحظى بالدفء في "جبال البرانس الفرنسية"، ولكن الطقس كان باردا بالفعل عند وصولنا والأسوأ من ذلك أنه ممطر، وكتبت سيدتي إلى والدتها : الأمطار في "إيوكس بونيه" تنهمر من السماء وسقطت مريضة على الفور، وكنت ضعيفة وساعد السفر والجو الرطب والترحيب غير المرغوب به على زيادة ضعفي."، وفعلت كل ما أستطيع فعله لجعلها تشعر بالراحة، ولكن الحمى والسعال المختلط بالدماء قد عاد، وبذلت قصارى جهدي لأترك السيد والسيدة "داف جوردن" بمفردهما، حيث عرفت أنهما لن

يكونا معا لفترة طويلة، ولكن السيد "داف جوردن" كان قلقا ومستاءً، وبحلول وقت عودته للعمل في "لندن" زاد قلقه على زوجته والرحلة المنتظر قيامها بها، وكانت سيدتي مريضة منذ وقت طويل، ولكن السيد "أليك" مازال لديه الأمل في استعادة حيويتها وأيام رغدها، واستطعت رؤية هذا الأمر وشعرت به، وهكذا شعر كل شخص عرفها، وعندما لم تتحسن واستمر عدم تحسنها، اتسم رد فعل السيد "أليك" بالحيرة والقلق والرعب، وبذل قصارى جهده ليخبئه عن سيدتي، ولكن بلا فائدة فقد كان واضحا جدا بالنسبة لي ولأي شخص آخر يهتم برؤية ما يحدث.

أخيرا أصبحت سيدتي بصحة جيدة بما يكفي لتنتقل من "إيوكس بونيس" إلى "مرسيليا"، حيث تم الوداع بينها هي والسير "أليك" أخيرا في المحطة، وحاولت ألا أسمع ما يقولونه وأن أبتعد عن المشهد، ولكن كان هناك القليل لأسمعه؛ حيث قالت سيدتي: "مع السلامة يا "أليك".". فرد السيد "أليك" قائلا: "مع السلامة يا حبيبتي."، ثم أنطلق إلى قطاره وهو يلوح بيده، ورأيت سيدتي تستجمع نفسها فقد فعلت هذا كثيرا من قبل، وتحركنا إلى ميناء "ليفورنو" الإيطالية والمناخ أكثر دفئا، واستطاعت سيدتي أن تمدد جسدها في الشمس، وانتظرنا عدة أيام حتى حل موعد رحيل الباخرة البيزنطية التي حجزنا على متنها لتنقلنا إلى الأسكندرية؛ ومن ثم، شعرت سيدتي أنها بخير مرة أخرى . إنها لا تشبه أي شخص عرفته من قبل؛ فبمجرد شعورها أنها بخير، تظهر بكامل قوتها وشبابها ولا يستطيع أحد الشعور بأنها تتمزق من المرض الذي سيدفعها للرقود في السرير مرة أخرى؛ فدائما يكون ذلك نتاج مرضها، وعلى الرغم من ذلك، ففي "ليفورن" كانت بصحة جيدة وسعيدة،

وكان هذا شيء جيد؛ فسيدتي وأنا نعرف جيدا أن الإيطاليين يظنون أن المرض المصابة به سيدتي معدٍ؛ ومن ثم، فالذين يعانون منه يحرمون الراحة؛ لذا يجب أن تبدو بحالة وبصحة جيدة حتى إن لم تكن كذلك.

الفصل الثالث

اقتربت السفينة من الرصيف، وشعرت أن الحياة دبت في جسدي، فأخيرا وصلنا إلى مصر، واستدرت فإذا بسيدتي واقفة بجواري على الحاجز تنظر إلى تلوث المدينة بالدخان والحرارة وقلت:

- لقد وصلنا!

فابتسمت وقالت:

-إنهم يقولون أن الأسكندرية ليست مصر الحقيقية على الإطلاق.

فقلت:

-لا يا سيدتي!

وقد شعرت بخيبة أمل، حيث أنها إفريقة ذات موقع مميز تطل على البحر المتوسط وأوروبا مليئة بما هو زائف، نظرت إليَّ سيدتي ولم أكن متأكدة من قولها، وكانت نبرة صوتها عالية على

عير العادة؛ فأثناء الرحلة بدا أنها متحمسة مثلي للسفر إلى مكان به مثل هذه التحف، وتذكرت مرة أخرى ما تركته خلفها ولا شك أن وصولنا إلى وجهتنا المقصودة جعلها تتذكر، واتجهت نحوي وقالت:

-لكنك محقه يا "سالي".

وضعت يدها على يدي لتطمئني، وأكملت قائلة:

-نحن هنا في مصر.

أرعبتنا أول جولة لنا بالمدينة؛ فلم نكن مؤهلين لما كان ينتظرنا هنا؛ حيث الأطفال الصغار البؤساء يستجدون الناس لإعطائهم المال في كل مرة توشك فيه السيارة على التوقف مما تسبب في احتقان شديد بالشوارع الضيقة، وأقترب أحد الأطفال من السيارة وهي سائرة فجذبه أحد الرجال للخلف إلى مدخل الباب الآمن وبدأ يضربه بنعله الذي خلعه من قدمه لهذا الغرض، سمعنا كلامهم، كان غامضا وبلا معنى ومليئ بأصوات غير معروفة بالنسبة لنا كالصفير، فقلت:

-لن أستطيع تعلم كلمة واحدة .

دفعتنا السيارة للأمام مرة أخرى ورأيت وجه سيدتي شاحبا كما لو أن قواها التي اكتسبتها أثناء رحلتنا البحرية قد غادرت جسدها وطارت من النافذة إلى السماء العالية ذات اللون الزهرى الفاتح.

إن منزل أسرة "روس" هادئ وبارد، وتعجبت لكوننا هنا بمفردنا، نمت بسرير أختي "ألين" كل ليلة، ونامت سيدتي بحجرة نوم أبنتها، وكنت سعيدة لعدم تلقي الأوامر من مدام "روس" كما كان الوضع في إنجلترا ، وتسرب إليَّ شك أن

سيدتي تشعر بمثل هذه الراحة، ولم يكن هناك أحد ليستقبلنا ويحيينا ويسهل طريقنا؛ فأسرة السيد "روس" لا يبقون على طاقم عمل مؤقت بالأسكندرية، ولم تفكر مدام "روس" في تقديم أية مساعدة لنا، ولم تفكر سيدتي في طلب ذلك؛ فسوف يساعد بعضنا بعضا.

استراحت سيدتي بالحديقة العلوية على سطح المنزل التي قام بزراعتها زوج ابنتها، وهناك بالأعلى كتبت خطابات وقرأت واطلعت على الخرائط أثناء تخطيطها لرحلتنا إلى الجنوب أعلى نهر النيل، وعلمت أنها استمتعت بعبورنا للبحر مع مجموعة المسافرون الأغراب؛ حيث صاحبوها وقاموا بتسليتها، وكانوا فرقة غناء أوبرا إيطالية، وأربع سيدات شوام، وقنصل أسباني ساحر، ولكن الآن مع وصولنا أصبحت ضعيفة وحزينة، وأستطيع القول أنها فكرت فيما سنقابله وبما سيحدث لنا في مصر، واستسلمت سيدتي للبقاء بالمنزل بعد عدد قليل من محاولات الخروج الفاشلة في ظل دوامات الأسكندرية العاصفة.

في حديقة السطح، كان هناك مكتبة قامت الآنسة "جانت" بشحنها من "إنجلترا"، واعتادت سيدتي قضاء أيامها في المكتبة وبعد ذلك تنتقل إلى السطح في المساء، وأسعدني رؤيتها وهي تتراجع، فمن الواضح أن الشوارع مليئة بالأمراض؛ فكلما سرت سمعت شخصا يسعل بصورة مماثلة لسعالها.

كانت الأسكندرية -كما حذرتنا منها السيدة "روس"- قديمة ومنح جو البحر المباني رائحة الصقيع المالح، وقمت بشق طريقي في شوارع بها منازل ذات واجهات أوروبية بيضاء كبيرة ومن الداخل ذات لون برتقالي وأحمر وذهبي وأخضر.

كان سقف حديقة السيدة "روس" مرتب وبه مظلة إنجليزية، بينما كانت حديقة الفناء التي أنظر إليها -كلما أمكنني- مليئة بالألوان والأشجار المتنوعة منها أشجار "اللدن" مع أزهارها ذات الروائح الجميلة التي تداخل مع رائحة المدينة، ولم يكن هناك معالم حقيقية لمشاهدتها؛ فآثار الأسكندرية وهمية كما قالت سيدتي، ولكن بها مقبرة الأسكندر الأكبر ومنارة الفراعنة وهي إحدى عجائب العالم القديم، ولكن لا يوجد شيء لرؤيته، يوجد خليط كبير من الثقافات التي يمكن تخيلها وحركة بيع محدودة كالحلاق الإيطالي الماهر المجاور للخباز السوري الذي لديه فرن طيني ومخبوزات فرنسية رائعة، ومجموعة الفلاحات اللاتي يبعن البرتقال خارج الأبواب الزجاجية المصقولة.
غامرت بالذهاب إلى السوق والمحلات الموجودة بالشوارع، لكنني دائما ما كنت أعود مهزومة بيدين خاويتين يتبعني ويشحذ مني الأطفال الجانحون، وفي الشارع ابتسم الناس لرؤيتي ولم أكن قادرة على التميز إذا ما كانوا يرحبون بي أم يضحكون عليَّ، وحقيقة، لم أكن يوما بمكان غريب مثل هذا المكان.

وذات يوم، وبينما كنت أعد نفسي لإحدى جولاتي بالسوق -ربما هذه المرة استطعت حقا شراء بطاطس- حضر اثنان من أصدقاء السيد "روس" وطرقوا بابنا وهما السيد "هيكيكيان بك" وهو رجل أرماني محترم تعلم في انجلترا، يرتدي بدلة انجليزية وعلى رأسه طربوش أحمر مع شُرابة من الحرير الكحلي تبدو غريبة الشكل، والسيد "ويليام تيلور" القنصل العام الأمريكي وهو صغير ووسيم، وجهه بشوش وعطوف، استمتعوا بحكايات سيدتي عن فشلنا في التكيف والنجاة؛ وكما شاهدت، فكانت سيدتي سعيدة باستمتاعهم وأدركت

مرة أخرى أن هذا هو ما تحتاجه ليتحسن حالها ؛ فإنها تكون في أفضل حالتها عند وجود صحبة، وبمجرد وصولهم، بدا كما لو أنها تتنفس بشكل أسهل؛ فهناك من تتحدث معه ومن تسأله وتقنعه وتتجادل معه حيث أن ذلك الأمر يجعل الحياة ممتعة للغاية، ولم يكن هنا شخص واحد يريد إسعادها، بل شخصان، وعندما سأل السيد "تايلر" سيدتي عن رأيها في الأسكندرية، قالت :

-أليست هذه هي المدينة التي قتلت كليوباترا نفسها بها؟

فضحك كلا الرجلان، و قال السيد "تايلر":

-ما تحتاجين إليه يا سيدتي هو مرافق... خادم.

وقام بنطق الكلمة الأخيرة بحرص شديد، فقالت سيدتي:

-أوه، هل هذا سيجعلنا نشعر أننا أقل بؤسا؟!

ونظرت إليَّ بينما كنت أضع صينية القهوة، فقال السيد "تايلر" بحزم:

-نعم فأنتم لا تستطيعون التحرك في هذا البلد بدون وجود مصري بجواركم، وأنا أعرف الشخص الممتاز لهذه الوظيفة.

وقبل أن تسمح سيدتي بسؤال نفسها هل تحتاج فعلا أو تستطيع تحمل مثل هذا الأمر، عاد إلينا في وقت لاحق من هذا اليوم محضرا معه شاب مصري صغير، وقال السيد "تايلر":

-سيدتي، أقدم لكِ السيد "عمر أبو حلاوة"

فقالت سيدتي:

-معذرة، حلاوة!!

بدا السيد "عمر أبو حلاوة" متحيرا إلى حد ما، وتساءلت كم يستطيع أن يفهم ما يحدث، وكان ينظر إلى السيد "تايلر" وسيدتي باهتمام، وانتهزت الفرصة للنظر إليه جيدا، كان أصغر مني إلى حد ما، كان نحيفا إلى حد ما كباقي المصريين الذين

قلما تجد بينهم من عنده زيادة في الوزن، بدا مهندما للغاية ، أنيق مثل معظم المصريين، حالق ذقنه ونظيف، وبشرته ناعمة بصورة على غير العادة، وذكرني بشخص ما، وغمرني شعور مزعج حتى تذكرت أنه الرجل الذي اعتدت زيارته في المتحف -فرعوني الحجري-، وشعرت بالسخونة على نحو مفاجئ وبضيق بحنجرتي، وتسارعت نبضات قلبي، واحمررت خجلا من نزوتي، وتمنيت لو لم ينظر إليَّ أحد في ذلك الوقت.

وكرر السيد "تايلور" قائلا:

-أبو حلاوة... أبو الحلويات، لكنته الأمريكية سلسلة جدا، يترجم اسمه، وهو من عائلة خبازين بالقاهرة وأنا متأكد أنه هو نفسه خباز ماهر جدا، وسأقول اسمه مرة أخرى: السيد عمر أبو حلاوة.

وهنا قام السيد "أبو حلاوة" بانحناءة رشيقة وأنيقة قبل أن يقف باستقامة ويبتسم، ثم أخذ من خلف ظهره صندوقا ملفوفا بإتقان من حلوى العسل، كنت أشتهيها، ولكنني فشلت في شرائها، وكنت منذ وصولنا أجد صعوبة في طهي الطعام لسيدتي، وكان الحل في البلح الطازج من السوق والخبز العريض المملح والتوابل التي كانت تأتي إلى بابنا بواسطة فتى غير معروف بناء على طلبنا، كانت لذيذة وإن لم تكن مرضية بصورة تامة، وفكرة توظيف مرافق يستطيع الطهي جعلني سعيدة؛ حيث كنت على وشك أن أفقد وعيي من الجوع لإهمالي تناول الطعام في الأيام الماضية لأوفر لسيدتي الطعام، وتظاهرت بأنني كنت أتناول طعامي بالفعل، ومن ثم، أتي السيد "عمر أبو حلاوة" ليساعدنا، وبعد ذلك أصبح كل شيء أيسر.

كان اللقاء مختصر وتناول الموضوع مباشرة، ودعت سيدتي السيد "عمر أبو حلاوة" للمكوث معها لبعض الوقت وتحدثا

معا، وكان السيد "تايلر" يقاطعهم بانتظام ليقوم بالترجمة عند الضرورة وليقدم مزيدا من الثناء على المرافق، وقدمت الشاي من مخزون أسرة "روس" (أخشى أنهم سيتوجب عليهم تجديد مخزونهم عند عودتهم من إنجلترا)، وتحدث السيد "أبو حلاوة" الإنجليزية جيدا وقال السيد "تايلر" أنه ماهر في الفصال، وهذا شيء أساسي في هذه البلد؛ حيث اكتشفت أن كل شئ قابل للتفاوض، وهكذا أصبح يعمل لدينا وانتقل لمنزل أسرة "روس" في اليوم التالي، وبدأ تعليمي اللغة والعادات المصرية.

قال:

-أهلا- هالو تقال بالمصري السلام عليكم.

وجلسنا معا في الشرفة بفندق "شيفرد"، وذهبت سيدتي لأعلى لتسترح لبعض الوقت قبل العشاء، وكانت شمس المساء وردية ومليئة بقذارة المدينة ودخان النيران المشتعلة وبالأسفل كانت القاهرة هادئة إلى حد ما.

- "سلام" تعني السلام تحية كقول " أهلا" نحو "السلام عليكم"، ولكن هناك أيضا أهلا ونجيب عليها بقولنا "أهلا وسهلا".

وقمت بعمل محاولة، وشعرت بالكلمات تملأ فمي بالهواء والتراب، وكنت قد سمعت هذه التحيات عدة مرات بالسوق، ولكن هذا لم يجعل نطقي لها سهلا.

قال السيد "أبو حلاوة":

-أسمي الآنسة "نالدريت".

وقهقه بصورة مخنوقة واستهجن الأمر وقال:

-آنا أسمي الآنسة "نالدرت".

-هذا سهل " أنا أسمي الآنسة "نالدريت""

-وأنتِ؟
-معذرة!
-وأنتِ؟ أنتِ للمرأة وأنت للرجل.
فشعرت بالخجل على الرغم من معرفتي أنه لا يسألني بالفعل؛ فهو يعرف اسمي، ولكنني أجبت بحرص:
-أنا أسمي الآنسة نالدرت.

تحرك المركب الصغير؛ حيث كنا نسافر جنوبا بعيدا عن البحر الأبيض المتوسط وبعيدا عن جميع الأشياء الأوروبية، وبالفعل وقعت في الغرام النيل والمدينة وأهلها.

إن حياة المراكب غير مريحة ولا تشبه أية حياة أخرى، وليست كحياتنا السابقة التي كان بها غرفة للرسم وغرفة للاستشفاء ومطبخ وحديقة، كما أن الملابس التي نرتديها ليست مناسبة؛ فالأحذية ذات الرقبة المرتفعة والقفازات والقبعات والتلبيسة التحتية والمشدات لا تناسب الجو هنا، وجلست بحجرتي الصغيرة المنخفضة، ونظرت إلى الأشياء التي تظهر بنظام في حقيبتي حيث أريد ارتداء ما لا يخنقني، فأخذت أفكر بالأطفال وهم غلمان حُفاةٌ رأيتهم يلعبون عند حافة النهر بالأمس، وتحدثت إلى نفسي بصوت منخفض قائله : ينبغي أن أجري عارية بالنهر مثلهم!
وابتسمت وضحكت على الفكرة، ولكن ما زال يجب عليَّ ارتداء ثيابي بالنهار، واخترت أخيرا زيا إسلاميا عالي الرقبة وكان من أفضل الثياب التي امتلكتها في انجلترا على الإطلاق، وقد أعطتني سيدتي إياه بعد ارتدائه مرة أو مرتان فقط عندما كانت أكبر مني في الشكل؛ فسيدتي ليست مبذرة فيما يتعلق بالثياب، ولكنها لم تحب هذا الثوب ولم تحب اللون البني وقالت

وهي تعطيني إياه:
-لا أعلم كيف اشتريته.
وعلى الرغم من أنني أطول من سيدتي، لكنني قمت بقص الثوب ليناسبني ولونه يتلاءم مع عيوني البنية وشعري الأسود.
والآن أجدني أفتش الثياب، وأتساءل إذا ما كان عليَّ عمل فتحات بالثياب الثقيلة في محاولة لتخفيف حرارة جسدي تلك الحرارة الشديدة التي تتولد منه، وكان المفترض أن يكون الجو خريفيا هنا كما في انجلترا، ولكنه لا يشبه أيَّ خريف عشته من قبل، وبدا "السيد أبو حلاوة" دائما يشعر بالبرودة، وتساءلت عن كيفية شعوره بهذا، وذلك ليس ناتجا عن تخفيف الملابس، ودائما ما يخرج بهيئة جيدة؛ فهو يهتم بثيابه وسترته وحزامه وسرواله وثنيات سرواله والصديري ويوليها نفس الاهتمام الذي أوليه لملابس سيدتي، وأخبرني بأسمائهم في إحدى المرات التي كنا نتبادل فيها الحديث، يبدو أنيقا في بداية اليوم، وعند مغيب الشمس خلف التلال البيضاء بعد يوم حار طويل.
وعند رؤيتي للتلال البيضاء التي أراها عندما أغلق عيني في ظلام غرفتي، قلت لنفسي: هذه هي الصحراء فالعالم نفسه مرعب حتى نهر النيل.
فعلى الرغم من امتداده، لا يمكن أن يصل إلي هذه الصحراء، وفي بعض الأوقات تسلط الشمس على قاربنا "زينة البكارين"، وبحثت عن مكان أهرب إليه لأهرب من شعوري بالحر الشديد.

وشعرت في بعض الأوقات بالرعب عندما نظرت من المياه إلى الأرض المزروعة وهذه التلال البيضاء حيث الصحراء الشاسعة المليئة بالموتى ومستودعات الجثث والمعابد الجنائزية والموميات في مقابرها وقبور العمال، ولكنني في أمان حتى هذه

اللحظة؛ فنحن نسافر بأمان وسعادة إلى أعلى النهر على قارب دهبية -زينة البكارين- التي أجرها لنا السيد "أبو حلاوة" بمجرد مغادرتنا الأسكندرية وانتقالنا إلى "القاهرة" ... أوه، كلمة "القاهرة" ! لها صدى، يالها من كلمة خفيفة على اللسان؛ حيث كنا بحاجة إلى استئجار مركب فأمن السيد "أبو حلاوة" واحد لنا، وكنا بحاجة للإمدادات فأمن لنا هذا أيضا، والأكثر من ذلك أنه قد سمح لي بمرافقته إلى السوق، وأخذني أنا وسيدتي في رحلات بشوارع المدينة بعيدا عن فندق "شيفرد" المزدحم شديد البرودة ورائحته كفندق "جزيرة وايت"، وسرنا خلال الأزقة الضيقة بين مستويات الطوابق العليا للمباني التي تحجب الشمس بالنوافذ الشبكية الخشبية ومصدات الرياح كما يسمونها والتي تبنى لتحبس أي شيء يمكن أن يحمله النسيم، وشاهدنا مسجدا من العصور الوسطى -مسجد ابن طولون-؛ حيث شاهدنا مرافقنا وهو يخلع حذائه ويغسل قدميه ويركع ليصلي، كذلك شاهدنا وخان الخليلي والبازارات الهائلة؛ حيث عامل سيدتي كزائرة من الأعيان، وتناولنا القهوة التركية الحلوة، وسألت سيدتي العديد من الأسئلة مثل الطفل المتحمس بشدة الذي يريد أن يراه ويسمع ويتذوق ويشم كل شئ، وشعرت أنا أيضا بهذا.

قاد السيد "أبو حلاوة" الطريق، ونحن في القاهرة أخذنا لمحة عن مصر الحقيقية؛ مصر، القديمة والحديثة، التي اشتقنا لرؤيتها؛ إنها معزولة ومنفتحة ونامية ومليئة بالضوضاء والحرارة، وقد صحبنا السيد "ويليام تايلر" في بعض جولاتنا، وفي وجوده استعادت سيدتي نفسها بالفعل وحيويتها ونشاطها، وركبنا بالقرب من المكان على حمار مستأجر أطلقنا عليه "جورجي" (وذكرني بالسيد "ميريديث" كما أدعت سيدتي)، حصلنا

على طفل يقود الحمار يدعى "حسن" وأصبح المسكين سريعا ضحية أخرى لإهانتنا، وبعد قضاء يوم واحد معنا، تعود على التحدث معنا تقريبا؛ حيث كان يقول مياه وهو يشير إلى كوب المياه الخاص بي ويكرر "نهر" وهو يشير إلى نهر النيل، وفي المساء كنا نمكث بالفندق حيث تقضي سيدتي وقتها وهي تكتب أحداث اليوم لكل من السيد "أليك" ووالدتها وأصدقائها، ولم تزعج نفسًها بانتظار الرد قبل بدء خطاب جديد وكانت تقول:

-الرد قد يستغرق أسبوع ولا أستطيع الانتظار طوال هذه الفترة قبل إخبارهم عن ما رأيناه .

وكان الوضع كما لو أن كتابة هذه الرسائل بنفس أهمية ما فعلناه خلال اليوم نفسه إن لم يكن أكثر أهمية وكأن خطاباتها للوطن أصبحت وظيفتها لتحل محل كافة ما كتبته أثناء حياتها.

دعا السيد "هيكيكان بك" سيدتي للعشاء بمنزله بالقاهرة، وهو مجمع خارج القاهرة محاط بالحقول وفي الصالون الخافت البارد تقبع القطع الأثرية وهي قطع من منحوتات فريز وتماثيل صغيرة ورؤوس حجرية مكدسة أمام الحائط كالطوب القديم، وكنت أشاهد السيدة "هيكيكيان" وهي توضح لسيدتي الطريقة المصرية لتناول الطعام بالجلوس على الأرض والأرجل متداخلة -الجلوس بوضع التربيع- حول صينية مشتركة كبيرة، ورفعت يدها اليمنى فقط وقالت:

-هذه اليد ولا وسيلة أخرى.

واستمرت في استخدام الخبز العريض كمغرفة، ووجدت أن هذه الطريقة رائعة في تناول الوجبة وبسيطة وغريبة، لكنها عملية وقد تروق لسيدتي فضحكت وقالت:

-يالها من طريقة فعالة!

وبدئت تتناول طعامها كما لو أن الأكل نفسه شيء جيد. وقد تحسنت مع هذه الصحبة والمغامرة، ولكن أثناء ركوبنا العربة في طريق العودة اشتد سعالها مره أخرى وكانت الأيام القليلة الماضية أشد برودة، وقالت:

-نحن بحاجة للسفر جنوبا إلى صعيد مصر حيث الجو النقي الجاف الدافئ.

فقلت:

-سيساعدني السيد "أبو حلاوة" وسنستطيع المغادرة خلال أيام قليلة.

فأومأت سيدتي بموافقتها وأغمضت عينيها، وهكذا تركنا القاهرة ولم أرى أهرامات الجيزة بعد وسأنتظر حتى عودتنا، وبالرغم من اشتياقي لرؤيتها فقد هون عليَّ الأمر معرفتي لما سأراه في طريقنا، وفي مصر كان كل شيء مختلف تماما بما في ذلك النجوم والسماء فهما مختلفتان كما لو أنني وسيدتي قد انتقلنا لكوكب آخر وليس من دولة لدولة أخرى، إننا الآن على متن "دهبية" نبحر لأعلى نهر النيل.

إن الرجال على ظهر المركب يغنون ألحانا عذبة وقد سمعتهم في الصباح الباكر حينما مروا من أمام غرفتي، ياله من صوت تستيقظ عليه مع صوت الماء خارج النافذة الصغيرة! ينادي الرجال على بعضهم البعض من مؤخرة السفينة وحتى مقدمتها ومن مركب لآخر وأنا مصغية لهم، وكنت أنا وسيدتي نخمن معنى كلامهم ونحاول محاكاتهم.

كنا نتعلم القليل من الكلمات الجديدة كل يوم نحو "شاي" و"قهوة" وهما متشابهتان، ولكنهما مختلفتان قليلا عن "أيوة"، ويتم استيعاب الكلمات ثم نطقها من الحلق، وكنا ننطقها

لبعضنا البعض ونصحح طريقة نطقنا ونؤكد ونطابق الكلمات بشغف مع السيد "عمر أبو حلاوة"، نحو "السلام عليكم"، و"إنشاء الله"، و"الحمد لله"، عندما نجلس معا نشاهد النيل خلال وقت الظهيرة وقلَّت أعبائي على متن القارب إلى حد ما بوجود مرافقنا معنا، وشعرت بحرية لم أعتدها، وطلبت منه أن يعلمني الأبجدية فقال:

-ولكن يا أنسه "نالدريت" أنا لا أستطيع القراءة أو الكتابة.

فحاولت ألا أظهر دهشتي ففي بلدي الرجال الذين يعملون بمثل وظيفته لن يكونوا قادرين على القراءة أو الكتابة أيضا، محظوظة أنا بمعرفتي لها بفضل كتب سيدتي.

وهكذا استمرينا نتبادل الكلمات بالارتجال وأصبحت الحياة كدرس مليئ بالكلمات وكنت سعيدة، ولكنني أرهقت ولم أكن معتادة على العمل بالقرب من رجل يغسل ويطهي وينظف ويخدم سيدتي؛ فأنا لست معتادة على رجل ذي مهارات تشبه مهاراتي كثيرا، ولكن كيف كنا سنتغلب على المشكلات هنا في القاهرة؟! وهكذا لم تعد سيدتي معي وحدي؛ فلا فرق عنده بين عمل يقوم به الرجل وعمل تقوم المرأة، وبالنسبة له المهمة مهمة يجب أن تنفذ؛ وفكرت أنه في حال إذا ما خيرت فسأجلس ويقوم بخدمتي أيضا كما يخدم سيدتي، ولكن هذا لم يكن من طبيعتي، ووجدت أنني أستمتع بصحبته وقمت بتوجيهه لما يتعلق بسبل إدارة أمور المنزل الخاصة بنا، ومن ناحيته وجهني لسبل إدارة المنزل المصري، سأظل دائما خادمة سيدتي ودائما ما سيكون هناك شيء لا يستطيع السيد "أبو حلاوة" فعله وأنا فقط من يستطيع ذلك، ولكن هنا في مصر وعلى متن القارب ما كنا سنستطيع الاستمرار دون وجوده بجوارنا؛ فهذا ما أظهره الوقت الذي قضيناه بالإسكندرية والقاهرة؛ فبدون السيد "أبو حلاوة" ما استطعنا أن ننجو، ومتنا من الجوع أو الوحدة. إنه

شيء رائع وفكرة وجودنا أنا وسيدتي في المغامرة ليس لها مثيل، والأكثر روعة أننا صرنا ثلاثة.

كنت أقف في مطبخ قاربنا الضيق وهو عبارة عن مطبخ وغرفة غسيل أطباق ومنطقة عمل وغرفة خزين في آن واحد، وأخذت نفسا وفردت قامتي، كما شعرت بالعرق يتساقط أسفل عمودي الفقري كالمعتاد مثل روافد النيل الصغيرة، وقال السيد "أبو حلاوة" وهو ينظر للخبز العريض الذي يعده؛ حيث يصنع الخبز يوميا مدعيا أن خبز طباخ السفينة ليس جيدا:

-من فضلك يا آنسة "نالدريت" لا بد أن تجلسي سترهقين من الوقوف في هذا الجو الحار.

فقلت:

-ولكن يمكن أن أتعلم شيئا منك.

وعندما نظرت إليه استطعت رؤيته وهو يبتسم، ولم أستطع منع نفسي من تفحصه، فكنت أتأمل كل شخص وكل شيء في المدينة، وكان يتحرك بأرجاء الغرفة وأشم رائحته التي دائما ما تبدو جميلة، وسبب ذلك أنه مسلم؛ فهو لا يشرب الكحل الرجل كالإنجليزي، ولا يشعر بالرغبة في القيء والجوع الشديد في الصباح، دائما ما ينظر للأعلى خلال عمله الذي نتشارك فيه معا وعيناه سريعتان وغمقاوتان، ولكنهما لامعتان، وقد ضبطني ولم يشعرني بذلك وابتسم؛ وكانت ملامحه جميعها تتغير ليبدو أن ضحكته وابتسامته نابعة من أعماقه، ولا يوجد من يراقب تحركاتي هنا، كما لا يوجد ما يدعو للشعور أن هناك من يراقبني في هذا المكان؛ فنحن نبعد آلاف الأميال عن "إيشير" وما يحدث بها من أحاديث القيل والقال، كما لا يوجد من يراني وأنا أرد عليه الابتسامة.

والطقس على متن "دهبية" دائما رطب وجاف تشوبه السخونة والرمال التي تدخل إلينا من التشققات عندما تهب الرياح والحشرات الطفيلية التي أراها تتجمع عند ضفة النهر.

كنت أهمس باسم السفينة لنفسي مرة أخرى "زينة البكارين"، وهي مركب طويلة وضيقة وقوية بها العديد من الأشرعة البيضاء التي جاهد السيد "أبو حلاوة" وصبي الكبينة ليحافظا عليها نظيفة، وقد نجحوا في هذا، وهناك طاقم من أحد عشر رجلا بما فيهم "الريس" وزميله، وقال السيد "أبو حلاوة" أن الطاقم بالكامل من أسوان بصعيد مصر، وبالنسبة للرجال فهم من أفضل الرجال، وعندما ظهرت أنا وسيدتي لأول مرة في الميناء ببولاق بالقاهرة، اصطفوا جميعا بطول الشط مرتدين سراويل بيضاء من القطن، وكانت صدورهم البنية عارية كموكب من الرجال نصف العراة، ونظرت إليهم جميعا وقلت أن هذا كله غريب، وكل ما استطعت فعله هو عدم الضحك؛ فكل شيء في القاهرة مقلق وممتع في نفس الوقت .

وقبل مغادرة الميناء، جعلت سيدتي "الريس" يثبت علما إنجليزيا وراية أمريكية على ساري المركب كعلامة لعميل القنصل الذي سنقابله بنهر النيل، وكان المركب مزدحما بالإمدادات التي قمنا بشرائها أثناء زياراتنا للسوق في القاهرة، ليست طعاما وشرابا فقط بل كل شيء قد نحتاج إليه؛ فهناك حمام متنقل، وسجاد وإمداد لستة أشهر من الشمع، وكتان وغلاية نحاسية حيث أعددت قائمة تلو الأخرى وكنت أفحص وأعيد الفحص وأستشير كلا من سيدتي والسيد "أبو حلاوة" كي لا ننسى أي شيء.

ماذا يحدث عندما تترك كل شيء خلفك؟ ماذا يحدث عندما تترك كل شيء مألوف بالنسبة لك ليس فقط المنزل والشوارع والرياح الرطبة بالشتاء، ولكن الزوج والأبناء والأصدقاء؟ بالنسبة لي، كان قطار لندن في يوم عطلتي، والعودة للمنزل مرة أخرى، وغصن شجر البلوط المترنح فوق سقف الاسطبل، ورجل البريد الذي يأتي أسفل الممر، كل هذه الأمور لم أشتق إليها في مصر، فهل هذا معناه أنني لست نفس الشخص؟ هل هذا معناه أنني قد تغيرت ؟

إن نهر النيل عميق وله لون أخضر لزج يشبه الحليب المتدفق من بقعة عظيمة خضراء عادة تكون بنية ولا تكون مياهه زرقاء أبدا، وفي المساء يكون أسودا وذي عمق لا حدود له ورائحته مثل غطاء نباتي من الحشيش مثل بركة حديقة إنجليزية، وقمت بالتحديق في المياه أسفل مني لدقائق عديدة، وفي بعض الأحيان تطلعت إلى أن أخفض أصابعي وأحركها على قدمي كما رأيت الرجال في القوارب الأخرى يفعلون، ولكنني غير قادرة على فعل هذا؛ فالمركب عالٍ جدا عن المياه بالإضافة إلى أنني سأضطر لخلع حذائي وجوربي وقفازاتي ونزع دبوس قبعتي وترك شمسيتي من يدي؛ وبالإضافة إلى ذلك، فهناك التماسيح التي رأيتها في أول يوم لنا تسبح على طول ضفة النهر ثم إلى المياه خلفنا كما لو كنا فريستها.

ولحسن حظي عندما أحضر المراكبي "زينة البكارين" بالقرب من الجسر، كان هناك أمور كثيرة تشغلني عن الحرارة، ولكن الرحلة كانت صعبة بالنسبة لسيدتي، والحق يقال، فإن صحتها تتدهور بصورة مستمرة منذ مغادرتنا ل"إيشير"، وكانت الرحلة عبر البحر طويلة جدا والأسكندرية رطبة جدا والقاهرة قذرة جدا يغمرها النشاط وفندق "شيفرد" غالي جدا –فسيدتي

تولي المال اهتماما كبيرا- وغير مريح والأسوأ أنه خانق وقالت سيدتي:
-فندق بشع... لا أستطيع الانتظار حتى أرحل عنه... سأستعيد قوتي كلما اتجه القارب نحو الجنوب أعلى النهر.
فأجبت قائلة:
-نعم ستستعيدينها.

وبعد أيام قليلة خارج ميناء بولاق كانت بالكاد تستطيع أن تتنفس وتجاهد لأخذ كل نفس كما لو كان آخر أنفاسها واستمر البصاق المختلط بالدماء ولم تؤتِ أيٌّ من طرقي التقليدية بنتيجة الراحة بالفراش، والمشروبات الساخنة والهواء المنعش والبخار الرطب ، وفي المساء حضر السيد "أبو حلاوة" ليأخذ صينية طعام سيدتي على الرغم من عدم تناولها شيئا، وكنت أجلس عند نهاية كرسيها أقوم بتدليك قدميها وقالت:
-إنهما باردتان كالجليد يا "سالي"! كما لو أن الدماء لم تعد تصل إليهما.
فقلت:
-دعيني أعالجك.
وقال مرافقنا:
-لقد أخبرتني الآنسة "نالدريت" أنها تستطيع تحسين حالتك يا ستي.
فقد كان يدعوها ب " ستي داف جوردن"؛ فستي تعني "سيدتي" أو "ستي"، وكانت سيدتي مستمتعة وأكمل قائلا :
-أقترح أن تدعي الآنسة "نالدريت" تعالجك.
فاستدرنا ونظرنا إليه وقالت سيدتي:
-هل هذا أمر؟
وكنت مندهشة بشدة ولم أستطع قول شيء وقالت:

-أشك أنه أول أمر ستعطيني إياه من ضمن العديد من الأوامر يا "عمر"

فأبتسم ابتسامة عريضة وفاز بتأييدنا لوجهة نظره، ثم قمت بمعالجتها، والآن نحن على متن منزلنا المؤقت وتستطيع سيدتي أن تستريح وتستمتع بمشاهدة العالم وهي مستلقية على "متن دهبية" وسمحت لي بمعالجتها، ولكن العلاج بالحجامة أمر رهيب، ولم يحبذه أيٌّ منا وقد تعلمت طريق المعالجة بواسطة الطبيب "إيزود" في "إيشير" في العام السابق قبل مغادرتنا إلى مدينة "كاب"، حيث اعتاد على القيام بالإجراءات بنفسه، فيقوم بعمل شاق قبل وضع الكوب الساخن وقال:

-قد لا يوجد طبيب جيد هناك يمكن الاعتماد عليه ليقوم بهذا الأمر يا فتاتي، ونحن نأتمنك على حياة السيدة "داف جوردن".

هزني كلامه هذا، ولكني لم أظهر هذا لأحد؛ لأنني لم أفكر أبدا في وظيفتي على أنها تتمثل في المحافظة على حياة سيدتي.

قمت بتنظيف المشرط الذي تم شراءه في لندن لهذا الغرض، إنه ثاقب وحاد، وكان السيد "أبو حلاوة" حاضرا ووقف بعيدا عن المكان الذي استلقت به سيدتي واستدار ناحية الباب ليحافظ على خصوصيتها، ولكن على استعداد للمساعدة عند الحاجة إليه، وأحضرت الكوب حيث سخنته في الماء المغلي، كان ساخنا جدا، ولكنه أظنه ليس بالقدر الذي يؤدي إلى حرق بشرتها، وبدأت عملي على الجهة اليمنى من الصدر أعلى الرئة وسُمِع صوت كما لو أن الجهة اليمنى من رئتها قد غمرت بالسوائل، كانت النطقةالأكثر احتقانا، وتحركت بسرعة وقمت بفك رباط رداء سيدتي، وأزحت ملابسها الداخلية حتى ينكشف صدرها، وكانت هذه هي المرة الثانية فقط التي أقوم بهذه الإجراءات دون مساعده وواصلت القيام بالخطوات بحرص؛ لأشعر بالطمأنينة تجاه هذا العمل، ونظرت لأعلى وقابلت نظراتي

نظرات سيدتي فأومأت إليَّ بهدؤ، وكنا قد اتفقنا على أنها لن تتحدث حتى لا تصاب بنوبة سعال، وتناولت مشروب البرندي[1] الساخن قبل بدئي، وقمت بعمل شق بطول واحد بوصة وبعمق واحد بوصة بواسطة المشرط، وتدفقت الدماء حول النصل وصرخت سيدتي قبل أن تميل رأسها إلى أحد الجوانب، فتقدم السيد "أبو حلاوة" وطمأنته قائلة له:

-كل شيء على ما يرام، لقد فقدت وعيها وهذه نعمة.

ثم تحركت بيسر وقمت بفض الكوب الزجاجي، والتقطه بقطعة قماش حيث كان ساخنا جدا على يدي العاريتين ووضعته مباشرة على الشق وضغطت بشدة لأحصل على التأثير المطلوب، وبدأ الشفط، ثم بدأ الكوب يبرد، وكلما برد امتلأ بالدماء، وقلت:

-لترفع الشمعة قليلا.

وأطاعني السيد "أبو حلاوة"، وقلت:

-انظر.

فمال أكثر ليرى جيدا، وأسعدني أنه لم يكن شديد الحساسية، وأشرت إلى أشياء عبارة عن خيوط بيضاء طافت بدمائها الغامقة؛ حيث بدأ القيح والمرض يخرج من جسدها وهذا ما نريده، وقال السيد "أبو حلاوة" وصوته مضطرب:

-هل أنتِ متأكدة من أن هذا سيجعل سيدتي "داف جوردن" أفضل؟

وكان من الواضح عدم ثقته في أن هذا العلاج سيجعل

[1]-كلمة براندي مأخوذة من الكلمة الهولندية Brandewijn «النبيذ المحروق». بهذا الوصف قام التجار الهولنديين في القرن ١٦ بنقل هذا المشروب من جنوب فرنسا واسبانيا إلى أوروبا الشمالية والترويج له على أنه نبيذ يتم طبخه أو حرقه قبل تقطيره.
-أصل البراندي يعود إلى القرنين السابع والثامن حيث تم اكتشافه في الدول العربية المتوسطية. جرب الكيميائيون العرب تقطير العنب والفواكه لاستخراج الكحول الطبي (الاسبيرتو). هذه التجارب و ما يتعلق بها من المعارف والتقنيات سرعان ما انتشرت خارج الحدود.(المصحح اللغوي)

سيدتي أفضل، فبدأت يداي ترتعشان وواجهت مشكلة في الحفاظ على الكوب في مكانه، وكنت خائفة من أن أضيع الشق الذي عملته، وفي بادئ الأمر وجدت سؤاله سخيفا، ثم رأيت الحقيقة بعد ذلك فقلت

لا أنا غير متأكدة من أن هذا سيجعل السيدة "داف جوردن" أفضل يا سيد "أبو حلاوة"، ولكن هذا ما تعلمته وهذه هي طريقة المعالجة التي علمني إياها طبيبها الانجليزي، وقد اتفقت أنا والسيده "داف جوردن" على أن هذا هو ما تحتاج إليه.

ولكي يريحني، أومأ لي واستطعت المحافظة على إمساكي بالكوب حتى أمتلأ بالدماء القيح.

سافرنا إلى الجنوب، وكان الطاقم البديل بمؤخرة المركب يجدف بسهولة كبيرة، وضاق النهر، وعم ظلام لم أره من قبل في حياتي، وتجمعت المنحدرات حتى تلاقت فوق رؤوسنا ثم اتسع الوادي مرة أخرى، فقالت سيدتي من مكانها على فراشها المؤقت:

-صورة من الكتاب المقدس.

وفي الحقيقة كنت أفكر بموسى في سلته المصنوعة من القش تطفو بجوارنا، ورغبت سيدتي في أن تكون على سطح المركب في ظل المظلة التي صنعها الطاقم؛ حيث تستطيع رؤية الطاقم والمدينة، وتحسنت صحتها بصورة كبيرة وشفي جرح الحجامة بصورة جيدة، وعندما كنا في القاهرة، أراد السيد "أبو حلاوة" استئجار رجل ليقف بمروحة بجوار سيدتي خلال الرحلة، ولكنها لم توافق قائلة :

-يجب أن يكون هناك اقتصاد في النفقات.

رقدت هناك في الظل، وكان النسيم رقيقا جدا بحيث لا يشعر أحد بالبرودة، ولكنه موجود بالفعل، وكنت أتجول بالمركب وسألت سيدتي إذا كانت هناك أية أعمال خياطة أقوم بها على

الرغم من معرفتي أنه لا يوجد شيء، فقالت سيدتي:
-تمزيق! إننا يجب أن نمزق ملابسنا هذه لنشعر بالهواء.
وتحسن تنفسها مع كل ميل قطعناه جنوبا وأصبح أسهل، وبعد مرور عدة أيام، استأنفت كتابة خطاباتها إلى الوطن مرة أخرى وتكون سعيدة وهي تكتب، وأكثر سعادة عندما تحاط بأصدقائها وأسرتها، إنها بالفعل تجعل من هذا الأمر مناسبة كبيرة، وبعيدا عن كل هذا جعلت خطاباتها لوطنها هي أسرتها.

وفي منتصف الليل، استيقظت وسألت ماذا هناك؟ ماذا تغير؟ ثم أدركت أن هناك نسيم بارد فالتجرد من ثياب النوم ليس شيئا ضارا، وهذا النسيم يدخل من نافذتي الصغيرة ويخرج من أسفل باب حجرتي، وسألت نفسي أي شهر هذا، وأخذت أفكر بشدة حتى تذكرت أنه شهر نوفمبر؛ فوضعت الشال حول كتفي وتتبعت هذا النسيم للخارج على ظهر "دهبية"، وتعثرت بشيء ودست على شيء؛ فرجعت للخلف لإدراكي لهذا، وكان هناك شخص يقوم بالتجديف وهو نصف مستيقظ، وتُبِعَ ما حدث باعتذار، فهناك رجال نيام على ظهر المركب المزدحم بالرجال الملتفين مثل السجاد الموجود بالسوق، وكان النسيم يرفع يحرك شعورهم، ووجدت السارية، فجلست لآخذ نفسا طويلا ببطء، وتعجبت من كوني مستيقظة أثناء الليل ومحاطة برجال نائمين، وبدا لي الأمر طبيعيا والهواء جميل ونظيف ونقي، وشعرت أنني طوال حياتي وحتى هذه اللحظة كنت أختنق، ولا عجب أن سيدتي قد بدأت تتحسن أخيرا، وكانت الليلة قمرية وهادئة والنهر واسع وضفتاه عريضتان وكانت القاهرة تغرق بالنوم كما لو أنهم نائمون لملايين السنين.

وطفي القارب بهدوء على الماء، وأخذت بعض الوقت لأدرك أن المركب راسية، وعلى مدار السنتين الماضيتين، كان هناك الكثير من الرحلات على متن القوارب، ولكن مركب الإبحار الصغير هذه لا يشبه أيا من تلك المراكب، فهذا المركب مركبنا، وهذه الرحلة رحلتنا نحن، وأدركت في هذه اللحظة أنه على الرغم من القلق ومرض سيدتي ونفينا من إنجلترا، لكنني سعيدة، وسعيدة هنا على ضفاف نهر النيل في ضوء القمر المصري الأبيض.

الفصل الرابع

وهكذا اقتربنا في رحلتنا من الجنوب إلى صعيد مصر ثم "النوبة"، وقمنا بزيارة كافة الآثار العظيمة والمعابد في "أبيدوس" و"أدفو"، وزرنا متحف الكرنك "بالأقصر" وزرنا "الدنداره"، وأخذنا المنحنى النهري الشهير في أبي سمبل ومررنا من أمام التماثيل الأربعة الضخمة الراسية لرمسيس الثاني وتعلوها الرمال حتى ركبهم، وقالت سيدتي برزانة:

-بالمقارنة بهذا فوجودنا مؤقت.

ثم ضحكت على نفسها أثناء خروجنا من "دهبية"، وقطعنا الطريق كله جنوبا حتى وصلنا إلى "وادي حلفا" قبل أن نستدير لنعد إلى أسفل النهر، وكان الوضع كما لو أن كل يوم يجلب زيارة جديدة إلى المتحف في "بلومسبري" باستثناء أن كل شيء هنا كان مشمسا وأكثر إشراقا وبه تعدد أكثر من أية شيء أستطيع أن أتخيله في شارع "جريت راسل"، ودرست الحفريات،

وبذلت قصارى جهدي لأتعلم المزيد عن حضارة ودين قدماء المصرين، لكنني أصرف عن ذلك باستمرار بإنشغالي بحياة القاهرة والمدينة وعبيرها من حولي؛ فهي لا تحتاج إلى حفريات لتستمتع بها، كانت سيدتي تعينني في ذلك فلديها فضول مماثل بل يزيد عني تجاه الناس والفلاحين وأمهاتهم، وأخواتهم، وأبائهم، وأعمامهم، ومن أين أتوا؟ وإلى أين يذهبون؟ فاهتمامها بكل ذلك أكبر من أي اهتمام بالآثار المنهارة.

وعلى الرغم من أن سيدتي ما زالت حديثة العهد باللغة العربية، لكنها لم تتردد في التحدث مع أي شخص قابلناه كما كان الوضع في إنجلترا؛ حيث استطاعت أن تعرف من يكون هذا الشخص، ومن أي أسرة بصورة مباشرة، والناس دائما يعجبون بها من أكبرهم وأعظمهم حتى أفقرهم، وتقابلهم كما لو أنهم ذوىأهمية كبيرة بالنسبة لها؛ فكل شخص لديه قصة وسيدتي تريد أن تعرف كافة قصصهم، ومن ثم، كنا نزور أطفالا ومسنين أكثر من زياراتنا للمعابد والمقابر ونحتسي الشاي الحلو ونقدم الطعام ذا النكهات المختلفة وكان ألذ من أي طعام تذوقناه من قبل، والشيء الغريب بالنسبة لي هو أنني استمتعت بهذه الزيارات مثل سيدتي.

ودهشت بهذا التحول وتغيير مساري الدراسي، وتفاجأت حيث وجدت نفسي أتخلى عن دراستي "لإيزيس" من باب الهواية والفضول الذي غمر قلبي لمعرفة المعنى الحقيقي للهيروغليفية، فتوسعت في معرفة ممارسات الزراعة المصرية؛ فإذا تم تخيري بين الذهاب لرؤية الآثار بمعبد "كوم أمبو" أو الذهاب في نزهة بالقرية النشيطة المجاورة لنا سأختار الذهاب للقرية في كل مرة .

وهكذا تشبعنا من المعابد والرمال والمنازل الصغيرة؛ حيث يتدافع النساء والأطفال لتحيتنا كما لو أننا فراعين، وفي آخر رحلاتنا أعلى النيل وصلنا إلى الأقصر، وكما أعتقد سنستقر بها لبرهة من الوقت، وقمنا بزيارة مختصرة لها أثناء توجهنا للجنوب، وأخبرتنا سيدتي بفكرة العودة إليها واتخاذها مقرا لنا، حيث كانت الأسكندرية شديدة الرطوبة والقاهرة صاخبة للغاية، وقد رأينا المنزل الفرنسي في زيارتنا الأولى، واستفسرت من سيدتي حول استئجاره، وقالت:

-سالي... عمر... هذه هي وجهتنا!

تشعرني كلمة "الأقصر" بالدفء ..."الأقصرية" هكذا أسمتها سيدتي، وقالت أن اسمها اليوناني " طيبة" ومعناه "المكان المختار"، وكانت كذلك أكثر الأماكن زيارة.

نزلنا من المركب وتم تفريغها من كافة الحقائب والعلب وصناديق الثياب والأغلفة وكافة الأشياء التي قمت بشرائها أنا والسيد "أبو حلاوة"، وكافة الأشياء التي أشترتها سيدتي من "إيشير" على ضفة النهر، ثم نقلت إلى القرية خلال المعبد ذات الأعمدة الكبيرة مرورا بالأعمدة الحجرية الكبيرة التي لا يزال بعضها منتصبا وبعضها انقلب رأسا على عقب، والمساكن المصنوعة من الطين الأحمر، والمقاعد المستقرة عليها الأعمده وما حولها وأعلاها والحمير والدجاج والأنقاض والحصى والقذارة والرمال والفوضى المنتشره به .

ونظم السيد "أبو حلاوة" موكبنا المرهق، وأطلقت نساء القرية الزغاريد حتى وصولنا المنزل الفرنسي الذي كان يملكه القنصل الفرنسي وقد وافق بترحيب عل استئحارر السيدة

"داف جوردن" للمنزل.

وقد أنشئ" المنزل الفرنسي" أعلى المساكن الأخرى بالجهة الجنوبية من معبد الدفن، مثل البرج الأبيض الذي ظل واقفا بلندن بعد انهيار بقية الأبراج، وفي الحقيقة، كان العديد من نوافذه بها زجاج، وبعض الغرف كان لها أبواب، وعند مرورنا بالأقصر منذ شهر، أخبرها القنصل قائلا:

-تم بناء المنزل بواسطة القنصل البريطاني "هنري سالت" عام ١٨١٥م؛ حيث كان "سالت" يراقب العديد من عمليات التنقيب وأخذ كما كبيرا من الآثار المصرية إلى المتحف الأوروبي.

فقالت سيدتي :

-ستستمتعين بهذا يا "سالي".

وأكمل قائلا:

-كما عاش المغامر الإيطالي المعروف "بلزوني" هنا لبعض الوقت، كما فعل ذلك "تشمبليون" وهو الرجل الفرنسي الذي فك رموز حجر رشيد.

فقلت:

-حجر رشيد!

وغمرتني البهجة.

-وكذلك الكاتب الفرنسي "كروستوف فلوبرت".

وأضافت سيدتي:

-لبعض الوقت.

وسألت سيدتي قائلة :

-مدام "بوفاري"؟

حيث لدى سيدتي نسخة من روايتها بالفرنسية التي لم أقرأها؛ فأنا لا أستطيع القراءة، فضحكت سيدتي وأخبرته أننا سنبذل

قصارى جهدنا حتى لا نقوم بعمل مخالف للأخلاق، وعلى الرغم من ذلك، توجب علينا إلقاء نظره على المنزل مرة أخرى، وشعرت بالرعب أثناء صعودي لتلك الدرجات الحجرية الخشنة التي تقودنا للمكان الذي سأعيش فيه، وأخذت أفكر؛ فهو لا يشبه أيا من منازل "إيشير"، وكنت أنا وسيدتي نشعر بالراحة لنزولنا من على مركب "زينة البكارين" الآن، على الرغم من حبنا للمركب وحياة الإبحار على سطح النيل؛ فقد كانت العودة لليابسة مرة أخرى أمرا جيدا؛ حيث تتوقف عن كونك سائحا، وتوقفت وأخذت نفسا عميقا بأحد الجوانب؛ حتى يستطيع الحمالون المرور، وبينما كنت واقفة استدرت لأرى ما يوجد خلفي وصرخت قائلة:

-انظر!

بغض النظر عن من كان هناك ليسمعني، لم يكن هناك أحد بالقرب مني؛ حيث كان السيد "أبو حلاوة" قد عاد لضفة النهر بالفعل للإشراف، أما سيدتي ما زالت بالطريق على الحمار ويتقدمها طفل من القرية وآخر خلفها، وجميعهم يناضلون حتى لا يسقطوا، ومنعت نفسي من التحدث إلى صبي كان يرفع العديد من الأشياء الضخمة مر من أمامي في هذه اللحظة؛ فلغتي العربية ضعيفة جدا بحيث لا أستطيع التعبير عن مشاعري بالإضافة إلى أنه قد لا يكون ملائما التحدث إلى فتا من القرية بهذا الأسلوب.

كان أمامي نهر النيل وهو أكثر الأنهار عظمة يمدد وسط لوحة من التلال والنخيل والحقول الخضراء والمياه اللامعة الممتدة أمامي، وتغلبت على رغبتي في الضحك، ليس لأنني أرى النهر للمرة الأولى؛ فقد كنت أعيش على ضفافه طوال الأسابيع

الماضية، ولكن لماذا لم يشعرني نهر "التايمز" بمثل هذا الشعور من قبل؟

كان الطابق السفلي من المنزل مظلما وبلا نوافذ، والأرض مغطاة بالحصى حيث كانت الحيوانات تربى بهذا المكان حتى وقت قريب (ربما الدجاج والماعز)، ولم يكن هناك باب أمامي، ولكن في مكانه فتحة، وقال السيد "أبو حلاوة" وهو واقف بجواري يلهث ليأخذ نفسه:

-نعم يا آنسة "نالدريت".

ولم أسمعه وهو يأتي، فقلت:

-سنحتاج بابا.

فقال :

-سأرى ما يمكنني فعله على الفور.

وكانت تلك أحد تعبيراته الانجليزية والأسلوب الانجليزي الذي يستعمله ليطمئنني، وأضاف:

-سأبحث عن واحد على الفور يا آنسة "نالدريت""، وكانت درجات السلم متفاوتة الارتفاعات وليس بها درابزين، وأنرنا المكان.

وبدا مثل النهوض من الكهف أو التحرك من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين مباشرة، وكنا في غرفة كبيرة ذات نوافذ مصفوفة على الجانبين الأماميين بها شرفة تطل على الجانب الشمالي الشرقي الذي المطل على هذا المنظر الرائع لنهر النيل، وبالخلف شرفة كبيرة، يظللها النخيل المرتفع، وذهبت إلى هناك، وعندما نظرت لأسفل، رأيت حديقة مسورة ونباتات كثيفة، لم ألحظ وجود هذه الأشياء أثناء زيارتنا الأولى، وكان المشهد عبارة عن تلال برتقالية وخضراء، وأعتدتُ على رؤية آفاق غير عادية أينما نظرت تقريبا، وعندما عدت لأبدي

ملاحظتي على الحديقة، وجدت السيد "أبو حلاوة" قد ذهب، وسمعته يذكر اسمي في نفس الوقت، سيدتي خارج المنزل على درجات السلم وأظن أنها تبتسم الآن، وصرف السيد "أبو حلاوة" الأطفال بعيدا، وقمت بمساعدتها في ركوب الحمار، وفي طريقها إلى داخل المنزل، وفي صعود درجات السلم، ولم تبدِ أي ملاحظة على حالة الطابق السفلي، وإذا كنت قد تعلمت شيئا من سيدتي فإنني تعلمت ألا أنظر للأمور من زاوية واحدة، وعندما صعدنا إلى الطابق الأول قالت:

-ياله من مكان جميل! سأكون أنا وأنت سعداء هنا يا "سالي"؛ فقلت:

-أعتقد هذا يا سيدتي.

وقال السيد "أبو حلاوة":

-إنه بحاجة للتنظيف.

فقالت:

-إنني أحبه بحالته الحالية.

فاعترض قائلا:

-هناك الكثير من الغبار، وهذا يضر الصدر.

فقالت سيدتي وهي تضحك:

-حسنا من هو الخبير بصحتي الآن؛ فإنك تبدو مثل "سالي" في هذا الأمر يا "عمر" .

فانحنى السيد "أبو حلاوة"، وقال أنه علينا الخروج من المنزل أثناء تنظيفه وتجديد هوائه.

وكان المنزل مليئا بالتراب والرمال حيث لم يقِم به أحد منذ ثلاث سنوات أو أكثر، وقبل رد سيدتي، غاص قلبي بين ضلوعي؛ حيث بدأ حشد كبير من الفلاحين يتوافدون إلى سلم المنزل واحد تلو الآخر حتى بلغ عددهم على الأقل نحو

العشرين شابا، وبدأ تحديد مهامهم التي سينفذونها، فأخذت سيدتي مرة أخرى خارج المنزل ونزلنا درجات السلم وصولا إلى الحديقة المسورة؛ حيث بدأ الرجال في التنظيف كسرب من النحل العامل، يزيلون الغبار ويبدلون مكان السجاد، وأعدوا الغرف في الطابق الأعلى للإقامة، وصاح السيد "أبو حلاوة" وهو يعطيهم الأوامر، وأخبرني أنا وسيدتي أنه علينا الجلوس بعيدا عن التراب والتأمل بالمنظر حولنا وهذا ما فعلنا.

أنهى العمال العمل، ثم ذهبوا وأصبح المنزل الفرنسي نظيفا ومرتبا وممتازا من حولنا كما لو أننا نسكن هنا منذ أسابيع، وسلكنا طريقنا إلى داخل المنزل وأعد السيد "أبو حلاوة" الشاي، وجلست سيدتي بالغرفة التي تعد الآن صالونها لتتحدث مع أول ضيوفها السيد "مصطفي أغا آيات" وهو تاجر من الأقصر ووكيل القنصل، واتضح فيما بعد أنه هو من رتب إرسال عمال النظافة، وأحضر معه ابنته الصغيرة ذات الشعر الأسود، فجلست على سجاد المنزل ومعها عروستها، وعندما رأتها سيدتي ومعها صورة ابنتها الصغيرة "رانية"، أخذتها بين يديها الصغيرتين وقامت بتقبيلها.

شعرت بالقلق في أول ليلة لنا في منزلنا الجديد؛ حيث اعتدت النوم على متن "زينة البكارين"، واعتدت على سماع خرير ماء النهر في المساء، وعلى الشعور بفراشي يتحرك، واعتدت الحركة باستمرار لرؤية ما حولنا، وعدنا إلى اليابسة وصرت لا أدري إذا ما أعجبني هذا الشعور أم لا، على الرغم من رغبتي القوية في ذلك قرابة نهاية رحلتنا، فنهضت وأشعلت شمعة؛ حيث أردت أن أكتب رسالة إلى أختي "إلين" التي يجب أن تأتي عادة إلى القاهرة مع عائلة "روس" وابنهم، وأحال ضوء الشمع الخافت الحائط الأبيض إلى اللون الذهبي، واستطعت سماع الخفافيش

خارج النوافذ، وكنت متأكدة من أن سيدتي مستيقظة بغرفتها في هذا الوقت تكتب "رسائلها للوطن"، وقمت بوضع الشال الذي اشتريته من السوق بالقاهرة مع السيد "أبو حلاوة"، وكان هذا أول شيء أفاصل فيه لنفسي على الرغم من مساعدة السيد "أبو حلاوة" لي، وقمت بفتح ستارة النافذة؛ فطارت الخفافيش من على العتبة العليا، وتدفق الهواء البارد إلى الغرفة، ودفعت الرمال التي تجمعت على عتبة النافذة، ووجدت ضوء تلك الليلة ساطع للغاية، وعندما نظرت للأعلى أصدرت صوت عاليا، ثم وضعت يدي على فمي؛ فالقمر أعلى تلال طيبة والسماء زرقاء، وسوداء ومتلونة بلون النيل، تتخللها النجوم ونهر النيل أسود، والنخيل ساكن، والأقصر صامتة، ولم أرَ في حياتي مثل هذا الجمال؛ فوقفت أتأمل المنظر خارج النافذة وانتبهت لصوت الآذان
فأغلقت النافذة –فكرت في تركها مفتوحة، لكنني فكرت في الخفافيش– وفي الغرفة المجاورة سمعت حركة السيد "أبو حلاوة" عندما استيقظ، وتخيلته وهو يضع قبعته ويفرش سجادة صلاته، وكنت أتعجب من ورعه وورع جميع الرجال الذين قابلناهم (لقد قابلنا بالفعل العديد من السيدات المصريات من الفلاحات والبدويات، أما السيد "هيكيكيان بك" وزوجته فكانا أمريكيان).

أعجبت أنا وسيدتي بإمكانية تطبيق الإسلام وسهولة أوامره، وبالأوقات التي قضيناها على متن "دهبية"، وتمنيت لو أنني واحدة من الطاقم لأخلع حذائي وأركع على ركبتي.

لم أشعر بمثل هذا الشعور تجاه الدين ونحن في "انجلترا" وكذلك سيدتي، وفي الحقيقة، قد سمعت والدة زوج سيدتي

وهي تشير إليها كملحدة ذات طابع خاص، فضحكت سيدتي وكشرت ونظرت لسيدي نظرة ذات مغزى.

كان الإسلام في القاهرة يشكل جانبا كبيرا من الحياة؛ وبدت مظاهره جليا في الحياة اليومية، وأردت أن أعرف المزيد عن الإسلام وأتعمق فيه، فأعتقد أنني يجب أن أطلب من السيد "أبو حلاوة" أن يحدثنا عن الدين وعاداته إى جانب العادات المصرية.

مر الوقت طويلا وكان اليوم مليء بالعمل، حيث يوجد دائما ما نقوم به، وكانت الأوضاع مستقرة ووسعت أسرتنا، وكان لدينا السقاء الخاص بنا ويدعى "محمد" يقضى كل يوم ساعة على الأقل في الصباح يسير من وإلى النهر على رأسه البلاص-جرة من الطين يخزن بها المياه- ليقوم بملئ زير المنزل-وعاء كبير لتخزين المياه في مثل طولي تقريبا- مرتكز في أحد أركان الدور الأرضي، وكان لدينا ولد صغير عمل كبواب للمنزل، وخادم شغل نفسه في قضاء أمور للسيد "أبو حلاوة"؛ فالأمور التي تستغرق دقائقا في "إيشير" تستغرق في الأقصر ساعات، وخوض المعركة ضد الرمال أصبحت مهمتي وهي الأكثر أهمية؛ فبدأت كل يوم بإزالة التراب، وكنت أجبر سيدتي على التنقل من غرفة لأخرى حتى ينقى الهواء من التراب، فقالت سيدتي:

-حقيقة إن هذا الأمر ليس ضروريا.

ولكنني عارضتها قائلة:

-إنه ضروري، فإذا لم ننظف بصورة دائمة، فسندفن أحياء.

فقالت سيدتي:

-سالي، ليس الأمر كما لو أن السماء ستختفي خلف

السحاب.
وكان "عمر" يقف مبتسما، وحاول أي يعبس، ولكنه لم يستطع فقال:
-فلتنتظري، ففي بعض الأوقات تأتي الرياح بنصف رمال الصحراء إلينا في الشتاء.
وبعد ذلك، أعطى تعليمات لمحمد كي يقوم بإزالة التراب كل صباح، وصنع محمد مكنسة خاصة من سعف النخيل ليستخدمها.

أصبحت الأيام أكثر برودة، على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة إلى حد ما بحلول عند الظهيرة، وكانت الليالي تقريبا باردة، وبعد عدة أيام أصبح المنزل الفرنسي هو منزلنا وأصبحت الحجرة الكبيرة ذات الشرفتين الأمامية والخلفية غرفة الصالون، وعند أحد أطرافها تقع غرفة نوم سيدتي ومن الناحية الأخرى للمطبخ، لكنه لا يشبه أيا من المطابخ التي عملت بها من قبل؛ فالنيران تنبعث من مدخنة طينية، وهناك طاولة عمل طويلة منحوتة وقد جعل السيد "أبو حلاوة" نجارا بالقرية يصنعها لنا، وهناك المقالي النحاس والغلايات العديدة التي قمنا بشرائها من القاهرة،

في الليالي، الباردة كنا نجلس إلى هذه الطاولة ونقوم بالعمل، وهناك الشموع والمشاعل للإضاءة حيث تكتب سيدتي خطاباتها وأقوم أنا بأعمال الحياكة والسيد "أبو حلاوة" يقوم بالطهي، وفي الصالون كانت النوافذ مزججة وتطل مباشرة على القرية في مواجهة المسجد الذي يقع على الطرف الآخر من المعبد، وخلف هذه الحجرة أمتلك أنا والسيد "بو حلاوة" الجناح الخاص بنا، ولديَّ أنا وسيدتي أسرة خشبية للنوم

مصنوعة على الطراز الأوروبي قام النجار بصنعها خصيصا لنا، ولدينا بطانيات قمنا بجلبها معنا من "انجلترا"، بينما ينام السيد "أبو حلاوة" على الطريقة المصرية على حصيرة سميكة يقوم بفردها كل مساء.

وحلت أعياد الميلاد، وطلبت من السيد "أبو حلاوة" أن يصنع حلوى العسل لسيدتي لأنها أحبتها، وقمت بوضع بعض منها في صندوق من خشب الصندل قمت بشرائه من القاهرة، وقالت سيدتي وهي تفتح الصندوق:

-أنتما الاثنان تريدان زيادة وزني كما لو أنني عنزة صغيرة تخططون لأكلها.

وبالفعل، أصبح منزلنا به كميات كبيرة من العسل المصري ذلك الشراب الأسود الحلو الذي يصنع محليا من قصب السكر، ولكننا جميعا أحببناه مع الشاي والخبز ومع الحلوى والكيك التي يخبزها السيد "أبو حلاوة" بصورة يومية تقريبا، وأعطتني سيدتي هدية عبارة عن مجموعة من ورق الخطابات الأبيض الذي طلبته بصورة خاصة من "لندن"، وقد تسلمت كومة كبيرة من البريد المرسل من هناك وهو عبارة عن خطابات من السيد "أليك" ووالدتها وبطاقة ملاحظات ورسومات من" موريس" و"رانية"، وقالت سيدتي:

-انظري... إن "رانيه" تعلمت كتابة اسمها.

ثم مكثت في حجرتها بقية اليوم، وقالت أنها لا تريد أن يزعجها أحد، وعندما حل موعد الغداء، وضعت صينية الطعام أمام باب غرفتها وطرقت الباب برفق، وفي العشاء قمت، بفعل نفس الشيء؛ وهكذا قضيت يوم عيد الميلاد بمفردي، حيث سطعت الشمس وتألق النهر وتموج، ولم يكن في الأقصر أى مظهر من مظاهر عيد الميلاد، ومن الغريب أن أجد نفسي

شجاعة وذهني خالٍ من الهموم وليس لديَّ حنين لطقوس عيد الميلاد.

وفي وقت الظهيرة، ذهبت إلى الحديقة، وفي "إيشير" لم يكن لديَّ الوقت لأجلس وأتأمل في السماء الزرقاء، أو أتوقف لشم العطر من براعم الياسمين الذابلة النامية علي سور الحديقة، أو أن أقطف ليمونة من شجرة الليمون وأحركها بين راحتي لتفوح رائحتها، فالجلوس بالخارج في الشمس الدافئة يوم الميلاد مثل سيدة النهر شيء رائع حقا، ولابد أن السيد "أبو حلاوة" قد سمعني وأنا أضحك فقد حضر بعد فترة قصيرة ومعه عصير الليمون الحامض الجميل الذي يعده، وجلس معي وقال:

-إن ستي "داف جوردن" تفتقد أسرتها.

فقلت:

-أنها كذلك؛ فابنتها تبلغ أربعة أعوام فقط.

فلوح السيد "أبو حلاوة" بيده وقال:

-لماذا لم تأتِ مع سيدتي؟"

فنظرت إلى مرافقنا وأدركت مدى الفجوة الكبيرة بين حياة سيدتي وحياته وقلت:

-إنه من الأفضل لها أن تبقى في انجلترا.

فأومأ برأسه وقال:

-إن طفلتي "ياسمين" تبلغ ستة أشهر الآن وتجلس مع والدتها "مبروكة" مع والدي في القاهرة.

فقلت:

-لابد إنك تفتقدهم جميعا.

فقال كما لو كان يستطيع قراءة أفكاري:

-انظري، أنا وسيدتي سواء؛ فكلانا بعيد عن أسرته.

فقلت:

-أعتقد أنني سأكون أقرب إلى أختي "إلين" حيث نحيا بمصر، ولكن الأسكندرية تبدو بعيدة عن الأقصر بنفس بعد انجلترا.
فقال:
-ولكنك لست وحيده".
فنظرت إليه وقلت:
-ماذا تقصد بهذا؟
فقال:
-أرى أنك تستمتعين بحياتك هنا؛ فلديك السيدة "داف جوردن" لتعتني بها والمنزل لتديريه ولديكِ أنا، فأنت سعيدة.
دهشتي حميمة حديثنا، فأخذت نفسا عميق وشممت رائحة الليمون والياسمين في الهواء، وقلت:
-إنك محق.
فرفع طبق الكيك الذي أحضره إلى الحديقة، وقدمه لي وقال :
-عيد ميلاد سعيد يا آنسة "نالدريت".
فأجبت قائلة:
-إن شاء الله.

قام السيد "أبو حلاوة" بتعين معلم للغة العربية من القرية لسيدتي، وقال أنه يشعر أنها ستستفيد من دروس المحادثة مع رجل متعلم أكثر منه، وبعد إقامتنا لعدة أسابيع في الأقصر، اعتدنا على استقبال ضيوف يقدمهم السيد "أبو حلاوة" بتباهٍ قبل أن يندفع إلى المطبخ ليعد الشاي، وعندما أحضر المعلم إلى الصالون، كنت جالسة بجوار النافذة أقوم بالحياكة وسيدتي ممدده على الأريكة، وتعمل على منضدة الكتابة الخاصة بها، ولم أسمعهم وهم يصعدون السلم، وفجاءه كانوا معنا بالحجرة، وقال السيد "أبو حلاوة":
-الشيخ "يوسف".
وانحنى له وانحنى الشيخ لسيدتي، وقال السيد" أبو حلاوة"

بوقار:
-سيتي "داف جوردن".
ولكنني لم أكن جالسة بجوارها، وإلا كانت همست إليَّ كما تفعل في بعض الأحيان، ولكن ليس اليوم؛ حيث حضر الشيخ "يوسف" وهو شاب مستقيم القامة وعالم دين هادئ.

في بداية الأمر تشككنا من اختيار السيد "أبو حلاوة"، وكان الشيخ -بلا شك- رجل متعلم بالجامع الأزهر العظيم، ولكنه ورع للغاية، ولا يتحدث كلمة إنجليزية واحدة، ولكن عندما دخل إلى الحجرة، شع منه نور الإيمان، إنه رجل وسيم وطويل وله ملامح دقيقة ورشيق، وبعد أن غادر في ظهر هذا اليوم، اتجهت إليَّ سيدتي العملية الملحدة وقالت: ألديك شعور بالطمأنينة يا "سالي"؟ إنني أشعر بالرهبة من معلمي الجديد.

أصبح الشيخ "يوسف" يأتي إلى المنزل الفرنسي كل يوم ماعدا السبت، حيث يجلس هو وسيدتي يتحدثان معا لمدة ساعة أو ما يقرب منها، أقدم الشاي في بداية الدرس، ولكن في ذلك الوقت لا يريدون أن يقاطعهم أحد، وسألته سيدتي عندما أتى لتعليمها قائلة:
-ما الذي يمكنني قراءته؟
وكان الكتاب الوحيد الذي سمح لها أن تقرأه هو القران الكريم، وهو يستطيع قراءته كاملا من ذاكرته، وفي البداية قالت سيدتي أنه يصعب عليها الاستمرار بالقراءة، ولكن الشيخ "يوسف" أصر أن يعلمها بصورة منهجية تختلف إلى حد ما عن الطريقة التي اتبعتها مع السيد "أبو حلاوة"، وفي بعض الأحيان، كانت عندما نستعد لقدومه، تغلق عينيها وتمسك بيدي وتهمس إلى قائلة:

-امنحيني القوة يا "سالي".

وكانت سيدتي تحرز تقدما سريعا، وانتقلت من مناقشة الأساسيات إلى مناقشة الأمور الدينية، والفلسفية، وبدأت أسمع اللغة العربية على لسانها سلسة جدا، بينما ظلت لغتي العربية يسودها الطابع العملي، ولم يرد السيد "أبو حلاوة" أن أقوم بتقليد لهجة الفلاحات بالأقصر، ولكنني أعجبت باللغة العربية التي يتحدثون بها.

وبدأت سيدتي تنطق بعضا مما تتعلمه من اللغة العربية وتكتبه وتحفظه عن ظهر قلب، واعتبرت هذا إنجازا مهما؛ حيث قمت بنسخ الحروف على ورق الكتابة، ولكن عندما تجتمع الحروف معا لتكوين الكلمات، يتغير شكلها، وذلك يعتمد على موضع الحرف من الكلمة، وبعض الحروف لها ثلاثة أو أربع أشكال منفصلة، وقالت سيدتي أن هذه هي البداية فقط وعليَّ الانتظار حتى أصل إلى الحروف المتحركة، إنها تكتب من اليمين إلى اليسار، وكان هذا معقدا فقد قضينا نصف وقتنا في حيرة كاملة، والنصف الآخر نضحك سويا.
وقد منحنا القنصل الحكومي الذي قابلته سيدتي أثناء الرحلة مجموعة من التعبيرات المصرية، وحينما أقمنا معسكرنا في الأقصر، تعرفت سيدتي على أكثر الرجال شهرة بالقرية بما فيهم "مصطفي أغا آيات" وهو القنصل الذي قابلناه في أول يوم لنا والذي يمثل "بريطانيا" و"بلجيكا" و"روسيا" في الأقصر، وأسست سيدتي الصالون الذي اعتادت عليه في "جولدن أرمس"، وبدلا من أن يكون الحوار باللغة الإنجليزية مع السيد "ثاكاراكي" والسيد "كارليل"، أصبح الحديث يجري باللغة العربية، وكانت سيدتي تطلب التوضيح في بعض

الأوقات من السيد "أبو حلاوة" والذي يعمل بالمطبخ المجاور ويراعي الصحبة كالحارس، وقد استبدل الخمر الداكن والميسر في "إيشير" بالشاي، وفي بعض الأحيان بالقهوة الثقيلة التي يعدها، وأراني السيد "أبو حلاوة" كيف أصنعها، وفوجئت بمدى استيعابي للأحاديث التي كنت أتابعها أثناء تنقلي من غرفة لأخرى بالمنزل الفرنسي، وغالبا ما كنت أشغل نفسي بالعمل في المطبخ مع السيد "أبو حلاوة" على الرغم من أنني قد تنازلت عن أعمال الطبخ له؛ حيث لا توجد فائدة من محاولة طبخ طعام غير مألوف بمكونات غريبة، فكل ما يعده "أبو حلاوة" طعمه لذيذ ولم أحرم أنا أو سيدتي من "بودنج الشحم" والبيض المطهو على شكل الجنود المعتاد صنعه في "إيشير".

عامل هؤلاء الرجال سيدتي بمنتهى الاحترام والمجاملة، على الرغم من حقيقة إدراكنا أن وضعنا غريب في الأقصر؛ فهي امرأة متزوجة، ولكن ليس لديها زوج ولا أطفال، وهذا وضع غير سليم وبه مغامرة في نفس الوقت، ومن في مثل هذا الوضع يكون حاد الذكاء ومحبا للجدل.

يتجمع الرجال عدة مرات في الأسبوع بصالون سيدتي وهم: الشيخ "يوسف"، و"مصطفي آغا"، والقاضي "سليم" أفندي وآخرون، وهي تتكئ على الأريكة والوسادة، وتتحدث، وفي بعض الأحيان كانوا يجلسون لوقت متأخر بالمساء، وأظل أنا والسيد "أبو حلاوة" في المطبخ منتظرين إشارة سيدتي للمساعدة وتجديد الغليون وتقديم صينية الحلويات التي أعدها السيد "أبو حلاوة" في وقت سابق من اليوم.
استدعتني سيدتي لأساعدها في أمر معين وهي تقول:

-"سالي"، تعالي هنا.
واستدارت نحو الرجال وقالت:
-إن ملك وملكة إنجلترا ليسا مخلوقات سماوية؛ فهما من لحم ودم مثلنا، أليس كذلك؟.
فابتسمت وقلت:
-نعم يا سيدتي، إنهم مثلك ومثلي.
وضحكنا، وضحك الرجال وعدت للمطبخ، ولحسن الحظ بالنسبة لي، كلما طلبتني سيدتي لتأكيد أمر ما، لا يستطيع المصريون تصديق أنه حقيقي، أو على الأقل من أجل النقاش يظهرون عدم تصديقهم له؛ فدائما ما كنت أوافق على كلامها، ولكن مرة أخرى سنقول أية نوع من الخدم يستطيع أن يخالف سيده أمام صحبة محترمة؟!

وفي الصباح، دخلت غرفة سيدتي ووجدتها قد نهضت بالفعل؛ حيث اعتدنا على الاستيقاظ قبل الفجر، وكانت هذا الصباح قد ارتدت ملابسها بالفعل وقالت وهي تتباهى وتدور حول نفسها:
-هذا هو... هذا هو الشكل الجديد.
فقلت:
-سيدة "داف جوردن"!
ولم أستطع قول المزيد فسألتني قائلة:
-ما رأيك؟
ودارت مرة أخرى، وكانت ترتدي أكثر ملابس غريبة قد رأيتها في حياتي؛ حيث ارتدت سروالا رجاليا من القطن البني فضفاض ويضيق عند عند نهاييته، وسترة رجالية قصيرة فضفاضة من القطن الأبيض، وصندلا في قدميها، وقالت:
-هذا هو.

ولم أستطع قول أي شيء، فقالت:
-هيا يا "سالي"، كيف أبدو؟
وكان يجب أن أقول شيئا ما، فقلت:
-إنك تبدين كشيخ مصري.
وضمت يديها وضغطت عليها وانحنت بصورة رسمية وقال:
-إنشاء الله.
ثم التقطت شالها ووضعته على شعرها ولفته حول رقبتها، ونظرت إليَّ وقالت:
-اضحكي؛ فالأمر عادي.
فضحكت ضحكة واحدة قصيرة لخوفي من مواصلتي للضحك، وقلت:
-إنه عملي للغاية....

تخلينا عن جواربنا والجونلات التحتية أثناء سفرنا على ضفاف نهر النيل، ولكن لم يخيل لي أبدا الذهاب أبعد من ذلك بغض النظر عن مدى ارتفاع درجة الحرارة .
قالت سيدتي:
-هذا مريح.
وقامت برفع المشدات الخاصة بها من على الأريكة حيث وضعتها ولوحت بها لي، فقلت:
-مشداتك!
ورجعت للخلف من الصدمة، ولو كان مناسبا لكنت جلست، وفتحت سيدتي صندوق السفر وألقت بالملابس التحتية الثقيلة فيه وأحكمت إغلاق الغطاء وقالت:
-مشداتي ستبقى هنا يا عزيزتي من الآن فصاعدا فلست بحاجة لها؛ فالهدف من منفاي هذا هو أن أتنفس بسهولة أكثر وتلك المشدات غير عملية

ومنذ ذلك الوقت، أصبح أسلوب ارتداء سيدتي لملابسها هكذا، وكانت تسابق رجال القبائل البدوية عندما تشعر بالإلهام. وكنا قد تجادلنا حول المشدات في الماضي، عندما مرضت سيدتي؛ حيث حاولت إقناعها بعدم ارتدائها، ولكن ارتداءها في ذلك الوقت كان مشروطا بعدم إيذائه لها من الناحية الصحية، وقد وجدت الآن طريقة للتخلص من تلك المشدات وقالت:

-لقد سافرت تلك المسافة البعيدة بالنسبة لي ولم أمت؛ لذا حان الوقت لأرتدي ما أريد، ألا توافقيني الرأي في هذا يا عزيزتي "سالي"؟!

ومثلت هذه اللحظة تغيرا كبيرا في حياتي أكثر عمقا من خزانة الثياب الجديدة، وعلى الرغم من جموحها الشديد، فقد خلعت سيدتي ملابسها الانجليزية، وبدا تغير علاقتنا بصورة جلية جدا، ولم نتحدث سويا عن ذلك الأمر؛ فلم أكن ندا له، بل كنت جزء من روتين حياتها وجزء من حياتها، وكانت رعايتي لها يسودها حميمة كبيرة حتى صرت كما لو أنني جزء من جسدها ربما يد أو قدم، تلك الأشياء التي لا تستطيع الاستغناء عنها، ولا تفكر فيها كثيرا، ولكن منذ تلك اللحظة بدأت الأمور بيننا تتغير وتغيرت الحياة.

وفي وقت لاحق في صباح ذلك اليوم، ذهبت إلى غرفتي وأغلقت بابها، وتذكرت أنه عندما قامت بشراء السروال والقميص الرجالي من السوق بالقاهرة، اعتقدت أنا والسيد "أبو حلاوة" أنها تشتريهم كهدية لزوجها، واعتقدت أن السيد "أليك" عندما يرتديهم سيضحك على نفسه، وسيسمح لها بملاطفته، ويرتدي هذا الثوب مرة بإحدى حفلات العشاء، ولكن ولكن سيدتي قامت بارتدائها بعد أن تخلت عن ملابسها الأوروبية؛

وقمت بخلع ثيابي وأخذت الثوب الإسلامي البني الذي أصبح باهتا من تكرار وضعه بالشمس ليجف، وخلعت مثل سيدتي كافة طبقات ملابسي التحتية، وقمت بفك رباط المشدات مثل سيدتي، ولففت الملابس التحتية، ولدقيقة فكرت بأخذها إلى المطبخ وحرقها، ولكنني أدركت أنه قد يأتي الوقت الذي أحتاجها فيه؛ لذا أخذت مجموعة من الملابس من صندوق الملابس، وقمت بلف المشدات الخاصة بي بحرص ووضعتها بقاع الصندوق بعيدا عن النظر.

وفي اليوم التالي، غامرت بالذهاب لسوق القرية مع السيد "أبو حلاوة"،وأنا لم أخرج بدون المشدات منذ طفولتي- وارديتهم أول مرة عند ذهابي لجنازة والدي- حيث شعرت أنها جعلتني ممشوقة القوام، واعتمدت عليها كثيرا، ولكن بدونها أشعر أنني غير متناسقة وأن الجميع ينظر إليَّ، وأصبحت أكثر راحة وحرية حتى مع ارتداء الرداء الإسلامي البني مرة أخرى، وشعرت بالغرابة حيث استطعت تحريك عمودي الفقري وأصبحت كالمخلوق الهلامي المرن، ولم أستطع حتى أن أبتسم حينما سرت بجوار السيد "أبو حلاوة" ونحن في طريقنا، حيث نقوم دائما بالتسوق معا، وفي بعض الأحيان يرافقنا "أحمد" الذي يجري أمامنا، وخلال هذه الرحلات تبادلنا أكثر محادثاتنا اللغوية إثراءً؛ حيث تجاوزنا الحديث عن الطعام والأشياء إلى مواضيع أخرى أعظم مثل الطقوس الدينية والملاحظات الثقافية والعادات المحلية، وتبادلنا أطراف الحديث؛ حيث نناقش تلك الأمور بالعربية في طريقنا إلى السوق ثم بالإنجليزية أثناء عودتنا، ولم يكن السير لمسافة طويلة؛ فالأقصر الجديدة مكان صغير، أصغر بكثير مما كانت عليه في العصر القديم، ولكننا أحرزنا تقدما ثابتا وفي تلك الأيام ومع عدم

وجود المشدات شعرت باستعدادي للتحدث في أي شيء، ومرة أخرى بدا أن السيد "أبو حلاوة" يستطيع قراءة أفكاري.

وقال السيد "عمر":

-لماذا لم تتزوجي يا آنسة "نالدريت"؟

فاحمررت خجلا، وكرهت هذا الاحمرار؛ فإنه يزيد خجلي، وأجبته قائلة:

-لقد كنت خادمة سيدتي لعدة سنوات بمنزلها.

فقال :

-ولكنك لست أمةً!

فضحكت وقلت:

-خادمة السيدة هي مكانة خاصة متميزة؛ حيث أظل بالقرب من سيدتي؛ فهي تحتاج وجودي في أكثر الأمور خصوصية بالنسبة لها.

فقال:

-أعلم أنها تحتاجك، ولكن.....

فقاطعته قائلة:

-لم يكن الزواج يناسبني؛ حيث لن أستطيع الاستمرار كخادمة لسيدتي، ولن أستطيع أن أقوم بواجباتي كخادمة لها.

فقال:

-أنا متزوج يا آنسه "نالدريت" وأقوم بواجباتي، والمرأة لا بد أن يكون لها زوج وأولاد، فمن سيهتم بك عندما تكبرين وتصبحين ضعيفة؟!

صمت، فلم أجرؤ يوما لأفكر بوضعي من هذا المنطلق، ولكن لم أفكر يوما في رؤية الموضوع بهذا الأسلوب مع المشدات والملابس الانجليزية الثقيلة التي ارتديها وأقوم بغسلها وإصلاحها وإعادة ارتدائها؛ فأنا معتادة على فعل ما يطلب مني،

وفعل أي شيء آخر يبدو لي أمرا مرعبا، فقلت بحرص:
-سأظل مع سيدتي حتى لا تعود بحاجة لي.
ثم قمت بتغير الموضوع قائلة:
-سيد "أبو حلاوة"
- نعم يا آنسة "نالدريت".
فقلت:
-أنا بحاجة إلى..
ثم توقفت، ونظر إليَّ وسرنا إلى القرية، وقلت :
-أرغب في...
وتوقفت مرة أخرى فقال:
-بماذا ترغبين؟
فقلت:
-أرغب في شراء...
وتوقفت، ونظرت ناحية الممر الترابي فبدت لي امرأة، كانت ترتدي ملابسا صعيدية مطرزة بإحكام على الكتفين، ولفت منطقة وسطها، وبدت ثنايا ثيابها التحتية؛ فجسدها مغطى بالكامل، كما شاهدتها وهى تجلب قطعة من القماش مثبته جيدا خلف رأسها، وقامت بتغطية رأسها بها بإتقان.
فقال السيد "عمر":
-أتريدين شراء خادمة سيدة؟
فقلت:
-لا!
ضحكت؛ فنظر السيد "أبو حلاوة" لي وهو مستمتع وحائر، فقلت:
-أريد أن أرتدي كما ترتدي هي.
وأشرت إلي المرأة:
-فبثيابي الانجليزية تجعلني أشعر بالحر يا سيد "أبو حلاوة.

فقال:
-تريدين أن ترتدي ملابس كالفلاحين ؟
فقلت:
-لا ولكنك رأيت سيدتي "داف جوردن" وما ترتديه.
فقال وهو يبتسم:
-إنها ترتدي ملابس الرجال.
ووجدته يستمع ويعارض ذلك على نحو بسيط ، فقلت:
-سيدتي ستفعل ما تراه مناسبا، ولكن أين تباع ملابس المصريات؟......
فرفع السيد "أبو حلاوة" يده لإسكاتي وقال:
-يجب أن ترتدي كما ترتدي زوجتي يا آنسة "نالدريت"، وسأطلب من سيدة في القرية أن تأتي وتراك؛ فهذا أفضل على هذا النحو.

أتت "أم حنيفة" وابنتاها إلى المنزل الفرنسي ذات صباح والحمار الخاص بهما على ظهره سلة من الثياب، وبغرفة الصالون استلقت سيدتي على الأريكة المغطاة بوسادات شديدة النعومة ومساند لتشاهدنا، بينما يتم أخذ مقاسي، وظل السيد "أبو حلاوة" في المطبخ بعيدا عن مجال الرؤية، ولكنه يستمع حتى يترجم عند الضرورة، ووصفت السيدة شعري قائلة:
-جميل جدا وأملس وبشرتك صافية للغاية وبيضاء، وقامتك طويلة جدا وقوية، وثيابك الإنجليزية ثقيلة للغاية وتشعر بالحر.
جردوني من ملابسي عدا ثيابي الداخلية التي قاموا بفحصها بعناية شديدة، وقالت سيدتي:
-هذه أكثر الأشياء والسراويل التي تم إصلاحها وإعادة تطريزها في حياتي يا "سالي".
وترجم السيد "أبو حلاوة" من المطبخ، وضحك الجميع بما فيهم أنا، ولم أمتلك الشجاعة لأذكر سيدتي أنني أرتدي

أسفل ثيابي الأشياء التي تعتبرها غير صالحة، وارتديت ثيابي مرة أخرى وذهبت إلى غرفتي لإحضار المشدات التي فحصتها جيدا "أم حنيفة" وبناتها كعلماء أعطوا الفرصة لفحص شيء جديد، ألبسوني الثياب من جديد، وطلبت سيدتي من السيد "أبو حلاوة" إحضار دفترها؛ حيث تحفظ فيه ببيانات دقيقة عن النفقات، وتم إعطاء أمر بشراء مجموعة كاملة من ثياب المصريات لي: سترتان أو قميصان طويلان أحدهما من القماش الرقيق الملون والآخر أسود، وزوج من السراويل الواسعة وضيقان بشدة عند الأوراك ويبلغان أسفل الركبة فقط أحدهما من الحرير والآخر من القماش الأبيض الإسلامي، وسترة خارجية طويلة مع أكمام طويلة وذات أزرار من المنتصف تصل إلى منتصف الصدر، وسترة خارجية قصيرة للتغير ذات أزرار بنفس الطريقة، وشال مطرز ليتم ربطه حول الوسط، وجاكت خارجي طويل من اللون الأزرق المخملي يسمى "عجيبة"، وطرحه لتغطي راسي وزوج من الشباشب باللون الأصفر المغربي مع أصابع قدم محددة

بالطبع، سأشعر بالحر كما كنت أشعر به عند ارتدائي لملابسي، ولكن سيدتي قالت:

-صه، ستبدين رائعة، ويمكنك الاستغناء عن بعض الملابس عندما ترتفع درجات الحرارة .

فأحجمت عند آخر قطعة، وعن ثوب خارجي طويل أكمامه أيضا تصل إلى الأرض عند ذهابي إلى السوق، فقلت:

-لا يُغطى أحد إلى هذا الحد هنا بالأقصر.

ولكن سيدتي أصرت على عمله، وقالت:

-لا نعلم متى سنحتاج إلى خروجك، ولا يمكنك الخروج هنا كأوروبية، يجب أن تكوني كالمصريات، وبهذه الطريقة

ستستطيعين مرافقة السيد "أبو حلاوة" دون أن يلاحظوا.
ولكنني لم أستطع تخيل الظروف التي يكون بها ارتداء مثل هذا الشيء ضروريا، وستصنع لي عباءة مشي -تيزيرة- ستصنع من الحرير البنفسجي، وأصرت "أم حنيفة" على الحجاب، ومجموعتين من الملابس التحتية، وقالت سيدتي:
-حسنا، من فضلك.
ونظرت -أنا من لم تمتلك أبدا ثيابا جديدة طوال حياتها- إلى كومة رائعة من الثياب عند قدميها، وعجزت عن الكلام، وأصدرت صوتا تلقائيا من مؤخرة حنجرتي، وبدأت أبكي من الرعب؛ فتوقفت الثلاث نساء عن العمل، ونظرن إليَّ في حيرة وذعر، وسألت سيدتي: ماذا بك يا "سالي"؟
فقلت :
-أنا... لا... أنا لن... ستضطرين إلى خصم هذا من راتبي يا سيدتي.
فقالت:
-إنني أشتري لك هذه الأشياء؛ لأعطي لنفسي بهجة رؤيتك وأنت ترتدينها؛ فهذا أقل ما يمكن عمله لك مقابل ما تقومين به معي يوميا.
زاد هذا الكلام بكائي.

وأثناء البحث عما يناسبني، استطعت النظر إلى السيدة "أم حنيفة" وبناتها عن قرب، كما أنهن قمن أيضا بفحصي بدورهم، وكانت أعينهن محددة بالكحل وشعرهن الأسود اللامع ملفوف لأعلى بضفائر، ولديهن نقش حنة معقدة على أيديهن وأقدامهن، وسألتني الفتاة الكبرى قائلة:
-هل تعجبك؟
ابتسمت ومدت يدها للأمام حتى أستطيع رؤيتها بوضوح،

فأومأت ولم أكن متأكدة من الرد، وعندما أنهت السيدات عملهن، اختفت الفتاة الكبرى داخل المطبخ، ثم ظهرت وهي تحمل إناءً به حنة، وقالت سيدتي:

-يجب أن تجربيه يا "سالي"

وقبل أن أتخذ قرارا إذا ما كانت هذه فكرة جيدة أم لا، أخذت الفتاة يدي وبدأت برسم أشكال معينة وعليها خطوط، وخرج السيد "أبو حلاوة" من مكان جلوسه خلف الباب وقال مبتسما :

-الآن أنتِ مصرية حقيقية يا آنسة "نالدريت".

الفصل الخامس

علمتني والدتي عندما كنت صغيرة، وتعلمت القراءة وأنا في الثامنة عشر من عمري، ولكن بعد ذلك فقدت والدي وعلمتني سيدتي، على الرغم من شكي في عدم مبالاتها بتعليمي، لقد علمت جميع العاملين لديها القراءة؛ حيث تقول أن القراءة مهارة أساسية لا يستطيع أي خادم أن يستمر بدونها، وكان المنزل "بإيشير" مليئ بالكتب؛ فهناك الكتب بالفرنسية والألمانية والإنجليزية أيضا، وكتب قامت سيدتي بترجمتها ونشرها، بالإضافة إلى كافة الكتب التي قرأتها سيدتي وكتب لم تقرئها، ودائما ما أحيطت سيدتي بالأقلام والحبر وأكوام كثيرة من الورق حتى عند مرضها، وهنا بالقاهرة، بدلا من عملها بالترجمة، كان لديها "خطاباتها للوطن"، وأصبحت خطاباتها مهمة جدا بالنسبة لها كأي عمل ترجمة مدفوع الأجر قامت به؛ ليس هذا فحسب، فالحقيقة أن هذه الخطابة هي الصلة الحقيقية

الوحيدة بينها وبين أسرتها الحبيبة، ولكن كان هناك حديث جدي عن نشر تلك الخطابات في كتاب يوم من الأيام.

كتبت لأختي "إلين" بالأسكندرية مرتين في الأسبوع كما فعلت هي أيضا ذلك، مُلئت خطاباتها بأخبار المستعمرة البريطانية هناك، وحياة عائلة "روس"، حيث يلعب السيد والسيدة "روس" لعبة "البريدجيت" مع هذا القنصل أو ذاك، وأقامت السيدة "روس" حفلة عشاء رائعة دُعي خلالها أصدقاء السيد "روس" بالعمل، وأمدتني "إلين" بالشائعات التي يتناقلها الناس، ذلك النوع من الحديث الذي اعتاد الخدم على تناقلها ورفضته أثناء وجودنا بانجلترا، ولكنني وجدت متعة في قراءته؛ حيث أنني هنا بعيدة جدا عن أحاديث النميمة وتناقل الشائعات، وشعرت أحيانا باستحالة تصديق تواجدي أنا وأختي في بلد واحد؛ فالوضع كما لو أن هناك دولتان مصريتان، واحدة حيث تعيش أختي وتنظر عبر البحر الأبيض وإلى أوروبا، والثانية حيث أسكن أنا وسيدتي ونركز أنظارنا بقوة وثبات على نهر النيل.

امتلكنا عدد قليل من الكتب في البيت الفرنسي، وعندما يصل طرد جديد من انجلترا تتبع سيدتي ما فيه بشوق، وعندما كان يأتي الأوربيون لزيارتنا مرتين في الاسبوع في موسم الزيارات، كانت تطلب منهم ترك ما معهم من كتب، وهكذا وبهذه الطريقة وجدت الروايات طريقها إلي، ومما حصلنا عليه مؤخرا أحدث الإنجازات الخاصة "بالثلاثي جورج" كما تسميهم سيدتي وهم: "جورج إيليوت" و"جورج ميريديث" و"جورج ساند"، على الرغم من أنني لا أستطيع القراءة لهذا الأخير، عندما سافرنا اعتدت أنا وسيدتي على الجلوس

والقراءة سويا من أجل الصحبة؛ حيث رغبت سيدتي في رؤية ما أقرأه حتى نتمكن من مناقشته معا، وكنت دائما ألتمس منها عدم إهمالها للحبكة الدرمية، اعتادت أن تقوم بتلخيص الكتب الألمانية والفرنسية لي أثناء قراءتها، وقد أفترض أنه بمجرد استقرارنا بالأقصر ستنتهي هذه الجلسات؛ حيث سيكون لديَّ منزل أديره والكثير من الأعمال أقوم بها، ولكن معظم أوقات الظهيرة بعد أن تأخذ سيدتي قسطا من الراحة، كنت أسمعها تنادي علي "سالي"، ثم تنادي بصوت أعلى:
- "سالي"، حان الوقت.

وفي أول جلسة لنا بعد الظهر، دخلت حجرتها فوجدتها؛ وضعت جميع وسائدها المتعددة (وكانت تقول لي: لا يمكنك يا عزيزتي أن تمتلكي العديد من الوسائد أبدا !)، وأصبحت كومة كبيرة رائعة على الأرضية تجلس وسطها وقالت:
-أنا الباشا الجديد وسلطان الوسائد، فلتجلسي أسمعيني قراءتك.
وهكذا جلست وقرأنا وأصبحت هذه هي عادتنا الجديدة، وإذا كتبت لأي شخص بالمنزل في "إيشير" ووصفت له هذا المشهد، لن يصدقني، ولكنني هنا لم أفكر بأي شيء.
وفي بعض الأحيان، عندما يحين دوري للقراءة، كانت سيدتي تأخذ على عاتقها تسريح شعري الذي قالت أنه أصبح أغمق وأطول مما كانت تعتقد، وسألتني إذا ما كنت متأكدة من أجدادي ليسوا مصريين؟، وعندما كان السيد "أبو حلاوة" يحضر لنا الشاي، لم أكن أزعج نفسي وأقوم لمساعدته؛ حيث كانت القراءة وتسريح شعري يشعراني بالنعاس، وكثيرا ما حاولت سيدتي إقناعه بالانضمام إلينا، ولكن كانت إجابته واحدة:
-مشغول جدا.

وفي إحدى الأيام، عندما كنا في المطبخ ننظف بعد تناولنا الغداء، سألته لماذا لا ينضم إلينا في الصالون قائلة:

-إن انضممت إلينا في الصالون، فستحب سيدتي هذا؛ فلماذا لا تجلس معنا لبعض الوقت؟!... ولكن بمجرد قولي هذا، رأيت مدى عدم إمكانية حدوثه، حيث هز رأسه وقال:

-إذا جلست معك أنت والسيدة "داف جوردن" فربما لن أقوم أبدا.

وانتهت جلساتنا بالصالون مع وصول الرجال من القرية لبرلمان الأقصر الخاص بي كما أسمته سيدتي، وعدت لواجباتي، وكانت حياتي بالأقصر أسهل بكثير من حياتي كخادمة لسيدتي، وبدأت الحرارة ترتفع مرة أخرى ووضعنا مستقر إلى حد كبير؛ حيث أصبحت واجباتي أقل؛ فملابس سيدتي يمكن الاعتناء بها ببساطة؛ فقد والتزمت أسلوبها الخاص فكانت تفضل السترة الفضفاضة والبنطال بصورة خاصة، وما قاله ضيوفنا الكرام حول ملابسها الجديدة كان يتعدى أن أعلق عليه، ولكنها تتنفس بسهولة وهذا هو ما يهمني.

وعندما تتحدث سيدتي والرجال لم يكن السيد "أبو حلاوة" يمدني بالترجمة عندما أحتاج إليها فقط بل يشرح المحتوى؛ حيث أن الوضع السياسي في مصر معقد وسريع التغير، وكانت سيدتي تثري النقاش بشدة بين الرجال فكانت تجعل الحوارات ساخنة، فالخديوي إسماعيل باشا مجدد كبير، وسمعت السيد "روس" يتحدث عنه في انجلترا كمحدث حقيقي للتقدم في العالم العربي، وبالفعل يراه معظم الأجانب هكذا؛ حيث قام بتطوير كبير بالكباري وسكك الحديد والطرق ووسائل الري في البلد، وعلى الرغم من ذلك، فهنا في صعيد مصر

كان المنظور مختلفا وسمعنا عن الثمن الحقيقي لبرامج الخديوي التاريخية؛ حيث عرض شعبه لوحشية كبيرة؛ فقد ارتكز طموحه الكبير على بناء قناة السويس ليوفر طريقا لإبحار السفن يربط البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وهكذا يربط أوروبا والشرق البعيد ويولد دخلا للبلد، وبدأ الإنشاء منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولكنه سيستغرق العديد من السنوات ليكتمل، وعلى الرغم من ذلك، فهذا المشروع والمشاريع المماثلة له مكلفة للغاية وتتطلب عمالة كبيرة، وكان الفلاحون يُختطفون من قراهم ويُجبرون على العمل، وببعض القرى تم أخذ كافة الرجال ذوي البنيان القوي للعمل كعبيد لسنوات عديدة بلا طعام أو مقابل، وكان من بينهم كافة الشباب الذين ساعدونا في الانتقال إلى "المنزل الفرنسي" تحت إشراف "مصطفي أغا" حيث ذهبوا منذ أسابيع قليلة، وقالت سيدتي ذات مرة:

-إنها الطريقة التي بنيت بها الأهرامات العظيمة.

فقال الشيخ "يوسف":

-يا سيدة "داف جوردن" كان العمال في العصور القديمة يعملون بدافع الحب والإخلاص لفرعونهم الذي وعدهم بمكافئتهم في الحياة الآخرة، ولكن الخديوي لم يحصل على هذا النوع من هذا الولاء.

فقالت السيدة "داف جوردن":

-لم أدرك أنك صاحب رأي متطرف.

وأجاب الشيخ:

-بل رأي معقول.

وبدون النظر إلى الغرفة، شعرت أنه قد احمر خجلا، وقال "مصطفي أغا":

-اليوم الذي يأتون ليلقوا القبض عليك لن يُعتبر أمرا عاديا.

وكانت سيدتي شغوفة لمعرفة الوضع الحالي وتاريخه، وأصبح

الضيوف يتحدثون بحرية أكثر، ورأى "مصطفي أغا" أن الخديوي يتصرف للمصلحة العامة لمصر وشعبها وأن القناة ستضمن دور مصر المستقبلي في التجارة العالمية، واستمر القاضي "سليم" والشيخ "يوسف" في التعبير عن رأيهم، فهم يرون أن اهتمامات الخديوي تماثل اهتمامات الإمبرطوريه التركية التي يمثلها، على الرغم من إدعائه الاستقلال عن "القسطنطينية"، وكان الرجال يخفضون أصواتهم عندما يتحدثون كما لو أنهم يخشون أن يتم سماعهم من خلف جدران "المنزل الفرنسي"، ولكن من الواضح أنهم يريدون سيدتي أن تسمع ما يقولون، وذكرتني هذه الأحاديث بالحوارات التي استمتعت إليها في حفلات العشاء ب "إيشير"؛ حيث كانت تعتبر الحفلات ناجحة بصورة خاصة، إذا تعالت أصوات الحاضرين، وكان الاقتراع العام هو الموضوع المتناول في "إيشير"، ووجدت نفسي أشعر بالحنين بتذكر تلك الليالي، على الرغم من أنني لم يطلب مني التعبير عن وجهة نظري، وكان النبيذ يلعب دوره في تلك الجلسات، ولكن سادت الرزانة دائما في المنزل الفرنسي، والحقيقة أنهم وجدوا الحوار ذاته جادا، وفي بعض الأحيان كان الحوار ينتهي بملاحظة محزنة، على الرغم من أن سيدتي كانت تفول أنهم يمزقون أنفسهم في الجدال.

وكلما أثيرت هذه المواضيع وهي تثار بصورة مستمرة، كان السيد "أبو حلاوة" يتوقف في منتصف المهمة التي بين يديه -تقطيع الأعشاب، وطحن الحبوب، وفحص الطماطم، واختيار الناضج منها في الحوض- يستمع لهم بشده، كانت أول مرة ألاحظ فيها هذا الأمر، عندما تحدثت إليه ذات مرة ولم يجب، فالتفت إليه من مكاني حيث كنت أعمل، وفوجئت برؤيته

واقفا دون حراك كما لو أنه وجد أفعى على الأرضية، وخشيت أن أتحرك، وحاولت رؤية ما كان ينظر إليه حتى أدركت أنه لا ينظر إلى شيء بل يستمع، وأغفت نفسي من حلمي حيث تخيلت قاربا في بسلاسة عبر النهر، وتابعت بنفسي الحديث الذي كان يُدار بالغرفة المجاورة، والآن، يستطيع أن يراني أتابع الأحاديث بنفس الاهتمام الذي يتابعها هو به، وكان السيد "أبو حلاوة" يلحق ترجمته للأمور بتعليقاته الشخصية، وكان مرافقنا ينحاز للفلاحين بشدة، ولم يفاجئني هذا الأمر، وليس من عادتي أن يكون لي رأي حول هذه الأشياء؛ فماذا أعرف عن السياسة المصرية؟ ولكن خُيل لي أن هذه الحوارات أصبحت أكثر حدة وتتكرر بصورة أكبر.

وواصلت الحرارة ارتفاعها، ووجدت هذا الأمر شيئا ملهما ومميزا، وأعطاني فكرة عن عادة المصرين في الاستيقاظ قبل الفجر، والنوم في فترة الظهيرة، والتزاور عند حلول المساء، وفي بعض الأوقات بعد أن أترك سيدتي بغرفتها وبجوارها كتبها ورسائلها مع إدراكي أنها ستنام بسرعة، كنت أغادر المنزل لأتجول في القرية، كنت أرتدي قبعتي الصيفية التي أصبحت آخر ما تبقى من ثيابي الإنجليزية؛ حيث أحب الظل الذي تمدني به، ولم أعتد بعد على ارتداء الحجاب، وكنت متأكدة من أن مظهري غريب، وحاولت ارتداء ملابسي المصرية بطريقة صحيحة، وحاولت لمها معا بواسطة الشال الذي أربطه على خصري كما أرتني السيدة "أم حنيفة" وبناتها، ولكنني متأكدة من أنني أقوم بهذا بصورة خاطئة جدا، ولكن أهل القرية قد اعتادو عليَّ، والحقيقة، أن هذه الثياب تشعر بحرارة أقل من ملابسي الإنجليزية.

يقع المنزل الفرنسي في الجهة البعيدة من المعبد القديم العظيم، وتحيط به منازل متواضعة من الطين على قمة طبقات من الحصى والرمال، وإذا نظرت بدقة، يمكنك تحديد بقايا زخرفة المنزل، وعواميد ذات رؤوس حجرية بارزة من الأرض، وتتكون الجدران الخارجية لأحد المنازل من لوح صخري منقوش بصورة معقدة وعليه سيدات، ونقش هيروغليفي، وعلى الرغم من أن لون الرسم قد مُحي، لكنني دائما ما توقفت لدراسته، عندما كنت أمر به، ويوجد عليه رسمان لرجل وامرأة يواجهان بعضهما البعض، ويداهما ممدودتان برشاقة، بينما تلقي الشمس أشعتها عليهما، وأسفل قدميهما وجدت سطرا من الكتابة الهيروغليفية، وليس لديَّ أي فكرة عن كونهما إلهين أم فرعونين أم كليهما، ولكن وضعية تصويرهما رسمية وبها شيء من الحميمية، وكانا يبدو وكأنهما يتحدثان لي على الرغم من أنني لم أستطيع معرفة ما كان يقال.

كان هناك رجل إنجليزي يقطن على الضفة الأخرى من نهر النيل، ولكنه لم يكن ودودا على الإطلاق مع سيدتي، ولم يقم بزيارة واحدة للمنزل الفرنسي، ومررت به ذات يوم عند أطلال معبد الكرنك وهو يرتدي قبعة شمس كبيرة مربوطة أسفل ذقنه بوشاح، وكان يرسم بتركيز كبير، ولدقيقة فكرت في التحدث معه (كان مصدر الإشاعات بالقرية قد أخبرنا عنه بالفعل)، ولكنه نظر إليَّ بدهشة ورعب، مما جعلني أريد أن أختفي، ثم قام بطي دفتر الرسم الخاص به، ونهض من على بقايا العمود، حيث كان جالسا، وسار بعيدا دون أن يتحدث، وبالطبع، أخبرت سيدتي عنه، وفي المرة التالية التي عقد الصالون الخاص فيها، أصبح هذا الرجل وعمله هو الموضوع الوحيد الذي تناوله الصالون،

وقال "مصطفي أغا":

-إن الموظف المعني بشئون الآثار أُرسل للتحقيق؛ فقد اتهمني "ماريت" بسرقة وبيع الآثار! إنها إهانة بالغة.

وقال "مصطفي أغا" هذا وهو ينفخ من الغضب، وانكمش من الخجل في نفس الوقت، وكنت أعرف "فرانسيس ماريت" فهو رئيس شئون الآثار في الحكومة المصرية في القاهرة.

وقالت سيدتي:

-ولكنك بالفعل يا "مصطفي" يا صديقي العزيز تسرق الآثار وتبيعها بالسوق السوداء.

ولكن الجميع يفعل ذلك أليس كذلك؟ فسيدتي نفسها تقوم بإرسال طرود من هذه الأشياء التي نجدها بين أنقاض المعبد والتماثيل الصغيرة حتى بعض الجواهر الأثرية إلى أصدقائها وأسرتها في انجلترا، وأكملت قائلة:

-في الأسبوع الماضي قام فلاح ببيع خاتم من الفضة لي، قد سرقه من موقع استكشاف جديد.

فقال "مصطفي آغا":

-أن تمتلكيه أنت خير من أن يذهب ل"ماريت" الذي سيبيعه للفرنسيين ويضع ثمنه بجيبه، فإذا لم أسرقه أنا سيسرقه هو... ماذا فعلتِ؟

فقالت سيدتي:

-قمت بشرائه بالطبع... ها هو ذا.

ومدت يدها ليرى الجميع مدى جماله، وأبدى "مصطفي أغا" إعجابه بالخاتم وقال:

-يجب ألا تتحدثي مع هذا الرجل، ويجب ألا تخبريه بأي من هذه الأمور؛ وإلا سيلقي القبض عليكِ.

فقالت:

-لا تخشَ من حديثي معه يا "مصطفي"؛ فقد هرب من

"سالي" في ذلك اليوم، ومن الواضح أنه خائف ولن ندعُه ليتناول الشاي معنا.

حل شهر "رمضان الكريم" وهو شهر الصوم من طلوع الفجر وحتى غروب الشمس، وتباطأت جميع الأعمال ب"المنزل الفرنسي" وأصبحت بسرعة السلحفاة خلال النهار؛ حيث لم يمتلك أي شخص القوة على القيام بالكثير من الأشياء باستثنائي، ووجدت أنني لا أستطيع عمل شيء سوى التفكير في الطعام طوال اليوم، وعلى الرغم من أنني لم أصم، لكن السيد "أبو حلاوة" استمر بطهي الطعام لنا، واعتقدت أنا وسيدتي أن هذا الأمر غير لائق، بالإضافة إلى أنه ذات يوم عندما أردت أن أريحه من عبء إعداد الطعام، أخبرني أنه يمكن أن أضع السم لسيدتي في الطعام؛ فصرخت في وجهه قائلة:

- "عمر"!!

وضربته بعنف بملعقتي، ثم خفضها وذهبت، ثم أدركت أنني استخدمت اسمه المسيحي، ولكنه ليس اسمه الحقيقي، وإنما الاسم الذي ينادونه به، فقلت:

-آسفة يا سيد "أبو حلاوة".

وخفضت رأسي، وشبكت راحتي يدي كما يفعل هو ليبدِ الاحترام، وتمنيت لو كان معي حجاب لأغطي به وجهي، وفي "إيشير"، كان هناك عدد قليل من الخدم الذين لم أتجاوز الطريقة الرسمية في التعامل معهم، وكان السير "أليك" لديه خادم يخدم الجميع بما فيهم السيد "أليك" ذاته، وكان يدعو السيد "روس" بالسيد "روس"، حتى بعد قضائه أكثر من عشرة سنوات بالمنزل، وكان هناك آخرون بالمنزل أدعوهم بأسمائهم الأولى مباشرة وآخرون أستعمل معهم مسمى وظائفهم فقط، ولكن بمجرد أن قلت"عمر" شعرت أن هذا مناسب لي

فقال:
-هذا اسمي، ويمكنك استعماله، إنني سعيد بهذا.
فقلت:
-من فضلك، يجب أن تناديني "سالي".
واحمررت خجلا، وصمت لدقيقه لأفكر في أن هذا الأمر غير ملائم، ولكنني صرفت هذا التفكير بعيدا، وزاد هذا الأمر بيننا، وبمجرد أن تبادلنا المعاملة بأسمائنا الأولى، أصبح من الصعب تصديق أننا كنا نفعل أمرا خلاف ذلك من قبل.

ومع استمرار شهر رمضان، أنسحب زوار صالون سيدتي، وأرسل "سليم" أفندي و"مصطفي أغا" الهدايا والبخور والصابون المعطر كنوع من الاعتذار، وكانت "الأقصر" شديدة الهدوء، عند غروب الشمس، كان "عمر" يفطر، وقد أعد طبقا من البلح وكوب ماء لنفسه في وقت سابق، ولم تستطع سيدتي أن تقنع "عمر" بأن ينضم لنا على الوسائد في غرفة الصالون ليحضر جلسات القراءة معنا، وخلال رمضان، كان يشاركنا وجبة المساء، واعتدنا تناول الطعام بغرفة الصالون؛ حيث تتحول السماء خلف تلال طيبة من اللون الأزرق إلى اللون الأسود المرصع بالنجوم، وكنت أحمل حوض المياه والصابون ومنديل لسيدتي لتغسل يديها، وكانت النظافة محط اهتمام كبير مصر؛ مما جعلني أفكر في أننا نحن الانجليز نبدو قذرين عندما نسافر إلى هذه البلد، ثم أحضرت حوض ماء لي أنا و"عمر" أيضا، وقمت بإشعال العديد من الشمع، بينما أحضر "عمر" الطعام لغرفة الصالون على صينية طعام من الفضة ووضعها على مقعد منخفض، وجلسنا نحن الثلاثة على الوسائد حولها، وقد اعتدت أنا وسيدتي على تناول الطعام على الطريقة المصرية واستعمال اليد اليمنى فقط لنتناول الأرز والخبز

المالح والحبوب التي يصنعها، وتناولنا الشاي وعصير الليمون، وشربنا نخب بعضنا البعض وكافة سماتنا الرائعة الأخرى، وكانت سيدتي تلقي النكات كثيرا، وكنا نحتاج لتوضيح النكتة ل"عمر" لتكون أكثر إمتاعا، وكنا نضحك ونصيح مع بعضنا البعض، وسمحت لي سيدتي أن أبدي انطباعي عن رقص الفتاة "حورية" التي شاهدنا أداءها في "إدفو"، ولم أدري متى ولا أين أصبح هذا هو وسيلة الاحتفال، ولكنها أصبحت كذلك، وصرت أرقص لجمهور قليل ومعروف، ولكن لن يصدق أحد في انجلترا كلها أنني استطعت فعل مثل هذا الشيء، وقد استمتعت بهذا الأمر بصورة كبيرة، وكان هذا شعور سيئ جدا، فقد كنت خرقاء وبطيئة على قدميَّ، ولكنها لم تفشل في جعلنا جميعا نضحك، وكانت سيدتي و"عمر" يتكئون على الوسائد الخاصة بهما ويصفقان لي.

أصبحنا أكثر استرخاء وألفة مع بعضنا البعض، ويمكنني القول بأن هذا الأمر لم يكن عاديا ؛ حيث كانت التغيرات والتقلبات في علاقتنا نحن الثلاثة مع بعضنا البعض غير مسبوقة، فقد اعتادت سيدتي على معاملة العاملين لديها بشكل جيد، ولكننا الآن ذهبنا بعيدا جدا عن الرسميات بين الموظف وصاحب العمل، وتمسك "عمر" بالصورة القديمة لفترة أطول مني، ولكن بدا أن التفاني الذي يتطلبه شهر رمضان قد أعطاه شعورا جديدا بالحرية .

وتوقعت أن شهية "عمر" أثناء رمضان ستكون زائدة، ولكنها بدت ضعيفة، ومع مرور الأيام، أخذت تقل شيئا فشيئا، ومثل أي شخص آخر بالقرية، بدأ يتبع نهج الكسل المتزايد، ومرضت سيدتي، وكان من الصعب علينا تحمل هذا بعد أن كانت بحالة جيدة، ولم يكن السعال والبصاق المعتاد، ولكن شيء آخر، وكما أوجد الصيام طريقا لتغلب النوم على أهل

القرية، فقد وجد النوم طريقه إليها؛ حيث قالت أنها تشعر بالتعب -تعب العظام- ولكن أعتقد أن الأصعب من ذلك هو شعورها بالحنين للوطن الذي تغلب عليها مرة أخرى بصورة غير متوقعة؛ فكلما دخلت عليها غرفتها كنت أجدها إما تنظر لصور أطفالها والسير "أليك" التي تم إرسالها لها في أعياد الكريسماس، أو نائمة والصور موضوعة خارجا بجوار أريكتها على منضدة الكتابة.

في الليالي التي لم تكن سيدتي بصحة جيدة، أكملت أنا و"عمر" عادتنا الجديدة في تناول الطعام معا، وكان المساء يندفع إلى الصالون، والخفافيش على الشبابيك، وإفريز المنزل الفرنسي كان معروفا بالبوم الصغير، والذي كان يبدو كما لو أنه خرج من إفريز هيروغليفي، وجلست إحدى البومات على النافذة تشاهدنا ونحن نتناول الطعام، وفي هذا الوقت كانت الليالي دافئة، ولكنها ما زالت باردة لدرجة تتسبب في حدوث اختلاف عن جو النهار.

وكنت أتكئ أنا و"عمر" على الوسائد، ونتحدث معا حتى وقت متأخر من الليل، وأعتقد أن كل منا فوجئ بمقدار ما لدى الآخر لنتحدث فيه معا، وكنا نقول معظم الأشياء مرتين مرة باللغة العربية وأخرى بالإنجليزية مع استطراد وشرح دائم، لم أتحدث أبدا بهذه الحرية مع رجل من قبل، ولم يتحدث "عمر" بهذه الحرية مع امرأة من قبل، وعلمت هذا لأنه قال لي ذات مساء أنه لم يقابل زوجته مطلقا حتى يوم الزفاف، وأخبرته أن هذا لا يبدو لي كطريقة سيئة لإتمام هذا الأمر، ووجدت نفسي أفكر في الخادمة الصغيرة التي وضعت نفسها بتلك المشكلة في "إيشير"، وسألته كيف بدا الأمر عندما رأيتها أول مرة، فابتسم

وهز يده، وعندما لم أفهم رده أجاب قائلا:
-لم يكن لدي كلمات أقولها بأي لغة من اللغتين.
وتعجبت من الحديث؛ فالرجل يثق بي، ومر نسيم الليل على بشرتي، وأصدرت البومة صوتا وطارت بعيدا، وشعرت أنها بعدت بقدر بعد "إيشير"، وبدا كما لو أنني لم أسكن أرضا مختلفة فقط بل وجسد مختلف أيضا.

ولحسن الحظ، استردت سيدتي صحتها بعد مرضها الأخير سريعا، ولم تحتج إلى أي من طرق العلاج الخاصة التي ترهبنا جميعا، وقررت الركوب في حملة إلى وادي الملوك قبل أن تصبح الليالي حارة مثل النهار، وأتى لنا "عمر" برجل المعدية الذي عبر بنا النهر بعد الظهيرة، كما اتى لنا بالحمير لتحملنا بمجرد وصولنا للضفة الأخرى، وكان ممر الوادي ضيقا وعاصفا، وسرنا لبعض الوقت بجوار الحقول حيث كانت المحاصيل
ناضجة وكانت التربة شديدة الخصوبة بسبب فيضان النيل الصيفي السنوي، والذي يمكن الفلاحين من زراعة محصولين أو ثلاثة بالتناوب؛ فبمجرد حصد محاصيل العدس والشعير يتبعوها بمحصول الذرة والقطن وقصب السكر، وكانوا يستعملون نظما مبتكرة من قنوات الري وممرات المياه التي شيدت في الزمن القديم، وكانت التربة سمراء وغنية على طول ما يصل إليه فيضان النيل، ولكن بعد هذا، يبدو كما لو أنه قد رسم خط وتبدلت الأرض بصورة غير مترابطة وقاسية؛ حيث تبدأ الصحراء ووجدت الخط الفاصل بين السهل الأخضر والتلال البيضاء الحجرية يوجه إنذارا إلى حد ما، كما لو أن الأرض قد أصدرت تحذيرا تقول فيه تخطي هذا الخط وسيحكم عليك بالهلاك، حيث لن تنجُ خلف هذا الخط، وغاص قلبي بين ضلوعي عندما انحرفت مسيرتنا عن السهل وتقدمت تجاه

الوادي، وكافحت حتى لا أظهر خوفي، وكانت سيدتي و"عمر" مشغولين جدا بمناقشة المناظر الطبيعية والفلاحين الذين قابلتهم وتحدثت معهم في زيارتنا السابقة؛ حيث حضر العديد منهم لتحيتنا، بينما نشق طريقنا بين حيازاتهم الصغيرة؛ مما جعلهم لا يلاحظون نظرة التهجم على وجهي.

بدأت الشمس تغيب خلف التلال التي تحولت إلي اللون الأحمر مثل الفحم الساخن في النيران المشتعلة بنهاية اليوم، ووصلنا إلى الوادي مع الشفق الذي يمنح في مصر الضوء الدافئ، والآن ومع مرور أكثر من نصف عام على وجودنا هنا، أعتقد أنني قد اعتدت على جمال مصر وغموضها، ولكنني لم ولن اعتد هذا، ويعيش الشعب المصري بين بقايا أسلافهم السابقين ويقبلون ذلك؛ حيث تمنحهم معرفة خاصة بالبقايا الأثرية لماضيهم، والوادي كاملا مرتفعا في التلال ومقابر الملوك والملكات تم حفرها عميقا في قاع الأرض، وهي مليئة بالكنوز، وتم فتحها ونهبها وإعادة غلقها وفتحها وسرقتها، وأحضرت الحملة كشافات ودخلنا إلى مقبرة الفرعون "سيتي"، وجدرانها عبارة عن مجموعة رائعة من اللوحات، وكانت الألوان ممتازة ولامعة، وأشار "عمر" تجاه السقف حيث النسور رسمت تطير تجاه مؤخرة المقبرة و"سيتي" نفسه يقف أمام "رع " وهو متراس الصقور -إله الشمس-، شعرت بالرعب مما رأيت، وكان الجو بالمقبرة جافا جدا والمصابيح تومض بشده لتلقي بضوء أصفر كثيف، ونظرت مرة أخرى إلى سيدتي وأنا أتمنى مرة أخرى لو أمكنني قراءة وترجمة الهيروغليفية، ولكني وجدها مشغولة بشدة في محادثتها مع أحد الحمالين، وبدلا من مناقشة المقبرة ولوحاتها والمعنى الذي يحمله نقوشها، كانت سيدتي كالعادة تسأل الحمال عن أسرته وعدد الأطفال وأين يعيشون وإذا ما كانوا أصحاء؟

وعندما حان وقت عودتنا، سلكنا طريقنا عبر وادي الملوك، ثم حملنا حمارنا، وجاملت أنا وسيدتي بعضنا البعض حول ذوقنا في اختيار ملابسنا التي جعلت الركوب على الحمار إن لم يكن مريحا، لكنه على الأقل أقل خطورة، وأطفأ الحمالون المصابيح، ولدقيقة أعمانا ظلام الليل، ولكن الليل ليس شديد الظلام بمصر؛ حيث القمر والنجوم تسطع بشدة، وسماء المساء صافية جدا، لدرجة أنه بمجرد هبوطنا من الوادي امتد النهر أمامنا مثل الحلم وبصورة معقدة أكثر من أية رسم بالمقبرة، وسلكنا طريقنا لخارج التلال لنعد لأسفل الممر الحجري، وكانت الليلة شديدة الهدوء كما لو أنها تذكرنا بالمكان الذي كنا به: عالم الموتى، وادي الموت، وهو المكان الذي يزعج به الموتى مرارا وتكرارا.

الفصل السادس

استمر شهر رمضان، وكلما مرت الأيام، كنت أرى أنه من الصعب نهوض "عمر" في موعد صلاة الفجر أو نهوضة بصفة عامة، وفي صباح أحد الأيام عندما ارتديت ملابسي وما زال الظلام موجودا قبل شروق الشمس، سمعت المؤذن يدعو المؤمنين للصلاة من مئذنة مسجد "أبو الحجاج" بالجانب الآخر من القرية، واعتدت سماع "عمر" في الغرفة المجاورة وهو ينهض ليستجب للنداء، كما اعتدت على التحرك بهدؤ في أرجاء المنزل بقدر الإمكان، ولكن هذا الصباح لم أسمعه ينهض؛ لذا ذهبت إلى باب حجرته ووجده نائما على حصيرته، لم أوقظ رجلا من قبل، ولم أكن متاكدة مما يجب فعله؛ فدخلت حجرته وناديت عليه، ولكن بلا جدوى، فأخذت خطوة أخرى، وتنهد "عمر"، وغير وضعيته، وكان شعره الأسود يسقط على جبينه، فخطرت لي فكرة؛ حيث رددت الأذان من ذاكرتي، فقد سمعت الأذان كثيرا حتى أصبحت أستطيع أن أردده من ذاكرتي على

الرغم من أنني لا أستطيع فهم معنى معظم كلماته مثل: "الصلاة خير من النوم."، فقلت ذلك بالإنجليزية، ثم تعثرت لغتي العربية وأنا أبدأ بقول "الله أكبر، الله أكبر"، وغير "عمر" مكانه مرة أخرى، واستطعت رؤيته مستيقظا، فرجعت للخلف وخرجت من الغرفة، ووقفت بالرواق وواصلت النداء، وسمعته يخرج من فراشه، وجلس وأخذ يسعل، ونظف حنجرته، وكان على وشك أن يتوضأ من إبريق الماء الخاص به في الحوض، عندما توقف، وبرز برأسه ونظر خارج باب غرفته وراءاني أقف هناك، فقال وهو يبتسم:

-هل أصبحتِ المؤذن الخاص بي الآن يا "سالي" ؟

فقلت:

-الله أكبر يا "عمر".

وأخذت أرددها، ثم عدت إلى غرفتي حيث فتحت النوافذ ونظرت تجاه النيل حيث أشرقت الشمس على التلال بالجانب الآخر.

وفي هذه السنة اجتمعت الحرارة المبكرة مع شهر رمضان مما أرهق الناس في الأقصر، وانتهى الشهر الكريم بالاحتفال بعيد الفطر، وسقط معظم القرويون مرضى نتيجة للعدوى التي اجتاحت القرية، كانت أول معرفتي بالأمر عندما لم يحضر "أحمد" الذي اعتاد على المجئ وجلب احتياجات "عمر"، فهو لم يأتِ لليوم الثالث على التوالي، وعندما أخبرت "عمر" أن "أحمد" ما زال مفقودا، قال:

-إن الفتى كسول يا "سالي"، فكم مرة قد وجدناه نائما في الشمس عندما نحتاج مساعدته.

فقلت مقرة كلامه:

-نائما في الشمس، نعم... ولكن هنا في "المنزل الفرنسي" حيث نستطيع إيجاده.

ولم يكن "عمر" مهتما، ولكن غياب "أحمد" لم يكن من خصاله مما أشعرني أن هناك شيئا فظيعا قد حدث للصبي، فذهبت بنفسي لأبحث عنه.

وكنت أعلم أين يعيش "أحمد" حيث اعتادت والدته على تحيتي، بينما نسير في طريقنا إلى السوق أنا و"عمر"، وكانت تخرج لنا من محل إقامتهم الذي يتكون من غرفة واحدة، لتسلم عليَّ بيدها وتشكرنا بصورة مبالغ فيها على سماحنا ل"أحمد" أن يعمل بمنزل السيدة العظيمة "داف جوردن"، وكانت لا ترى بإحدى عينيها، وهناك عدد قليل من الأسنان بفمها، وصدمت ذات يوم عندما ذكرت عمرها بفخر ل"عمر"؛ فقد كانت أصغر مني سنا بعدة سنوات، وبعد هذا تجرأت على مناداتها ب "أم أحمد"، وأعجبها ذلك هي وكل من كان يستمع إلينا (كنت دائما ما أدهش بعدد الأشخاص الذين يستمعون إلينا)، وكانت هي و"عمر" دائما ما ينخرطون في سلسلة طويلة من التحيات والمباركات ويترجمها "عمر" لي قبل أن تترك "أم أحمد" يدي وتسمح لنا أن نكمل طريقنا، وكان طريقنا يتكون من مجموعة من مقابلات مماثلة وتبادل المباركات وتمرير الأخبار، وأدركت أنني وسيدتي ذات أهمية كبيرة بالنسبة للقرويين، ولكني أدركت أيضا أن فضولهم قد تجاوز تمسكهم بعادة التحية والاحترام؛ فالمصريون مهذبون جدا.

وفي هذا الصباح، عندما وصلت إلى منزل "أحمد" سلمت عليها قائلة:

-أهلا يا أم أحمد.

ولكن لم يخرج أحد، فتقدمت خطوة للمكان المفتوح على عتبة كانت بمثابة مدخل للمنزل، وناديت مرة أخرى، ولم أتلق أي رد؛ لذا قمت هذه المرة بالدخول من خلال مدخل المنزل وبدأت

أحدق بالداخل، وكان الهواء محملا برائحة الموت والقيئ، واستطعت بالكاد أن أتحكم بشعوري الذي يدفعني للهروب، ورغم الرائحة، كنت متأكدة من وجود شخص بالمنزل، في حين أنني لم استطع التعرف على شيء في هذا الظلام، وأعتقد أنني سمعت شيئا مثيرا، وملت بجسدي للأمام بصورة أكبر؛ حيث لم أرغب في الدخول إلى منزل؛ فلم يتم دعوتي للدخول إليه، وهمست قائلة: أحمد؟!!

وربت شخص ما على كتفي فصدر مني صرخة مكتومة، وإذا به "محمد" حامل المياه، وقال لي:

-لقد تبعتك إلى هنا.

قلت:

-إنني قلقة على "أحمد"

فتحدث معي ببطء بلغته العربية الواضحة، وقال بحرص:

-ماتت أم "أحمد" من الحمى، و"أحمد" ضعيف جدا، ونصف سكان الأقصر مرضى بهذا الوباء المميت، ويجب عليك أن تساعديه.

قال "محمد" وهو يمد يده:

-إنشاء الله.

فسألته:

-لماذا لم تخبرنا بهذا في وقت مبكر؟

فقال:

-لم نرد أن يفقد "أحمد" وظيفته ب"المنزل الفرنسي".

فقلت:

-أين هو؟

فاستدار "محمد"، ونظر تجاه مدخل الباب المظلم المنخفض؛ فدخلت إلى المنزل ولم أعد مترددة في هذا، وقلت ل"محمد" :

-اجلب مياه نظيفة واحضرها إليَّ

وكان السقف يعلو رأسي ولامسه؛ فارتجفت من هذا التلامس غير المتوقع، وتقدمت ثلاث خطوات ثم توقفت؛ حيث رأيت فراشا من القش أمام الحائط على يميني وعليها كومة من القماش، ولكن بعد قليل، أدركت أن كومة القماش ما هي الإ "أحمد"؛ فأخذت بعض خطوات أخرى وأصبحت بجواره، وفي الضوء الخافت استطعت رؤية أنه أصبح نحيفا جدا، إنه طفل صغير فهو ذو ثماني أو تسع سنوات على الأكثر، ولم يكن له مثيل؛ فعندما كان بصحة جيدة حيث يجري خلف "عمر" ويقوم بأعمال تغيظه، كانت شفتاه جافتان ومشقوقتان وثيابه قذرة والرائحة رهيبة، فتساءلت:

-هل مات؟ هل تركوه هنا وحيدا ليموت؟

وكان هناك إبريق من المياه بجواره، وفكرت بصب بضع قطرات من المياه علي شفتيه، ولكني تساءلت عن مدة بقاء المياه الموضوعة هناك وما بها من حشرات النيل، ولم أكن متأكدة بعد إذا ما كان ميتا أم حيا؛ فوضعت يدي على جبهته وشعرت بالحمى تحرق بشرته، كان الجو بالفعل حارا بالخارج على الرغم من أننا في ساعة مبكرة من اليوم، ولكن حرارة جسد "أحمد" كانت مرعبة؛ فخلعت غطاء رأسي وغمرت أحد طرفيه في المياه، وببطء وحرص غسلت وجه "أحمد"، وجلبت كومة القماش المتسخ بعيدا عن جسده، وأصبح غطاء رأسي الآن مبللا بالكامل، وغسلت أطرافه وبدت يداه وقدماه النحيفتان ممتدان، ومرفقاه و ركبتاه مرتخيان بصورة مؤلمة، وتظهر أضلاعه بصورة صريحة أمامي، إنه طفل، مجرد طفل صغير على الرغم من السعادة التي يجدها في قيامه بالأعمال المؤذية ليغيظ "عمر" مرات عديدة كل يوم، وجدت نفسي أفكر حيث سمح لي الخيال بتوهم أنه ولدي، ولم يبدُ أن هذا الاقتراح شيء سيئ، ولا شك

في وجود من كان يعتني به، وتخيلت "أم أحمد" وهي تمسك بيدي، وتتحدث مع "عمر" وممتنة للغاية من أجل العمل الذي منحناه لابنها، وقد ماتت الآن ولا شك في أنها قد دفنت حيث يسرع المسلمون بدفن موتاهم!.

ووصل "محمد" حاملا مياه جديدة، فقلت له: " ساعدني. "، وقمنا معا بسنده للأعلى مستخدمين كومة الملابس المتسخة كوسادة، وبمجرد أن حركناه بدأ بالسعال بصورة ضعيفة جدا، وفتح عينيه وقال: " آنسة. " مستخدما الاسم الذي اعتاد على أن يدعوني به، واستمر بالحديث بصوت منخفض؛ فسألت "محمد":

-ماذا يقول؟

فقام بتكرار الكلمات التي يقولها الصبي بهدؤ وعناية بنفس طريقة النطق التي استخدمها بالسابق، فقال "محمد":

-إنه يقول إن البومة البنية الصغيرة قد أتت لبابه ونظرت إليه وطارت بعيدا. وهنا أدرك "أحمد" أنك ستأتين لتبحثي عنه يا آنسة.

فقلت له:

-هل تستطيع جعله يشرب بعض الماء، بينما أذهب لأحضر صندوق دواء سيدتي؟

وبينما وقفت لأسأل عن طريق الباب، أدركت أنني تحدثت بالعربية بطلاقة دون أن أفكر باللغة الإنجليزية أولا ثم أترجمه.

تحولت الحياة بالمنزل الفرنسي في هذا اليوم من الهدوء والبطء إلى السرعة ووضع الطوارئ؛ حيث اجتاح القرية وباء معدٍ تظهر أعراضه في صورة ألم مزمن بالمعدة وحمى رهيبة تتسبب عند تركها بدون علاج إلى إضعاف الشخص ثم تسممه وموته،

وعلى الرغم من عودتي إلي المنزل مع نية إحضار صندوق سيدتي الطبي والعودة إلى "أحمد" لمعالجته، أصرت سيدتي على العودة معي إلى "أحمد"، وقالت:

-قمت بتمريض عدد من الأطفال المرضى، وأعلم محتويات صندوقي هذا أفضل من أى شخص.

وفي الحقيقة كانت هناك عدة مناسبات على مركب "زينة البكارين" عندما أصيب مركبي، ووجدت بصندوق الأدوية هذا صبغات وضعت منها على الجرح أسفل الكمادات، وظهر أنه علاج أكثر فاعلية من أي دواء شاهدته أو يلقاه أي رجل آخر بما فيهم "الريس"، واعتادت سيدتي على معالجة الإصابات الصغيرة واعتادت على مهارتي الشخصية في علاج المرض الجسدي عندما كانت مريضة.

وعلى الرغم من ذلك، تحدثت أنا و"عمر" في نفس الوقت قائلين:

-يجب أن تبقي هنا يا سيدتي...

وتوقفنا عن الكلام، ونظرنا لبعضنا البعض، وقمنا بتحريك رؤوسنا، وعبست وجادلتنا، ومدت سيدتي ذراعيها بثبات وقالت:

-أريد أن أرى "أحمد" وسنذهب أنا وأنت مع بعضنا البعض يا "سالي".

وذعرت سيدتي عندما رأت حالة "أحمد"، وسمعت ما حدث لوالدته، وأصرت على نقل "أحمد" إلى "المنزل الفرنسي"؛ حيث أعد فراش خاص له في حجرة باردة وهادئة، وهناك يمكن تمريضه بالصورة المناسبة.

وعندما سمع أهل القرية أن "أحمد" يتلقى العلاج، بدأ أهل القرية يتوافدون على باب "المنزل الفرنسي" يطلبون من

سيدتي رؤية أفراد أسرهم الذين سقطوا مرضى لهذا الوباء، وحضر "مصطفي أغا" بعد الظهر للمنزل ليحذر سيدتي من عدم معالجتهم قائلا:

-ستتعاملين مع الحمى وتنتقل إليك.

وقد أراحني قوله هذا، ولم تلتفت سيدتي لنصيحة "مصطفي أغا"، وأجابت عليه قائلة:

-هذا هراء، فكيف نستطيع معرفة أن هذا المرض معدٍ؟

فقال:

-نصف القرية مريضة.

كنت تساءلت بنفسي عن كيفية انتقال المرض، ولكنني بقيت صامتة، وكان لسيدتي نظرية هي أن القرويون يتناولون الكثير من القمح الأخضر والذرة الخضراء، وصحب ذلك الصيام مما تسبب في المرض، وقالت سيدتي:

-سأعالجهم بزيت الخروع ، سينظف جهازهم الهضمي.

فأجاب "مصطفي أغا" قائلا بلهجة جادة -ونادرا ما يكون-

-سيدتي "داف جوردن"، مصطفي أغا" جاد، إذا لم ينجح علاجك، فسيتهمك الفلاحون بأنك قمت بتسميمهم أو أعطيتهم مشروبا فاسدا.

وقالت سيدتي:

-لا تكن سخيفا، هل الأفضل أن نتركهم يذبلون من آلم المعدة الفظيع؟ يا "سالي"! اذهبي واحضري آلة الحقن الشرجية.

الآلة عبارة عن أنابيب، وأكياس، ومضخات، وأقماع كانت مخزنة في حقيبة ملابس بقاع صندوق ثياب كبير، وبينما كنت أخرجها، استطعت سماع سيدتي تتجادل مع "مصطفي أغا" في الغرفة المجاورة وقالت:

-سنعطيهم زيت الخروع، وإذا لم يأتِ هذا بنتيجة، فسنعالجهم بآلة الحقن الشرجي.

أعلم أنا وسيدتي كل شيء عن توقف الجهاز الهضمي ومستحضر الأفيون الذي يسبب هو الآخر هذه المشكلة، وعليَّ أن أدبر هذا المهدئ المكلف، ولكنه فعال وهو محفوظ في زجاجات خاصة به داخل حشوة خاصة في صندوقه حالات الطوارئ التي تصيب سيدتي في العديد من الأحيان ومن مستحضر الأفيون وزيت الخروع وفي حالة فشلهم سننتقل لآلة الحقن الشرجي.

قضيت أنا و"عمر" باقي اليوم أثناء فترة راحتنا من تمريض "أحمد" في إخلاء وتنظيف أرضية حجرة الدور الأرضي بالمنزل الفرنسي حيث سنعالج القرويين، ومر فترة على تربية الحيوانات فيها، ولكن أرضية الغرفة التي لا يوجد بها نوافذ ما زال عليها قش وروث قديم جاف، وقمنا بالكنس والتنظيف وإلقاء الماء على السطح الخشن، وأثناء كنسي لدرجات السلم، لاحظت أن الحجارة عبارة عن قوالب من المعبد تم تحريكها وإعادة ترتيبها ولم ألحظ هذا من قبل على الرغم من العنة غير المحبوبة؛ حيث أتعثر في طريقي للأعلى، وفي الدرجة الثالثة وجدت صف واحدا من الكتابة الهيروغليفية، وعندما أريت "عمر" ذلك، استهجن الأمر وواصل العمل كما لو أنه يقول أنهم في كل مكان؛ فهذه العلامات عادية في الأقصر، ومن الشائع أن يحيا الشخص حياته محاط برسائل غامضة من الماضي والعمل صعب، وكنا نُجبر على الخروج في الشمس من وقت لآخر نسعل ونغمغم ونلهث لنتنفس مثل سيدتي في أحد أيام مرضها.

وفي المساء قبل العشاء، أخذت الحمام الصغير إلى حجرتي وملأته بماء ساخن حيث يؤلمني جسدي فهو متعطش لحمام

دافئ على الرغم من أن الليلة دافئة، وأضفت بضع قطرات من الزيت المعطر الذي اشتريته من القاهرة لتنعيم بشرتي، وكانت يداي شديدة الجفاف وما بين أصابعي بدأ يتآكل وينزف، وفتحت نافذتي ونظرت إلى النيل، بينما كنت أرقد بحمام المياه الساخن، وشعرت أن جسدي يختلف عن حالته السابقة كما لو أن عدم ارتداء المشدات قد تسبب بتغير جسدي، وشعرت أن أطرافي أطول ومستقيمة وظهري أقوى ورقبتي أكثر مرونة وحتى يداي أكثر قوة، ومررت الصابون على بشرتي، وأغلقت عيني، وعند خروجي غطيت جسدي بطبقات من الزيت، فكانت بشرتي زلقه ونظيفة.

وفي المساء، جلسنا نحن الثلاثة على الوسائد نتحدث ونخطط للعيادة المؤقتة، وتحمست سيدتي للتحدي الذي سنخوضه، وكتبت بالفعل خطابا للسيدة "جانيت" لتمدنا بالمزيد من الإمدادات الطبية من الأسكندرية والقاهرة، مما جعلني أتوقع أننا سنؤتي ثماره ولن نحتج لإرسال آخر، وكان الوقت متأخرا عندما أخمدنا ضوء الشمعة وذهبنا للفراش، وأذن لصلاة الفجر عقب بعد دقائق من خلدونا في الفراش، فنهضت منه ورششت قطرات مياه نظيفة على وجهي ووضعت شالي حول كتفي وذهبت للغرفة المجاورة لأوقظ "عمر" الذي نام عن الأذان مرة أخرى.

وبدلا من الوقوف خارج بابه وتقليد صوت الأذان بنفسي، دخلت حجرته وكانت النوافذ مفتوحة والغرفة مليئة بهواء الليل البارد، وعلى الرغم من أن السماء بالخارج تلونت باللون القرنفلي الذي بدأ في التلاشي، وبدأت يشوبها الزرقة التي يتخللها البياض، كان "عمر" نائما على ظهره ويتنفس، وانحنيت بجواره، وبدأت النداء للصلاة.

وفتح "عمر" عينيه ولم يبدُ مندهشا لرؤيتي على مسافة شديدة القرب منه، وجلس ببطء ووضع يديه على رأسه، ثم أخذ يدي، وقام بإبعاد شعري عن وجهي، ولم أكن رفعته هذا الصباح، ووضع أصابعه على شفتيَّ بخفة شديدة، ثم اقترب مني بوجهه وقبلني، ولم يسبق أن قبلني أحد في حياتي من قبل؛ فلم أجرؤ على السماح لأحد أن يقبلني، وقضيت حياتي كاملة أتجنب التقبيل، وكان يهمس لي بالعربية ويلمس شعري، والحقيقة أنني لم أتردد كما لو أنني انتظرت طويلا لأرقد بجوار "عمر" حتى نسيت ما كنت انتظره، كل ما أتذكره أنني فكرت فيه هو... نعم هذا هو... وهذا صحيح، وهذا ما أريده، وهذا ما قضيت الشهور الماضية بانتظاره، وقبلني مرة أخرى، وهذه المرة كانت قبلة طويلة، وتحركت نحوه وتحرك هو نحوي، ثم ألقى بثياب نومي خلف ظهري، فأصدرت فصرخت لتكشف جسدي، وقام بتقبيلي ليهدئني، وخلع ثياب نومه وبجوار حصيرة نومه، هب علينا النسيم البارد مرارا وتكرارا، ونظرنا لبعضنا البعض لفترة طويلة فقد بدا النظر إليه رائعا، ولم أعتقد يوما أن النظر لجسد رجل قد يكون مثل الحلم الجميل، ثم جذبني للأسفل بجواره على حصيرة نومه وبدأ الأمر، واستمر وكان رائعا، ولم أعرف أنه قد يكون ممتازا هكذا، وأتت سيدتي إلى مصر لتهرب من الموت، ولكن في مصر وجدت أنا الحياة.

الفصل السابع

جلسنا نحن الثلاثة للعمل، ومرة واحدة بدا العمل كثيرا؛ حيث فتحت أنا وسيدتي العيادة ب"المنزل الفرنسي" هذا الصباح لنفحص القرويين قبل أن يصبح الجو حارا، وبعد مرور عدة أيام قليلة، بدأ الوباء يسوء، حيث يموت ما يقرب من أربعة قرويين كل يوم، وفي حالة إذا ما أُحضر لنا المريض قبل أن يتسمم، يصبح زيت الخروع مخلوطا بالأفيون والحقنة الشرجية علاجا ناجحا معه، ولعبت سيدتي دور الطبيب وأنا مساعدتها وأهلكنا من من المجهود، وكانت سيدتي ترتعش من ضغط العمل على الرغم من حرصي على تولي معظم الأعباء؛ حيث أغلي المياه بالمطبخ وآخذها للأسفل وأرفع المرضى وأنظف وأعقم آلة الحقن الشرجي، وعملت أنا و"عمر" على استخراج زيت الخروع من أوراق عديد من النباتات التي تنمو في الحديقة، وكان يقضي وقتا طويلا كل ليلة وهو يسحق الأوراق بالمدق والهاون، وبعد وصفها ب "صاحبة

النظرة السيئة"، أصبح القرويون يصفونها ب"الحكيمة" أو "المعالجة".

وأتت الأخبار من أعلى نهر النيل أن المرض انتشر بين الأشخاص والحيوانات، وأنهم يفقدون من ثمانية إلى عشر أشخاص كل يوم، وضعف العدد من الحيوانات، بينما في الأقصر نفق عدد قليل من العجول؛ ففي ظهر أحد الأيام سرت على ضفاف نهر النيل بمفردي لأبعد عن المنزل لبعض الوقت، وشعرت أن سطح المياه أمامي متغير؛ ثم أدركت أن النهر مليئ بالبقر النافق؛ فهناك العديد من العجول النافقة بالنهر، بحيث إذا اخترت أن أعبر النهر للضفة الأخرى سأصل إليها دون أن أبلل حواف البنطال المصري الذي أرتديه.

وفي اليوم التالي خرجت إلى الشرفة ووجدت الرمال الممتدة أمام المنزل الفرنسي ممتلئة بالأشخاص والجمال؛ فناديت على سيدتي لتأتي وتنظر، ووقفنا معا نتعجب من هذا الحشد غير المفسر من الأشخاص والبهائم، وتعرفت سيدتي على الشيخ "يوسف" بين الحشد، فنادت عليه ليصعد إلينا، فشرح الموقف ونحن الأمر قائلا:

-الجمال سترسل لنقل قوات الباشا في السودان؛ فهم سيتوجهون إلى الجنوب في قوافل، ولن يرَها أصحابهم الفقراء مرة أخرى، وقد أمر أصحاب الجمال أن يحضروا كمية من العلف تكفي لمدة شهرين لكل حيوان؛ ولذا كانت القرية مزدحمة بالجمال وحوصر أصحابها بأكوام من القش والذرة وظهرت المرارة والاستياء على الرجال مثل سحابة سوداء، وسألت سيدتي قائلة:

-كيف يستطيعون الحياة والعمل بدون جمالهم؟

فقال الشيخ "يوسف" أحد تعبيراته المميزة:
-الحمد لله.

وبعد ذهاب الشيخ "يوسف" وانضمامه للحشد، ذهبت أنا وسيدتي للمطبخ لنطلب من "عمر" معلومات، فقال موضحا أن كافة الأراضي المصرية مملوكة للخديوي إسماعيل باشا وقال:
-لا يوجد ملاك مصريون، وإنما مستأجرون فقط مع سداد التعريفة وفقا لقيمة الأرض، وعندما يموتون يدفع أبناؤهم إيجار الأرض.
وأومئت سيدتي برأسها وقالت لي:
-وهذا عطف على أبنائهم.
وأكمل "عمر" قائلا:
-وإذا لم يكن لديه أطفال يخسر أرضه ويستطيع الباشا أن يأخذها منه سواء سدد حقها أم لم يسدد.
فسألت قائلة:
-بدون سداد مال؟
فقال "عمر":
-نعم، في الحقيقة يستطيع الباشا أن يأخذ الأرض في أي وقت يريد ويعطيها لأي شخص آخر يفضله بصورة أكبر أو يأخذها لأحد مشاريعه الضخمة أو لأي غرض آخر، وقد رأيت هذا يحدث، ورأيت أسرا تُطرد من أراضيهم ويسلبوا حيواناتهم و....
ثم توقف "عمر"، وطلبنا منه إكمال حديثه، ولكنه حجم عن هذا وقال:
-يجب أن ترتاحي يا سيدتي.
ثم انحنى وغادر الغرفة، ونظرت سيدتي إليَّ وقالت:
-أعتقد أن "عمر" له بالسياسة، ولكنه لا يريد أن يشاركنا بآرائه.

فأومأت وأشعرني الحديث عن "عمر" بضيق في حلقي، وأضافت سيدتي قائلة:

-هل يتحدث معك عندما لا أكون موجودة ولا أسمعكم؟

فقلت:

-هناك الكثير لأتعلمه؛ فهناك الكثير من الأشياء حول هذه البلد لا أستطيع فهمها.

وشعرت أنني بدأت أحمر خجلا، وتمنيت ألا تلاحظ سيدتي هذا، وتحدثت أنا و"عمر" عن الوضع في الأقصر، وحقيقة كنا نتحدث باستمرار؛ فلم يكن من الصعب أن تجعله يتحدث عن مصر، خاصة عندما يتعلق الأمر بمعاملة الباشا السيئة للفلاحين، وكان يستمتع بفضولي؛ فنحن نتحدث أثناء عملنا بالمنزل وأثناء سيرنا بالقرية ونتحدث طوال اليوم كل يوم، ولكنني لم أرغب أن أنقل هذا لسيدتي؛ فهي تعرف أنني و"عمر" نقضي أيامنا معا وكنا معها أيضا معظم الوقت، ولكن الآن ولأول مرة في حياتي سيكون لديَّ سر وهو سر حقيقي وليس مجرد بعض المعلومات القليلة، فقد اشتقت طوال حياتي أن أملك شيئا بنفسي ولأول مرة في سنوات خدمتي الطويلة ولأول مرة طوال حياتي لم أخبر سيدتي الحقيقة كاملة، وقالت سيدتي وهي تعود لمقعدها في الشرفة حيث تستطيع مشاهدة الموقف:

-حسنا، إننا محظوظتان بوجود "عمر".

وعدت مرة أخرى إلى المطبخ حيث أستطيع إكمال محادثتي مع "عمر" بصورة خاصة، وأصبح هذا سرنا الجميل فهو شيء مشترك بيني وبينه فقط دون غيرنا، ونحن خادما سيدتنا المخلصان، ولكن خلال وقت المساء كل شيء يتغير، وبعد الفجر الأول لم أعرف ماذا أفعل حيث قضيت معظم النهار بالعيادة -حيث كان أول يوم للعيادة وشعرت بالامتنان لكل هذا العمل- كنوع من إشغال النفس، وتساءلت عما إذا

كنت مرضت، وكل شيء من حولي ما هو إلا هلوسة، وعاملني "عمر" وتصرف معي "عمر" كما فعل اليوم السابق؛ فاحترامه وسحره لم يشوبه شيء، وفي المساء كنا نتناول طعامنا مع سيدتي ونعد مخططات أكثر إثارة حول عيادتنا، وساعدت سيدتي في الذهاب لفراشها؛ ثم ذهبت إلى غرفتي وأبقيت على شمعة واحدة مضاءة، وفتحت نافذتي المطلة على النهر، واستعددت للذهاب للفراش، وجلست على فراشي، ووضعت بضع قطرات من الزيت على بشرة يدي الجافة، ثم سمعت طرقا خفيفا على باب حجرتي، ثم دخل حجرتي وأتي إلى حضني وشعرت بسعادة كبيرة ما كنت لأصدقه إذا قام شخصا بوصفه.

بدأت أتلقى عروض زواج من أباء الشباب الذين ننقذهم بالأقصر والقرى المجاورة، ووجدت أن حدوث هذا في مثل هذا الوقت مدعاة للسخرية، على الرغم من أنني وجدته مذهلا كما لو أن صعيد مصر كاملا قرر أن يلحظ وجودي في هذا الوقت، ولم أعتد على أن أكون ملاحَظة؛ فسيدتي هي من اعتادت على أن تحظى بالاهتمام وملاحظة الناس، والحقيقة أنها هي نفسها لا تسمح لأحد آخر أن يتم ملاحظته؛ فكونك خفي هو أفضل ما يمكنك فعله لتكون خادما جيدا ومخلصا ومجدا بعملك.

وأتى أول عرض كنتيجة لما أقوم به أنا وسيدتي بعيادتنا المؤقتة حيث بدأ الوباء أخيرا يزول، وكان المنزل مليئ بالهدايا – شال من الصوف وأواني فخارية كاملة مليئة بالعسل الأسود والدجاج المحشو والقمح والخبز المحمص مع البلح – طعام لذيذ أتى من أشخاص فقراء جدا على جلب مثل هذه الأشياء، ولكن في هذه الظروف بدلا من تقديم الذرة أو القمح جاء رجل مسن من القرية وطلب أن يتحدث مع السيدة بشكل

خاص؛ فاصطحبته إلى غرفة الصالون بالأعلى، وفي المطبخ المجاور طلبت من "عمر" أن يصب له بعض الشاي، بينما أمسكت ما كنت أخيطه.

وسمعنا الرجل يقول:

-ابني يا سيدتي.

ثم سمعناه يتحدث ببساطة بعد عدد من المقدمات قائلا:

-ابني للآنسة يا سيدتي.

فوخزت أصبعي بالإبرة وبدأت أنزف وأوقع "عمر" الصينية التي كان يحملها مما أحدث صوتا عاليا، ووقف كلانا كتماثيل رمسيس دون حراك نخشى أن يفوتنا شيء. وعلى الرغم من عدم رؤيتي لسيدتي، لكنني متأكدة أنها لم تجد الجواب المناسب، ولم تتعثر سيدتي في إيجاد جواب مناسب أبدا، وأخطأ الرجل المسن الذي يرتدي ثيابا بالية مهندمة صمت سيدتي واعتقد أنه لصالح عرضه؛ فاستمر في كلامه وقال:

-إن المرأة تحتاج إلى زوج وأبناء.

لم يكن على أرض ثابتة؛ فهو لم يناقش مثل هذا الأمر المهم من قبل مع سيدة بعيدا عن كونها أفرنجية، واستطعت سماع التردد في صوته، وكان هناك الكثير من الارتباك في القرية بسبب وضع سيدتي "داف جوردن" لكون زوجها لا يرافقها، على الرغم من كون هذا الارتباك بدأ يقل مع ارتفاع مكانة سيدتي باستضافتها للصالون وأصدقائها من الرجال المهمين بالقرية، وكونها حكيمة، والحقيقة أنها في طريقها لتصبح رجلا شرفيا، وأكمل الفلاح المسن حديثه على الرغم من عدم ثقته قائلا:

-لسنا أغنياء، ولكننا سنوفر منزلا جيدا للآنسة.

وبدأت سيدتي تسعل، ولكني أستطيع القول أن هذا كان في محاولة منها لعدم الضحك؛ فنحن نعلم أن هذا الرجل

وأسرته فقراء جدا ولا يمتلكون شيئا حتى منزلهم الصغير، وأعرف هذا الابن المشار إليه في هذا الأمر أيضا؛ فهو أحد أبناء القرية المرافقين للحمير، وبالرغم من كسر حماره وإعاقته، فهو يصاحب السائحين في الموسم ليس على بهيمته، ولكن على أحد البهائم المستاجره من "مصطفي آغا".

استجمع "عمر" نفسه وأعاد ترتيب صينيته وعبر الغرفة ليأتي إليَّ وانحنى وقبَّل خدي، ثم دخل الصالون حاملا الشاي الحلو، وتركني خلفه في المطبخ بمفردي، وأمسكت بجانب المقعد الخشبي وقلت:

-يا إلهي! يا إلهي! لا يا سيدتي أرجوكي.

وقالت سيدتي بالإنجليزية:

- "عمر"، أحتاج مساعدتك في الرد على هذا الرجل بأقصى درجات الاحترام؛ فقد سمعت عرضه؛ أليس كذلك؟!

فقال وصوته متوتر:

- نعم يا سيدتي.

فقالت:

-أرجوك يا "عمر"، أرجوك تكلم نيابة عني؛ فلغتي العربية لا تسعفني، فما هي أفضل طريقة لرفض طلبه مع عدم الإساءة إليه؟ ماذا يجب أن نقول حتى لا يتم زواج "سالي" من أحد أبناء القرية الأحباء الذين يرافقون الحمير؟

فقال "عمر":

-سأخبره أننا نقدر عرضه.

فقالت:

- نعم هذا يبدو سليما.

وأكمل هو قائلا:

-وسأخبره أن الآنسة "نالدريت" أتت للقاهرة معك من

انجلترا؛ لذا فمكانها بجوارك، وأن زوجك قد طلب منها أن تبقَ معك دائما، وهذا ما وعدت بفعله، وأنها لن تتركك أبدا.
وعند سماعي هذا شعر قلبي بالراحة ، فقالت:
-حسنا، ولكنه سيظنني شريرة لعدم تركي "سالي" تتزوج من أبنه.
فقال "عمر":
-سيقبل هذا؛ فأنت و"سالي" مصدر إرباك شديد للقرويين هنا؛ فهذا الرفض سيضاف للأمور الغامضة الأخرى حولكم.
فقالت:
-شكرا لك يا "عمر".

وعندما نهض الرجل المسن لينصرف، أتيت لأراه وهو خارج، فانحنى بأدب جم ومدت سيدتي يدها إليه لتصافحه، وقام بمسكها كما لو أنها شيء من الزجاج سهل الانكسار وليست إنسانا، وابتسم لي بخجل، وعندما عدنا إلى المطبخ رفعت أصبعي الذي ما زال ينزف دما ل"عمر" ليراه؛ فأحضر إناءً من الماء وقطعة قماش وغسل الدماء، ثم لف أصبعي بقطعة قماش نظيفة ولم يتحدث أيٌّ منا.

عندما خرجت من المطبخ رأت سيدتي أنني شاحبة وأبدو كئيبة فقالت:
-أشعر أنك بدأت تحصلين على شيء يا "سالي"؛ فأنا أعتقد أن عرض الزواج هذا لن يكون أخر عروض الزواج التي تتلقينها.
فقلت:
-شكرا لك يا سيدتي.
وانحنيت لسيدتي لأول مرة منذ شهور حيث أصبح تعاملنا معا

غير رسمي وبسيط وقلت:
-إنني ممتنة لك على رفض عرضه.
فضحكت سيدتي وقالت:
-هل اعتقدتِ ولو لدقيقة واحدة أنني سأقبل عرضه؟!
فقلت:
- نعم، فقد كنت مقتنعة أنك ستوافقين على الفور.
فقالت سيدتي بنبرة عتاب في صوتها:
-سالي!
فقلت:
-أعلم يا سيدتي.
وآتى "عمر" وقال: "الولد الحمار!" باللغة الإنجليزية، فبدأت أضحك، وسريعا ما ضحكت بشدة مما أضطرني للجلوس بجوار سيدتي، فجذبتني إليها وضمتني وقالت سيدتي بينما كانت تمرر أصابعها على شعري:
-يا عزيزتي لن يأخذك أحد بعيدا عني.
وكنت بأمان ووقف "عمر" ينظر إلينا مع ابتسامه كبيرة على وجهه .
وكما توقعنا بعد هذا تلقينا العديد من عروض الزواج بصورة منتظمة؛ حيث يعرض الآباء كبار أبنائهم الأحباء، والأرامل يأملون أن يجدوا زوجات صالحات لأبنائهم، وكان أكثر العروض جدية هو ما قدمه "مصطفي أغا" بنفسه نيابة عن أكبر أبنائه "سيد" وهو شاب جميل رافق والده عدة مرات إلى صالون سيدتي، حيث من المتوقع أن يكون قد أخذ فكرة جيدة عني في أكثر من مناسبة، وفي أفضل البيوت المصرية الفتاة التي لم تتزوج يتم إخفائها بعيدا عن العيون وتصبح الشائعات أكثر من الحقيقة، وأخبرني "عمر" أن إلقاء نظرة على فتاة يعد أمرا صعبا وأنا بالطبع لم أكن أبنة سيدتي، ولكن خادمتها ولست

فتاة وإنما عانس، وحقيقة أنني أجنبية له دورا كبير، وعلمت سيدتي أنها لا بد أن تتعامل مع عرض "مصطفي أغا" بأكبر قدر من التفكير؛ فهو أغنى رجال الأقصر ومن أهم شخصياتها وله نفوذ كبير في صعيد مصر كاملا، وفي الحقيقة كان ذو حس فكاهي جيد ويقدر سيدتى ويحترمها وجميع أصدقائه وهذا شيء قيم ومفيد. وقالت سيدتي بمجرد مغادرته:

-الفكرة الكبيرة!

فقد وعدته بالتفكير في عرضه بعناية، وصمتت لبرهة، ثم نظرت إليَّ وسألتني على نحو مفاجئ:

-هل تريدين الزواج منه؟... ربما يكون هذا هو أفضل طلب زواج قد تتلقيه طوال حياتك.

فصحت قائلة:

-لا، بالطبع لا!

ووافقت سيدتي قائلة:

-بالطبع لا! فيما كنت أفكر؟ كم هو سخيف هذا الأمر!

وقامت بهز رأسها وعبست وضحكت في نفس الوقت؛ فزواج أجنبية من رجل مصري أمر غير قابل للتفكير فيه أصلا، وأضافت وهي تدرس تصرفي:

-ولكنني يجب ألا آخذ الأمر على أنك ستظلين دائما معي.

فقلت:

-نعم، يجب أن تأخذيه على هذا النحو.

ولكن تفكيري في الأمر ذهب لجانب يخالف ما كانت تفكر فيه سيدتي؛ فأنا لم أفكر في كون "سيد" ملائما (الذي كان معروف أنه في التاسعة عشر)، أو آيا من الرجال الذين تقدموا بطلب يدي للزواج، بل كنت أهتم أن تستمر الحياة كما هي حتى نهاية أيامنا، وفي الزيارة التالية ل "مصطفي آغا" تم رفض طلبه بلباقة كباقي عروض الزواج التي تلقيتها.

الفصل الثامن

كنت أجهل علامات الحمل و"عمر" هو من أخبرني بها، على الرغم من رصدي لها في نساء أخريات على الفور؛ وغمرتني السعادة لانبهاري بجسدي فلم ألحظ تغيرات أخرى، وأصبح النهار الآن شديد الحرارة مما يصعب تناول الطعام، وعدم تناول الطعام عمل على زيادة صداع رأسي وأشعرني بدوار وغثيان في الصباح، وفي إحدى الليالي بينما كنت واقفة أمامه تغمرني الرغبة وسعيدة بمعرفتي برغبته في، قال لي أنك ستاتين لنا بطفل، فضحكت ولم أدرك قصده، ثم شعرت بالذهول هل هذا ما يريد؟! أن يكون والد أبنائي؟! وقام من على الأريكة ومرر يده على معدتي، وقال مرة أخرى:

-إنك ستأتين لنا بطفل.

فنظرت إليه وخرت قوى قدمي، فأمسكني بينما كنت أسقط على الأرض وحصرت كالفتاة السخيفة التي لم تسيطر على

الأمور في الزقاق الخلفي للمنزل الكبير، فاستدرت وأمسكت بالحوض الذي يتركه "عمر" في غرفته من أجل وضوءه في الصباح الباكر، ماذا سيحدث؟! ماذا سيحدث لي الآن؟! ثم شعرت بيديه الدافئتين على ظهري وجذبني إليه وهو يهمس:

-لا تقلقي سأهتم بك كما سأهتم بطفلنا.

وفي المساء، رقدت أنا و"عمر" معا نناقش خطط زواجنا فقلت:

-لا نستطيع أخبارها.

فقال:

-يجب أن نخبرها.. لا يجب أن نخبرها، بل يجب أن نخبرها عندما يكون الوقت مناسبا.

فقلت:

-ولكنك متزوج بالفعل.

فقال:

-أستطيع أن أتزوج من امرأة أخرى؛ فهذا مسموح به لنا، ولكننا مجبرون على إخبارها أولا.

فقلت :

-لا نستطيع أخبارها.

فقال:

-بل يجب أن نخبرها.

فقلت:

-سنخبرها عندما يكون الوقت مناسبا.

ولكن بالطبع لم يكن الأمر مناسبا في أي وقت على وجه التحديد، فقلنا ربما غدا وربما سنجد الوقت المناسب في اليوم المناسب وتطور سرنا أكثر كل يوم.

لم أعتد الخداع في حياتي، ولم يكن أمرا عاديا بالنسبة لي، وعلى الرغم من ذلك لم يخطر على بال سيدتي أبدا أن أكون

أنا و"عمر" أي شيء سوى خادميها المخلصين، ولم يخطر لي أنا أيضا قبل اللحظة التي حدث فيها هذا بالفعل، والحقيقة أننا بقينا خادميها المخلصين ونحن معا ومتباعدين أيضا، لها الأولوية لدينا، ولم يتغير شيء ولن يتغير، ولا يوجد شيء بحاجة للتغير، على الأقل هذا ما قلته لنفسي وما تناولناه أنا و"عمر" مع بعضنا البعض.

لم أكن خائفة ولم أقلق حيال المستقبل سواء مستقبلي أو مستقبل "عمر"؛ فقد وثقت به بصورة مطلقة، ووثقت بسيدتي؛ فهي مرشدتي ودائما ستقف بجواري، وسنجد طريقة لنخبرها بها، وعندما نفعل ستصمت لدقيقة قبل أن تتحرك وتأخذ خطوة واسعة، وستجد طريقة لتساعدنا بها، وسعادتنا ستجعلها سعيدة فقد تخطينا حدود العلاقة بين السيدة وخادمتها، وما نحن فيه ما هو إلا خطوة إضافية في الطريق، هذا مع صعوبة تصديقي أن هذا الرجل يحبني ويرغب فيَّ وأنا أحمل طفله، وطلب يدي للزواج، وسنتزوج وسيكون لدينا أسرة وهذا كله يتعدى ما كان متاح لامرأه مثلي في هذا العمر وفي وظيفتي، وكان هذا خيالا لا محالة بالنسبة لي، وأصبح ملموسا بشكل تام، وكان من السهل القيام بأعمالي كل يوم كما لو أن شيئا لم يحدث، وخدعت سيدتي، أعلم هذا، ولكن أثناء ذلك الأمر كنت أخدع نفسي أيضا.

وبنهاية شهر أبريل، بينما كنت أفتح نافذة حجرة سيدتي، رأيت شابا انجليزيا في الممر أتى تجاه المنزل؛ فناديت سيدتي لتأتي إلى النافذة، وعندها نظر لأعلى ورآنا، وتعرفنا نحن الاثنتان على ابن عمها "آرثر" وصاحت سيدتي قائلة "آرثر تايلور"، وأسرعت في النزول على درجات السلم، ثم إلى باب المنزل الخارجي كما لو أنها لم تكن مريضة على الإطلاق، واستقبلت

الشاب كما لو أنها حرمت من صحبة البشر منذ شهور، وتذكرت كم تفتقد أسرتها وأن الحياة بعيدا عن انجلترا بالنسبة لها مليئة بالحرمان والخسارة مهما كان ما تظهره من شجاعة للعالم، وعلى الرغم من أنها أقحمت نفسها بشدة في حياة القرية، وفي مساء ذلك اليوم، وبينما كنت أعد الصالون لوجبة المساء، دخلت سيدتي الغرفة وقالت:

-لقد عاد السيد "تايلور" إلى "دهبية" ليستعد للعشاء وسأتناوله أنا وهو هنا معا على الطريقة المصرية.

وكان هناك حدة بصوتها لم أسمعها منذ عدة شهور تشبه تلك النبرة التي تستخدمها في "إيشير" مع الخدم التي تشعر بالضيق منه، فنظرت للأعلى إليها وقلت:

-بالطبع يا سيدة "داف جوردن" فسيجري الأمر على هذا النحو ويقوم "عمر"

ثم توقفت لأصحح نفسي، وقلت:

-يقوم السيد "أبو حلاوة" بتحضير وجبة رائعة.

فابتسمت، وشعرت أنها شعرت بالارتياح، وقالت:

شكرا لك يا "سالي".

وعلى الرغم من نومه على متن "دهبيه"، فقد كان السيد "تايلور" يقضي معظم وقته مع سيدتي، وعاد المنزل يدار بالطريقة الانجليزية مرة أخرى؛ حيث أتناول أنا و"عمر" وجباتنا بالمطبخ، وتقرع سيدتي جرسا صغيرا عندما تحتاج إلينا، واستعادتنا لنمط الحياة القديم كان غريبا في بادئ الأمر، ولكن في الحقيقة كان إيقاعه معتاد بالنسبة لي وبدا طبيعيا وأكثر من هذا؛ فقد منحني أنا و"عمر" مزيدا من الوقت معا، وكان السيد "تايلور" محمل بالأخبار وأحاديث القيل والقال من انجلترا، وغمرت سيدتي السعادة عندما علمت أنه قابل كافة

أفراد أسرتها قبل أن يغادر منذ أقل من شهرين، وسمعتها تقول له

-وصغيرتي رانية ؟، لتخبرني عنها مرة أخرى كيف تبدو؟

وماذا قال لتخبرني كل شيء، وكان السيد "تايلور" في طريقه إلى أعلى النيل وتوقف بجميع المواقع في طريقه، على الرغم من تأخر الموسم بالنسبة للسياحة، وقد مرت شهور منذ قيامي أنا وسيدتي برحلة على ضفاف النيل، وكان المنزل كاملا يعمل على الوباء الذي انتشر بالقرية مما أنهكنا، ولكن لم يحضر أحد إلى المنزل ليتلقى العلاج منذ فترة، ولم يمت أحد في القرية منذ فترة أطول منها، ولذا عندما أخبر السيد "تايلور" سيدتي عن خطط سفره ل"إدفو"، سألته إذا كان من الممكن أن ننضم له وكان يسافر وحده علي مركبه الكبير مصحوبا بخادم واحد بالإضافة إلى الطاقم، وهذا الخادم قبطي عمل كترزي سابق، ولكن كما قال السيد "تايلور"، فقد ظهر أنه بلا فائدة، ولا يجيد شيء حتى الحياكه وقال "عمتي لوسي سأكون ممتنا لصحبتك"، فأجابت قائلة "جيدا!".

وكان هناك ارتباك بالقرية حول وصول السيد "تايلور" حيث انتشرت الإشاعات بسرعة في جو النيل الدافئ، وكان "مصطفي أغا" مقتنع أن ابن عم سيدتي هو زوجها الذي تفتقده منذ فترة وقد وصل أخيرا ليستعيد زوجته، واستمتعت سيدتي بهذا حيث أن السيد "تايلور" لا يزيد عمره كثيرا عن الخامسة والعشرين، وتلاشت هذه الشائعة سريعا، وفي ظهر أحد الأيام أتى "مصطفي أغا" والشيخ "يوسف" إلى "المنزل الفرنسي" وكان السيد "تايلور" قد انطلق ليستكشف "وادي الملوك" وقررت سيدتي عدم مرافقته، ولابد أن الرجلان قد شاهداه وهو يرحل، ورأيت أن لديهم شيء ملح يريدون أخبار سيدتي به، وأدخلتهم إلى الصالون، وقال الشيخ "يوسف" وهو

ينحني:

-سيدة "داف جوردن".

ثم احمر خجلا، وبدا أنه لا يستطيع التكلم؛ فتقدم "مصطفي أغا"، ونظف حنجرته وقال: سيدتي لتسامحيني!

فقالت السيدة:

-ماذا هناك يا "مصطفي"؟

فقال:

-أن تشرعي بالإبحار مع رجل ليس زوجك...

وبدا على نبرة صوته الجدية والاعتذار:

-دون صحبة...

فقالت سيدتي:

-فهمت الآن، ولكنه ابن عمي يا "مصطفي"، وهو شاب ذو مكانة وأخلاق رفيعة وأضمن لك....

فتدخل "عمر" هنا وقال:

-إذا سمحت سيدتي لي.

فرفعت عينيها وأومأت؛ فاستدار للشيخ "يوسف" و"مصطفي أغا" ودار بينهم نقاش طويل حول لياقة الوضع وسلوكيات وعادات الانجليز، وذهب بهم إلى أبعد من هذا حيث أصطحب الرجلان في جولة على القارب بالنهر وأراهم أن غرفته تقع بين غرفة سيدتي وغرفة السيد "تايلور" -وبجوار غرفتي- وأكد لهم أن سيدتي لن تتعرض للأذى ولن تواجه أي إحراج، وانصرفوا وهم هادئون، وعندما عاد إلى المنزل، أخبر سيدتي أن كل شيء على ما يرام، فقالت:

-شكرا لك يا "عمر" فقد أنقذت سمعتي.

فرد قائلا:

-لقد كانوا مهتمين بشدة، وكانوا حريصين جدا على رؤية القارب، وبمجرد خروج كلمة رحيل وشيك من سيدتي، كان

هناك جلبة كبيرة بالقرية حول هذا الأمر، وأكدت أنا وسيدتي للجميع أننا سنعود سريعا إلى الأقصر، وأحضرت النساء اللاتي أنقذن حيات أبنائهم هدايا من الخبز والبيض إلى "دهبية" من أجل رحلتنا، وكانت مغادرتنا مليئة بمشاعر مفرطة ومهيبة، وعندما تحرك القارب من جانب النهر، أطلق القرويون أعيرتهم النارية – بنادق صيد وبنادق عادية– في الهواء ورد عليهم "عمر" باستخدام مسدس السيد "أليك" القديم الذي جلبته سيدتي من انجلترا ونسيته، وصرخت أنا وسيدتي، وانحنينا وقمنا بتغطية أذاننا، وقالت سيدتي للسيد "مصطفي أغا" الذي كان يمتطي جواده وسط الحشود:

–سنعود في غضون أسبوعين.

ورد "مصطفي أغا" قائلا:

–سيكون من الصعب أن نستمر بدونك.

وكنت سعيدة بفكرة التغير والابتعاد عن الأقصر لفترة قصيرة، وانغمست بحياة الترحال عبر صفحة نهر النيل بعد أن نسيت شعور الابتعاد عن اليابسة والمنزل ومسئولياته والقرية وانخراطنا المتزايد في حياة القرية، وارتفعت الحرارة منذ لحظة إبحارنا، وفي اليوم التالي، قرأ مقياس الحرارة على "دهبية" ١١٠ درجة، وقلبت الحرارة اليوم رأسا على عقب؛ حيث نام السيد "تايلور" ومعظم طاقم السفينة أثناء النهار، ودبت الحياة بالقارب أثناء الليل حيث تهبط درجات الحرارة بما يسمح بمحاولات قليلة لإجراء محادثات، وطهى "عمر" الوجبات، وقرأت سيدتي الرسائل التي كتبتها للسير "أليك" بصوت عالي، وسبحت بين الوجبات، وكان الصمت المصاحب للقمر مع الوهج الأبيض المتلألئ على صفحة النيل المتدفق كسائل يتدفق من إناء، وصمت القوارب النوبية التي تهبط دون موج

فظيع ورائع.

وفي "قوسنا" دخلنا إلى المعبد من خلال رواق خشبي تم حفره بصورة جزئية، وهو مجموعة ضيقة من الدرجات الطينية تقود للأسفل في الظلام، وبمجرد اعتياد عينيَّ على الظلام، استطعت تمييز صف من العواميد على كلا الجانبين تم حفره وتلوينه، وكان الظلام حالكا بحيث لم أستطع تميز التفاصيل أو الألوان، وجلس "عمر" مع سيدتي بأسفل درجات السلم، كان المعبد معبأ برائحة الرطوبة والكآبة، ولكنه بارد بصورة رائعة، وتقدمت بطول الرواق المنحوت، وكان هناك ثلاثة صفوف من العواميد الكبيرة كالمنازل على حد تصوري، وهبط سقف الرواق للأسفل أعلى الرأس كما لو أنه يهدد بالانهيار على رؤوسنا، وبالطرف البعيد كان هناك الدبش والقذارة متكدسة ومرتفعة بحيث تغلق طريق المعبد نفسه، واستدرت نحو الضوء المتجه للمدخل، وقلت:

-أهلا!

وبدت كلماتي محددة ومكتومة بالحجارة الكبيرة المحيطة بنا، وسمعت صوت سيدتي ترد قائلة:

-أهلا!

فسلكت طريقي تجاههم وأنا أشعر بالراحة لتوجهي ناحية الضوء والمرح حيث قمت بالمغامرة داخل الماضي الذي ما زال مدفونا بمفرده، وسألت سيدتي:

-هل تعتقدين أن هذا ما يوجد أٍسفل منزلنا بالأقصر؟

فقالت:

-لا أعرف يا "سالي"، ولكن عندما يسقط المنزل سنعرف.

وبعد اصطحاب سيدتي والسيد "تايلر" إلى القارب، قمت أنا و"عمر" بالذهاب للقرية لشراء الإمدادات من السكر والتبغ

والفحم لرحلتنا، ولكننا اكتشفنا أن بهذا المكان بالجنوب البعيد لا تكون البضائع متاحة للمسافرين في الصيف، وفي الحقيقة لم نقابل مسافرين أجانب آخرين أثناء رحلتنا في هذا المكان البعيد، وعاملنا القرويون كالطيور المهاجرة التي عادت لمكانها أثناء فصل الخاطئ، وكانوا ينظرون إليَّ بعيون مفتوحة بينما يفتحون أفواههم من الدهشة عندما يسمعون حديثي بالعربية، وأثناء عودتنا إلى "دهبية" نزلنا أسفل بياضات زرقاء طويلة تم صبغها وتعليقها لتجف في صفوف أعلى الشارع، وكان الوقت لا يزال العاشرة صباحا، ولكن بدا كما لو أن درجة الحرارة تزداد مع كل خطوة لنا.

قمنا من "قوسنا" بالإبحار إلى "إدفو" حيث شغل سقف المعبد العظيم بالعديد من الأكواخ الطينية والناس الذين يعيشون بها، وداومت على التجول بعيني حتى المساء حين وافق "عمر" فقط على مرافقتي من باب العطف على دون أي دوافع أخرى، وحاولت إقناعه أن يتركني أذهب بمفردي، ولكنه لم يستمع لشيء مما قلته، وتجولت بالمعبد في الشفق بينما جلس هو على أحد العواميد المكسورة يهوى على نفسه، واستطعت أن أشعر بالخفافيش وهي تخرج، وسمعت "عمر" يلهث من الحرارة، وأشعرني هذان الصوتان معا بالطمأنينة، وفي "أسوان" كان هناك تجار من "دارفور" يعبرون بالاتجاه المعاكس يجلبون معهم جلود الحيوانات والعبيد من "أثيوبيا" ليقوموا ببيعهم أسفل النهر، ومعهم طعام من "النوبا" الأفريقية، حيث تستطيع رؤية باقي مصر من هناك، واستطاع "عمر" أن يقوم بالتجارة معهم من أجل الإمدادات، ومررنا على مجموعة نساء من العبيد يجلسون أسفل نخلة ويطهون كيك الذرة على نار هادئة، وقال "عمر":

-إذا أردنا، نستطيع شراء إحدى هؤلاء الفتيات في مقابل منديلين أو رغيف خبز.

فقمت بهز رأسي، وشعرت أنه كان يحاول إغاظتي وقال:

-لن تحتاجي حينها للعمل مطلقا.

فقلت:

-هل تقول أنني لم أعد أعمل بصورة كافية؟

فقال:

-لا!

وضحك، وحينما ضحك لم أستطع منع نفسي من الضحك أنا أيضا، وانزلقت على الممر الحجري، وأخذ بيدي متظاهرا أنه يساعدني، ولكنه كان حريصا على تركها قبل أن نصبح في مواجهة "دهبية" .

وفي اليوم التالي، قام "عمر" بترتيب تأجير الحمير لينقلونا المسافة المتبقية أعلى النهر إلى "معابد الفيلة"، وتركنا أسوان في المساء، ووصلنا إلى المراكبي عند الفجر ووافق على أن يراعي الحمير، بينما بقينا على الجزيرة طوال الليل، وقمنا بنصب مخيم في المعبد نفسه، وأمضينا السنة السابقة على هذا النحو نفسه، ولكننا لم نقضِ سوى عدة ساعات قليلة فقط، وقالت سيدتي شارحة لي:

-هنا حيث وجدت "إيزيس" قلب زوجها "أوزوريس" إله العالم السفلي؛ حيث قتل "أوزوريس" على يد أخيه "سيث" الذي فرق أشلاء أخيه بجميع أنحاء مصر، وجابت "إيزيس" البلد لتجد أعضاءه وتجمعها معا، وكان مسكن قلبه هو مكان خاص جدا، ويعد معبد "جزيرة فيلا" من أهدأ الأماكن في مصر كلها.

وقررت أنا وسيدتي أن يكون موضع نومنا في غرفة

"أوزوريس"؛ حيث كانت مظلمة مما يشعرك أنها لا بد أن تكون باردة وبالطبع لم تكن كذلك، وأخذ السيد "تايلور" والترزي القبطي المصاحب له مكان نومهما أسفل البوابات الضخمة عند مدخل المعبد، وخلال النهار لم أعتد أنا وسيدتي فعل شيء سوى أخذ قيلولة في الظل والتناوب على السباحة في النهر في مظلة تشبه الخيمة أعدها "عمر" والطاقم للحفاظ على خصوصيتنا، وقضى السيد "تايلور" معظم اليوم في الماء أو بالقرب منها، ومرت عليه سيدتي في الظهيرة ووجهه ملفح بوشاح وقبعة مربوطة بصورة مريحة بينما باقي جسده حرا، وفي المساء تظهر النجوم وتصدر أحجار البازلت العديدة الموجودة في الشلال صوتا يشبه الهمس كما لو أنها تستدعي أحدا في هذا النسيم البارد، ولكن الجو في حجرة "أوزوريس" لا يزال ساخنا كالفرن؛ فنهضت أنا وسيدتي في المساء وذهبنا لننم بالخارج بين عواميد المعبد، والمشهد هناك كالحلم حيث تلقى النجوم بضوء بارد رطب والنخيل الطويل على الجانب البعيد من النهر يتموج بعظمة.

وقالت سيدتي وصوتها يتلاشى:
-هل رأيت مثل هذا من قبل؟!
فقلت :
-لا، ولم أتخيل حتى أن أجد نفسي في مثل هذا المكان.
وبعد فترة نامت سيدتي، ولكني جلست ووضعت يديَّ حول ركبتي، وأتى "عمر" من المكان الذي أتخذه لنفسه لينم فيه خارج غرفة "أوزوريس" ليقوم بحراستنا (على الرغم من عدم تحركه عندما تعثرنا به أثناء خروجنا)، وشاهدنا معنا طلوع الفجر؛ حيث يتزايد اللون القرمزي في السماء، وجلسنا بجوار بعضنا البعض بدون تلامس أو حديث، ولكن الأمر بدأ كما

لو أننا جالسين في أحضان بعضنا البعض طوال الليل.
وفي الصباح استحمت سيدتي بالحمام الغريب الذي صنعه "عمر"، ثم سارت لتتفحص صف الأعمدة، وجلست على صخرة تطل على النهر بالشلال الأول وتخطتها إلى النوبة البعيدة، وعندما ذهبت لأحضرها لتناول الإفطار قالت:
-سنذهب أعلى النهر مرة أخرى يا "سالي" في وقت لاحق.

وعلى الرغم من جمال الليلة، لكني شعرت أن رأسي مشوشة، وبدأت أشعر أنني لست على ما يرام، ثم ذهبنا إلى المعبد حيث كان "عمر" يحضر طعام الإفطار، وشعرت فجأة بدوار شديد ولم أستطع منع نفسي من الصياح؛ فاندفع "عمر" تجاهي ثم تلاشى كل شيء من أمام عينيَّ، واستيقظت مرة أخرى بعد عدة دقائق وكنت ممدة في الظل على حصائر ووسائد والترزي القبطي يقف بجواري ويهوي على بقوة، وكان "عمر" آتيا ومعه كوب من الماء، وجلست سيدتي بجواري وحاولت أن أجلس حيث شعرت بالإحراج من كوني محط كل هذا الاهتمام، ولكنني اضطررت للإستلقاء مرة أخرى، وقالت سيدتي:
-إنها الحرارة والتعب من عدم النوم جيدا والخيار الذي تناولناه على العشاء أمس فلا تقلق يا "عمر" .
فقال "عمر":
-ولكنها لم تتعب من قبل.
واستطعت أن أشعر بالقلق في صوته، فقالت سيدتي وهي تضحك:
-إنك محق؛ فأنا دائما من تمرض، ولكننا أنا وأنت سنقوم بتمريض "سالي" جيدا بعد كل ما قامت به معي.
فقلت:
-توقفوا عن الكلام، كما لو كنت غير موجودة، فأنا ما زلت

هنا

وجعلني المرض سيئة المزاج، وأجبرت نفسي على النهوض، وكانت رأسي تؤلمني، وقلت للقبطي:

- توقف عن فعل هذا!

لكنه استمر في تهويته الجنونية، فقلت:

- توقف، واذهب بعيدا حالا.

واستلقيت مرة أخرى وقدميَّ حافيتين، فتساءلت عما حدث لحذائي، وكانت يداي في آنية بها ماء أحضرها "عمر"، ولكنني جلست مرة أخرى ووضعت رأسي بين قدميَّ وتضايقت أنا وسيدتي من اهتمامه، لقد كنت خارج اهتمام العالم وأنا نفسي استطعت رؤية ضجرها لكونها ليست هي محط الاهتمام، وتضايقت أكثر من نفسها لإحساسها بمثل هذا الشعور، وبالطبع كان يجب أن أخشى من معرفتها حقيقة وضعي، ولكنني لم أكن كذلك حيث اعتدت الاعتماد على ثقتها بي، ولكنني الآن أدركت أنني أحتاج أن أكون أكثر حرصا.

وبالمساء عبرنا مرة أخرى إلى حيث تنتظرنا حميرنا، ثم ذهبنا إلى "أسوان" وكنا جميعا سعداء لرجوعنا إلى "دهبية"، ورتبنا عودتنا إلى "الأقصر" بحيث تكون سريعة، وبعد "أسوان" ربطنا السفينة حتى تستطع سيدتي أن تأخذ حماما بالنهر في الصباح الباكر، وجعل عمر "الريس" ينشر الخيمة التي قاموا بصنعها، وغمرت سيدتي نفسها بالماء وتنهدت لشعورها بالراحة وقالت بصوت عالٍ:

-يجب أن تأتي وتكونين معي يا سالي.

ولكني لم أستطع أن أجد قوة لفعل هذا على الرغم من معرفتي أن المياه ستساعد في تبريد جسدي، وكنت مستلقية على أريكة على ظهر المركب في الظل فهذا أمر مريح، وسبحت سيدتي وانشغل "عمر" على نحو غير مجد ونعست وذهب الطاقم

لعملهم، ثم أمسك "عمر" الترزي القبطي وهو يقف على أطراف أصابعه ويختلس النظر إلي سيدتي من خلال فتحة في المظلة، فصاح "عمر" صيحة قوية قائلا:

-يا ابن الكلب!

ونادي على "الريس" والطاقم ليأتوا وسألهم :

-هل يجب أن أنحر عنقه؟

لقد اختلس النظر إلي سيدتي النبيلة بعينيه الكبيرتين.

وصاح قائلا:

-سأنحر عنقك ثم أغرقك.

وأمسك البحارون بالترزي وكانوا يخنقونه بالفعل، عندما قامت سيدتي التي ما زالت بالمياه ترفع صوتها معترضة قائلة لعمر:

-جريمة تافهة يا عمر!

فصاح "عمر" معترضا، ولكنها رفعت صوتها مرة أخر قائلة:

-في ضوء الظروف، هذا الشيء غير مهم.

وفي الحقيقة، استطعت معرفة أنها تحاول جاهدة ألا تضحك حين كنت أسمعها؛ وعندما سألتها لاحقا عن السبب قالت:

-إن هذا الترزي وقح للغاية حيث أعتقد أنه يستطيع التلصص علي بهذه الطريقة.

ولكن في هذا الوقت سمحت للطاقم أن يحملوا الترزي ويترك بعيدا وساعد "عمر" سيدتي للخروج من المياه حيث تم استعادة كرامته وكرامتها أيضا، وصحبت سيدتي لغرفتها ولم نتحدث في شيء حيث كان يتم ضرب القبطي.

أصبحت رحلتنا إلى المنزل بعد هذا سريعة حيث نتوقف فقط للحصول على الإمدادات، وأضر "عمر" إلى دفع رشوة في "إدفو" ليشتري بعض الفحم، فلم يكن لدينا أي وسيلة لتحضير الشاي أو الطهي لعدة أيام، وعندما عدنا إلى

"الأقصر" حيينا كالأبطال العائدون، وأتى "مصطفي أغا" حاملا معه كومة من الخطابات لسيدتي من انجلترا واثنين من أختي "إلين"، وكان الشيخ "يوسف" مسرورا برؤية تلميذته المجتهدة مرة أخرى، وقام "محمد" بتحضير أرغفة طازجة من الخبز من قمح الموسم الجديد، ووضع الجنيني الزهور بكافة أرجاء المنزل، و"أحمد" الصغير تم شفاؤه تماما من العدوى، وأصبح طفل القرية هذا يتيم لفقده والديه، فاندفع إلينا وأخذ يمسك بأيدينا ليغطيها بقبلات رقيقة سريعة، وقالت سيدتي عندما وصلنا للباب الأمامي:

-المنزل الفرنسي هذا هو منزلنا الآن ويا لبهجة العودة للمنزل!

وفي شهر مايو قررت سيدتي أن تبقَ بالصعيد لقضاء الصيف، وكان هذا الأمر له بعد اقتصادي، وأخبرها "مصطفي أغا" أنها ستكون أول أجنبية في ذاكرة الأحياء تبقى في الأقصر خلال أكثر الفترات التي ترتفع فيها درجات الحرارة بشدة خلال السنة، وحتى بين أكثر علماء الآثار المصرية المخلصين؛ فنحن مغامرون ونرغب في البقاء، وأخبرتني سيدتي وهي تضحك:

-فبعد كل شيء نحن رواد في هذا الأمر على طريقتنا، وسنبقى هنا لنتحمص من الحرارة... يخطط السيد "أليك" للقيام بزيارة لمصر في شهر نوفمبر، وسأكتب له الآن ليأتي في موعد أقرب من ذلك بحيث يمكننا الذهاب إلى القاهرة خلال الخريف.

وكنت سعيدة بفكرة بقائنا في الصعيد حيث لم تضعف صحة سيدتي منذ أكثر من شهرين، وبالفعل، بدا أن الشمس تساعدها على الشفاء، كما أن البقاء في الأقصر يناسبني، وغادر السيد "تايلور" وعدنا إلى أساليبنا السهلة البسيطة، وقضيت أيامي بجوار سيدتي وليالٍ مع "عمر".

وهكذا وبدأت الحرارة تزداد في شهر مايو مع كل دقيقة،

وبحلول شهر يونيو بدأت أيامنا تتخطى سلوكنا الرفيع والفخامة التي اعتدنا عليها؛ حيث بدأت أنا و"عمر" في استكمال الواجبات المنزلية الضرورية بوقت مبكر في الصباح؛ حتى تصبح حركتنا في المنزل أقل ما يكون خلال اليوم، وكانت سيدتي تقوم بأقل قدر من الأمور في الصباح والظهيرة والمساء، والمغامرة بالخروج في الشمس تتطلب ترتيبات، وسرعان ما تخلت عن الخروج تماما، وفي هذا الوقت لم أعد أهتم أنا أو سيدتي بلون بشرتنا، وفي ظهر أحد الأيام استدارت سيدتي لي وقالت:

-إنك تبدين كما لو أنك تم غمسك في عصير الجوز يا عزيزتي مثل العرب الأصلين.

فضحكت ونظرت إلى يدي، وأخذت أفكر، نعم إنها تبدو كما لو أنني ملونة بالحناء تماما، وارتفاع الحرارة قلل شهيتنا للطعام، ولكن "عمر" استمر في الحفاظ على وجود أطعمه شهية باستمرار من مطبخه؛ حيث جعل جزء من واجباته عدم خسارتنا أنا أو سيدتي شيئا من وزننا على الرغم من فقداننا للشهية، وقمنا بغلق النوافذ أمام الحرارة قبل ارتفاع الشمس في السماء، وفي المساء كنا نفتحها ونخرج، ونامت سيدتي في الشرفة الأمامية ب"المنزل الفرنسي" التي تطل على نهر النيل، ونمت أنا و"عمر" بالشرفة الخلفية.

وكنا نبقى داخل المنزل في الظلام خلال النهار ونخرج في المساء في الظلام حتى أننا بدأنا نشعر أننا كائنات ظلام ونرتعد من ضوء الشمس الشديد، ولا نستطيع إضاءة الشموع حيث تجتذب أعدادا كبيرة من حشرات صغيرة، وحتى أن لهيبا صغيرا يصبح مثل الجحيم وقالت سيدتي لي:

-إن خسارتي الوحيدة الآن هي عدم وجود ضوء كافٍ أستطيع القراءة فيه.

هذه الظروف في حد ذاتها لم تكن رهيبة؛ فقد كان هناك رعب شديد من الحرارة التي تحيط بنا"، وتخلينا عن فكرة أن تفعل الأقصر شيئا لتهدئة الوضع، ولكن بدأت الرياح تستمر طوال اليوم وفي بعض الأوقات أسابيعا، وكانت الريح -ريح السموم- سريعة جدا في الصحراء كما لو أنه قد تم إيداع حزمة كبيرة من هذه الرياح في القرية، وأدركت الآن كيف دفنت العديد من المعابد والآثار؛ فإذا كنت بالخارج في إحدى هذه العواصف، لكنت غطيت بالكامل مثل هذه الآثار، وأصبح الأمر مهيئا ليتم التنقيب عني في أحد التواريخ المستقبلية، ولم تأتِ ريح السموم بأي شيء يماثل النسيم البارد، وإنما التراب والرمال التي يتم تنقيتها بواسطة النوافذ وتحت الأبواب والمزيد من الحرارة، وفي بعض الأيام كان كل شيء نأكله أو نشربه مليئ بالرمال حتى أنني نسيت الإحساس بعدم وجود حصى بفمي وبين أسناني وأسفل لساني طوال الوقت.

وتعتبر فترة الظهيرة هي الأصعب؛ حيث ترتفع درجة الحرارة وتستقر، ويهدد شيء ما بأن يغلف الشعور بالملل يومنا كاملا، وكنت أنا وسيدتي نتحرك ببطء إلى المطبخ حيث يقوم "عمر" بإداء واجباته، وطوال الوقت يسألنا حول الكلمات ويصحح طريقة نطقنا، وتحاول سيدتي نطق الكلمة لي مستخدمة عصا "عمر" الخشبية لتكتب لي شكل الأحرف في دقيق القمح الذي أوقعه على الأرض، ويقول بنبرة المعلم الخاصة به:

-كرروا ورائي.

لو كان أي منا لديه القوة، لكنا ضايقناه، ولكن بدلا من ذلك كنا نكرر كل كلمة كما يجب، وكانت سيدتي على الأريكة، وأنا بجوار الحائط البعيد أو مستلقية أسفل طاولة العمل على الأرض، وأحيانا كان يسأل سؤالا وهو معطينا ظهره، ولكن

عندما يستدير متوقعا إجابة يجدنا نائمتين، وحاولت سيدتي كتابة خطاباتها للوطن عندما تجد ضوء كافٍ، ولكن كتابة الخطاب الذي لا يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين في الظروف العادية كان يستغرق منها أسبوعا كاملا لتكمله.

والآن فقدنا أي حس للتواضع بالمنزل الفرنسي، وكنا نرتدي أقل عدد ممكن من الثياب؛ حيث ترتدي سيدتي قميصا طويلا فضفاضا، وأرتدي أنا أخف سروال وسترة من ثيابي المصرية وقدامي عاريتين وشعري يتم تسريحه وإمساكه بإحكام للخلف، وظل "عمر" وحده يبذل جهدا لتبدو ثيابه لائقة، على الرغم من فعله هذا بدون حزامه وصدريته، وطلبت مني سيدتي أن أقص شعرها القصير ليصبح أقصر حتى أصبح شبيها بشعر الرجال ويتخلله الشعر الأبيض، وكان "محمد" و"أحمد" يأتيان في الصباح الباكر ليقوما بعملهما بأسرع ما يمكن قبل أن ينصرفا مرة أخرى، وانكمشت القمصان والسراويل حيث تدعكهم المرأة وتغسلها بإخلاص، وأصبحت أعتمد على "عمر" في إدارة أمور المنزل أكثر من ذي قبل، فبينما كانت الحرارة شاقة على الجميع، كان "عمر" لديه خبرة الحياة فيها على الأقل، بل في الحقيقة يعرف كيف ينجو منها، فكنت أراقبه بحرص وأقلد تحركاته التي كانت أكثر ترتيبا وقليلة إلى أقصى حد، واعتمدت عليه في مساعدتي على إكمال معظم المهام خاصة بتلك الأيام التي كان الجو بالخارج به دوامات رملية، وتركت أكثر المهام خصوصية خاصة حمام سيدتي الذي كان يخصني وحدي، وبينما كانت تستريح كنت أذهب لغرفتي لأقوم بالحياكة (على الرغم من أنه في معظم الأحيان آخذ غفوة)، وعندما يأتي "عمر" كان يرقد على الأرض عند قدميَّ وينهض فقط ليفرد سجادة الصلاة عندما يسمع الآذان، وكنت أشاهده

يصلي، وأشعر بالنقاء الطمأنينة .

أصيبت الماشية بالطاعون في صعيد مصر ومرت فترة طويلة حتى بدأ يتلاشى، وحينها كانت جميع الماشية بالأقصر قد أصيبت بالفعل ونفقت، وكان على الرجال أن يقوموا بعمل الثيران ويديروا طاحونة المياه ويسحبوا المحراث بالحقل وكل هذا خلال الموسم الحار، وعلى الرغم من إمكانية مساعدتنا للمرضى من البشر، ولكننا لم نستطع المساعدة في مرض الأبقار، وكان "عمر" يخبرنا بالخسارة اليومية: "مصطفي أغا" فقد ثلاثة وثلاثين رأس ماشية ولم يتبقَ له سوى ثلاث رؤوس فقط، وبالمناسبات النادرة التي كنت أغامر فيها وأخرج من المنزل الفرنسي، كنت أرى جماعات من النساء والصبيان وعدد قليل من الرجال الذين لم يأخذهم الباشا للعمل في مخططه الكبير يقومون بسحب الحيوانات النافقة عبر القرية والحقول ليأخذوها لمكان الدفن وكان بينهم شيخ البلد و"مصطفي أغا" وهم يناضلون للتخلص من جثث الحيوانات النافقة، وعندما تغير الرياح اتجاهها تصبح الرائحة لا تطاق.

ارتفع النيل وأخذ في الارتفاع وظل كذلك حتى غمر الوادي في أماكن كثيرة بهدوء وبصورة كبيرة ليصبح كالبحيرة بحيث لا تعطي مناظره الجميلة أي إشارة على الخراب الذي قد يحدثه؛ حيث ارتفع عن المستويات المتوقعة هذا العام، وكل ما استطعنا فعله بما في ذلك أنا وسيدتي هو أن ننتظر ونرى ما سيحدث.

ولكن لم تهب الرياح المحملة بالتراب بصورة مستمرة، ومضت أيام كانت السماء صافية وزرقاء والشمس نقية وقوية حتى شعرت أنني قد أبكي من السعادة على الرغم من الحرارة،

وعندما تهب الرياح من الشمال يبرد الجو بصورة طفيفة، وفي هذه الأيام كنت أخرج أنا و"عمر" لنتسوق في الصباح الباكر كما يفعل كافة أهل "الأقصر"؛ حيث يكون المزاج ما زال صافيا ولم يعكره شيء بالقرية ويحيي الجميع بعضهم البعض ويتبادلون الحديث ويتناقشوا براحة كبيرة، وبسبب مرض البقر ارتفع سعر الحليب واللحوم في الأسواق؛ لذا نقل "عمر" مهاراته بالطهي إلى طهي الخضروات والحبوب المتاحة –والخيار المفروم، والبطيخ، والنعناع، وعصر الليمون الطازج من حديقتنا على كل شيء– وعندما يستطيع أصدقاء سيدتي التحرك من منازلهم يأتون إلى الصالون ويقدم "عمر" الشاي والنرجيلة التي تدخنها سيدتي الآن في الغليون فهو جزء من عاداتها طوال حياتها، وبعد المحادثات وتبادل وجهات النظر التي أصبحت أقل عنفا إلى حد ما عن المناقشات التي تحدث في الوقت البارد من العام، يجلس الشيخ "يوسف" ليعطي سيدتي دروسها باللغة العربية، ولكن حتى الشيخ "يوسف" الذي عادة ما يكون رسميا وشديد التقيد كان يبقِ أقل حد ممكن من الملابس بمجرد دخوله إلى المنزل، ويرقد على السجاد، بينما يعطي الدرس، وكان يغفو في بعض الأحيان.

ونمى جسدي، لم أقصد أنني نميت بكوني أصبحت أكبر، ولكني نميت بداخلي حيث نمى الطفل بداخلي وكان من السهل إخفاء التغيرات الجسدية؛ حيث نحفت بالأشهر القليلة الأولى، وأصبحت أرفع عندما مرضت وبفعل الحرارة وبمجرد أن استدار جسدي وقمت بتعديل ثيابي المصرية التي صنعت للحمل وإخفاء شكل جسدي الحقيقي، وأنا طويلة ولديَّ بنية جسدية قوية واستطعت حمل وزن إضافي بسهولة، وفي أحد الأيام قالت لي سيدتي:

-إنك تبدين بصحة جيدة يا سالي فبشرتك وجسدك يبدو عليهم هذا ومن الواضح أن هذا المناخ ناسبكِ بقدر ما ناسبني. ولكن هذا أقرب شيء؛ حيث لاحظت أنني متغيرة وأنني مختلفة وأنني كنت أتغير.

وشعرت بركلاته في شهر يونيو مثل البومة الصغيرة في رحمي يضربني برفق وبصورة بسيطة، وكان "عمر" يرقد ويضع يده على بطني ويهمس قائلا:

-والدتك جميلة جدا، وهي تحملك كما لو كانت ملكة......

وكنت أترجم قائلة:

-فرعون بل سيدة فرعونية إذا كان هناك ما يشبه هذا... بل إلهة من الآلهة القديمة، ونحن نعلم أنك ستكون رجلا جيدا وقويا عندما تكبر.....

وكان يستمر همسنا حتى وقت متأخر من الليل؛ حيث نجذب بعضنا البعض ونستلقي سويا ونجعل هذا الأمر يبدأ من جديد. وكان كل منا يستمتع بالآخر، وهمست إلى "عمر" قائلة:

-لن نخبرها الآن.

فمرر أصابعه على شعري وأكملت قائلة:

-لا نستطيع إخبارها الآن مع هذه الحرارة وخططها لزيارة السيد "أليك" في الخريف وهي بحالة جيدة جدا، ويجب ألا نضايقها بهذا الشكل.

ولكنه لم يجب عليَّ فأكملت قائلة:

-كلانا يعلم، نعم كلانا يعلم كم تحب الأطفال، انظر كيف قامت برعاية "أحمد"، ثم توقفت وأكملت قائلة:

-عندما ألد الطفل، سيكشف كل شيء وسنحتفل ولن نخبرها بهذا الآن.... لا، لن نخبرها عن شيء الآن.

واستغرق "عمر" في النوم

الفصل التاسع

بحلول منتصف شهر أغسطس، كان لدينا ما يكفينا من الخبز؛ فقد حان الوقت للسفر إلى القاهرة، وكانت الرحلة إلى أسفل نهر النيل شاقة، والحرارة منهكة حتى بالنسبة ل "الريس" قائد القارب "دهبية" وطاقمه. استأجرت سيدتي هذا القارب للرحلة، وكنا بالخارج على سطح القارب دون شيء يرطب للجو، بل زاد النيل من تكثيف حرارة الشمس الحارقة كالمرآة، ومرت الأيام والليالي، ولم نقم بجولة سياحية بل بقينا على سطح القارب تحت المظلة نتناقش حول الجليد والثلوج وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالجو اللطيف، عندما تكون لدينا القدرة على القيام بذلك.

وعلى الرغم من خطابات سيدتي لزوجها لتخبره عن الرحلات التي خططت لها، لم يكن السيد "أليك" في انتظارنا عندما وصلنا إلى القاهرة في نهاية شهر سبتمبر، وقالت عندما

كنا ننزل ببولاق:
-إنه ليس هناك، أليس كذلك يا "سالي" ؟
ولم نجد أحدا هناك لمقابلتنا، فأجبت قائلة :
-لعل الرسائل لم تصله في الوقت المناسب ليغير خططه يا سيدتي
فنظرت إليَّ بهدؤ قائلة:
-ربما يا "سالي"، ربما
ولكني استطعت رؤية ما كانت تفكر به:
-لقد ابتعدت عنه منذ فتره طويلة، والآن أنا بالنسبة له كما لو أنني ميتة.
وابتلعت ريقها بصعوبة وتراجعت للخلف، وعبس وجهها، ولم تظهر أي علامة أخرى لتدل على خيبة الأمل الهائلة التي شعرت بها.
وفي الواقع، كان هناك خبر وفاة صديق سيدتي السير" وليام ثاير" القنصل الأمريكي الذي عاملنا بصورة جيدة جدا عند وصلنا إلى الأسكندرية وهو الذي أتى ب"عمر" لنا، وكانت هذه الأخبار حزينة بالنسبة للسيدة، وسريعا ما وجد "عمر" منزلا لنقم باستئجاره -قد خططنا للبقاء مع السيد "ثاير"- وبعد الصمت والسلام الذي وجدناه في الأقصر، وجدت أنا والسيدة أن العيش بالقاهرة صعب وهذا تغير غير مرحب به، وعلى الرغم من كون المنزل باردا وصغيرا، والفناء الداخلي تنمو به أشجار البرتقال بالكامل وله إمداد مياه خاص به، ويوجد في منتصف الحي الإفرنجي؛ فعندما كنت أغامر أنا والسيدة بالخروج، كانت الأصوات الفرنسية والإيطالية والانجليزية تتسارع إلى أذاننا؛ فوجدت سيدتي تنفر من ذلك، وقالت:
-أشعر أنني لم أسافر حتى الآن من أوروبا.

وقالت:
-إن التذكير بهذا يعكر اهتمامي بالإسلام.
وقد نسينا كيف تكون الحياة في مدينة صاخبة دائمة الحركة.

وبينما بدأت أتأقلم وأستمتع بالصخب والإثارة التي تعم القاهرة والبازارات الكبيرة والمساجد والشوارع المزدحمة، عادت سيدتي لأريكتها حيث تدهورت حالتها النفسية كما حدث عند وصولنا الأول للأسكندرية.

ظننا أننا قد وصلنا لمكان قبيح، وفي اليوم التالي لانتقالنا، كان أول ما حدث هو طرق "عمر" لباب غرفتي، وكانت الخصوصية على ظهر "دهبية" أقل مما كانت عليه في "البيت الفرنسي"، ولكن تم تسوية هذا الأمر؛ فنحن في غرفنا التي تم اختيارها بعناية، وكنت أعلم أننا سنجتمع قريبا في الليل مرة أخرى، وأثناء ارتدائي لثيابي دعوته للدخول وقلت ضاحكة:
-لا تحتاج لطرق الباب.
لكنني توقفت عندما رأيت وجهه وتساءلت:
-ماذا هناك؟
فأجاب قائلا:
-ليس هناك شيء يا "سالي"، ولكنى سأذهب اليوم لزيارة عائلتي، وقد تحدثت إلى السيدة "داف جوردون" التي أعطتني الإذن:
-لك ما تريد.
فأومأ برأسه وقال:
-سأذهب بعد وجبة الإفطار، وسأعود في وقت مناسب لطهي طعام العشاء، أعلم أن هناك الكثير من الأشياء يجب عملها في المنزل، ولكنها يمكن أن تنتظر حتى الغد وقد أعددت الغداء،

كل ما عليك القيام به هو تقديمه.
ورفعت يدي لمنعه من التحدث؛ فقد كنا في القاهرة، مدينة أسرته؛ حيث والديه وزوجته وطفلته، كنت أجيد إلى حد ما عدم مواجهة الحقيقة وأنكرها، حتى عندما تكون واضحة أمامي؛ فقد كنا في القاهرة، و"عمر" كان على وشك أن يرى زوجته وطفلته وسيتركني خلفه مع سيدتي، هذا أمر جيد، وقلت بصوت خافت:

-آمل أن تسير الأمور بشكل جيد.

بينما كان "عمر" في طريقه.

كان يوم طويل وكئيب بالنسبة لى، حيث بدأ رأسي يؤلمني، وعدت أشعر بالدوار والمرض اللذين لم أشعر بهما منذ عدة أشهر، وأخذت عبارة "زوجة عمر" تكرر نفسها مرارا وتكرارا في رأسي، وفي لحظة طويلة ومرعبة فتحت الهاوية أمامي: فهي "زوجة عمر" وأنا غير متزوجة وعانس، أنا خادمة السيدة، وضعت نفسي في موقف خطير؛ حيث لا يمكن أن أكون أكثر عرضة للخطر و"عمر" متزوج بالفعل؛ فهو متزوج من امرأة أخرى ولديه طفلة ربما يجب أن أخبرها الآن، ربما يجب أن أخبر السيدة "داف جوردون" أنني أحمل طفل "عمر أبو حلاوة"، سأقول لها اليوم وهدأت نفسي وهمست لها مرارا وتكرارا:

-أنا أحبه؛ أنا أحبه و"عمر" يحبني، "عمر" يحبني، وسيدتي ستحميني.

كنت في غرفة سيدتي أساعدها لارتداء ملابسها لتناول العشاء، وقد اتفقنا على أن القاهرة تتطلب شكلا رسميا أكثر قليلا من الأقصر على الرغم من أن سيدتي ما زالت ترفض ارتداء ملابسها الانجليزية، وأريد اختيار كلماتي بعناية؛ فسأبدأ

بتذكيرها بالفترة التي قضيناها معا وبلباقة مطلقة سأذكرها بولائي المطلق، ثم أخبرها بأخباري الرائعة، ومن المؤكد أنها ستكون مسرورة بذلك، ولكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء، عاد "عمر" وسمعناه يتحرك بالمنزل، فقالت سيدتي:

-هذا رجلنا، عاد للمنزل من عند أسرته... أتعلمين، لقد اعتدت على وجودنا نحن الثلاثة معا؛ فقد افتقدت وجوده اليوم.

وضحكت، وما استطعت إلا أن أقول:

-وأنا أيضا يا سيدتي.

وتجنبت "عمر" لبقية اليوم، وكان هذا أسهل بكثير في بيتنا بالقاهرة أكثر مما كان عليه في الأقصر، واعتذرت عن حضور العشاء بقول أن الطعام لا يلائمنى، وحاولت شغل نفسي في مكان آخر، ولكنني جذبت لدخول الغرفة التي كانا يجلسان لتناول الطعام فيها، ولم استطع الابتعاد، وسمعت سيدتي تقول ل"عمر":

-يا لجمال صوت أطفالك!

وشعرت في صوتها بالأسى على حال أسرتها. وعندما دخل "عمر" غرفتي تلك الليلة، انطويت على نفسي وتظاهرت بالنوم، ولكن عندما شعرت به يستلقي بجواري في هدوء شديد وكان رائحته جميلة، التفت نحوه مرة أخرى وسألته قائلة:

-هل سارت الأمور بشكل جيد؟

فتنهد بشدة؛ فالوضع ثقيل عليه هو أيضا، وأجاب قائلا:

-نعم سارت الأمور بشكل جيد .

وقبل أن أتمكن من التحدث مرة أخرى، وضع إصبعه على شفتي، ثم تحرك وبدا في تقبيلي.

كان الطقس -بالفعل- باردا جدا في القاهرة، وهذا الأمر تسبب في الراحة وخيبة الأمل؛ حيث أبرز الصيف وضاعتي،

وفجأة مرضت سيدتي بحمى مع ارتفاع في درجة الحرارة وسعال مصحوب ببلغم، وزاد ألم جنبها بشدة مع كل يوم جديد، قد كانت على ما يرام طوال فصل الربيع، وعاد الصيف، وكان المرض مثل ذكرى سيئة عادت لتطاردنا عالجتها بجميع أنواع الأدوية القديمة بحرص شديد، ومنذ فترة وسعالها مصحوبا بالدم، ونظرت إلى منديلها، وأريت الدم ل"عمر" مما جعل وجهه يشحب وجلبت قارورة من"اللودنوم" -مستحضر أفيوني- من صندوق خشبي وبدأت بإعطاء جرعات منه لسيدتي، بالتناوب مع زيت الخروع الذي قمت بصنعه أنا و"عمر" في وقت سابق من هذا العام خلال انتشار الوباء بالقرية، وكان تأثير صبغة الأفيون فوري، واستطاعت أن تنام بسهولة لفترة من الوقت، وأثناء نومها قمت بكتابة رسالة إلى السيد "داف جوردون"، وأخبرته بتفاصيل قلقلي على وضع سيدتي الصحي وأن المناخ في القاهرة لا يناسبها، ولا يمكننا أن نطيل المكوث هنا؛ حيث يجب علينا أن نعود إلى صعيد مصر سريعا، وكتب السيد "بى دى" إلى السير "داف جوردون" بناء على طلب سيدتي، خلال الفترات التي كانت فيها مريضة ولا تستطيع الكتابة بنفسها، ولكن هذه هي المرة الأولى التي كتب له فيها مع توجيه طلب مباشر باستعجال حضوره؛ حيث كتبت: "يجب أن تأتي لمصر فورا إذا كنت ترغب في رؤيتها."، كنت آمل ألا يتلقى هذه الرسالة حيث يكون قد غادر انجلترا وفي طريقه إلى هنا بالفعل، ولكن انتظارنا له استمر، وكان "عمر" قادرا على إيجاد مزيد من الوقت لزيارة والديه وزوجته وطفلته، وعلى الرغم من ذلك، فقد ذهب في الأيام التي شعر فيها أن السيدة بحالة جيدة إلى حد ما، وكانت هناك أسابيع لم يمكنه الذهاب فيها لزيارتهم على الإطلاق، وحاولت بذل قصارى جهدي لعدم إظهار شعوري بالارتياح لذلك، وقالت سيدتي:

-أود أن أزور والديك، ومقابلة "مبروكة".
ووعد "عمر" لترتيب ذلك، ولكن لم يقم بالإعداد لذلك ،وشعرت بالارتياح لهذا أيضا؛ فسيدتي بحاجة للحفاظ على قوتها لوصول السيد "إليك".

وللمرة الأولى على الإطلاق كان لمرضها فائدة -حتى بالنسبة لي-؛ فمع عدم قدرة سيدتي على القيام بشيء مرة أخرى، كان هناك ما يجب عليَّ أنا و"عمر" القيام به؛ فبالإضافة لإدارة منزل القاهرة، فنحن بحاجة لشراء كثير من الإمدادات لوقت عودتنا إلى الأقصر، وبينما كنت وحدي بالسوق أقوم بشراء اللوز والتمر، ذهب "عمر" لشراء البيض، وكنت أخاطب صاحب المحل؛ حيث كان التمر طازجا ولذيذا جدا، حينما أدركت أن هناك امرأتين تنظران، وقالت الصغرى باللغة الانجليزية:
-انظري إلى هذه.
وكانت ترتدي قلنسوة وثوبا ثقيلا، وكانت تتصبب عرقا بالرغم من أن هذا اليوم بدا لي باردا أكثر من المعتاد، وقالت:
-يا له من ثوب غريب!
وقالت الكبرى:
-إنها تبدو كانجليزية إذا نظرت إلى وجهها، إنها تنظر إلينا.
وانطلقت بعيدا بسرعة، وكان قلبي ينبض بشدة، وتوترت لسماعي لهما، وقد خفضا صوتهما، وأتى "عمر" بجانبي وأراحني من الحقائب الثقيلة التي كنت أحملها، وما زالت المرأتان تنظران إليّ بتردد متسائلتين:
-هل تعتقدين أنها أوروبية وأصبحت من أهل البلد؟... أوه! التفكير في الزواج بواحدة منهن ياله من أمر مثير للاشمئزاز!
وسألني "عمر" قائلا:
-هل انتهيت؟

فأجبته وأنا أجذب طرحتي لأغطى شعري قائلة:
- نعم.
فقال:
-حسنا، سأقوم بشراء بعض الثياب.
فأجبته بالانجليزية بصوت مرتفع:
-سنقوم بهذا في يوم آخر.
ونظرت خلفي إلى المرأتين اللتين كانا يتابعاني بشكل دائم.

ومرت الأيام، وتحسنت حالة السيدة تدريجيا، ولكن لا يزال مزاجها كئيبا، وقالت:
-أشعر بالحنين لمدينة الأقصر، كما أشعر به تجاه بلدي انجلترا، وكنت أتساءل محاولة أن أفهم؛ فالسيدة تبدو عصبية وقلقة حيال زيارة السيد "أليك" القادمة؛ فقد حققت توازنا مذهلا في الأقصر؛ حيث ساعد حبها للقرية والبلد واهتمامها بالأهالي على تحسن صحتها، كذلك أدى الهواء الجاف إلى تخفيف حدة اشتياقها لأسرتها، وأطفالها "موريس" و"رينية"، ووالدتها، وزوجها الحبيب، ولكن هدوءها اختفي، وهى تنتظر زيارة ووصول السير "أليك"، وكنت قلقة من تأثير هذه الزيارة؛ حيث يمكن أن تضر بصحتها؛ فقد كانت متلهفة ومشتاقة لها .

وجاءت أنباء من والدة سيدتي، السيدة "أوستن"، أن فكرة كتاب "رسائل إلى وطني انجلترا" قد قبلها الناشر، وستختار السيدة "أوستن" الرسائل وتحررها، وكل ما هو مطلوب منها هو كتابة مقدمة للكتاب، وسينشر الكتاب في ربيع العام المقبل، وقالت السيدة عقب قراءتها للخطاب:
-دعونا نحتسى نخبا.
ولا أستطيع أن أتذكر آخر مرة قمنا فيها بإحتساء شراب من

الخمر، ثم قالت:
-"عمر"، لتعدّ لنا الشاي.

وكان السيد "هيكيكيان بيه" زائرا دائما لمسكننا بالقاهرة، فيأتي محضرا معه الهدايا ربما تميمة قديمة للسيدة، وجعرانا فرعونيا أزرقا ناعما يعتقد البعض أنها تجلب الحظ كان مسروقا -بلا شك- من مصلحة الآثار، وكان يمنحنا هذه الهدايا وهو يدخل المنزل مرتديا طربوشه الأحمر، وكان مولعا بعصير الليمون الذي يعده "عمر"، وعلى استعداد لشرب إبريق كامل منه وهو يجلس مع السيدة ويتصبب عرقا، ووصاح سائلا سيدتي:

-ماذا تحتاج السيدة "داف جاردون"؟ فيمكنني أن أحضر لك أي شيء ترغبين فيه.

فقالت سيدتي:

-"فيلا"، أليس كذلك؟ يا "سالي"، إننا نحتاج بالفعل لفيل.

فضحك السيد "هيكيكيان بيه"، وأومأت قائلة:

- نعم يا سيدتي؛ فإذا كان لدينا فيل في الأقصر، لتمكننا من إنجاز أمور كثيرة جدا !

فأزال السيد"هيكيكيان بيه" طربوشه، ومسح جبينه، ثم وضع قبعته مرة أخرى وتساءل:

-الأفريقي أم الهندي ؟

فقالت السيدة:

-أفريقي بالطبع.

فقال:

-إنك تستفزينني يا سيدة "داف جاردون"، ولكنني لن أخذلك أبدا.

فأجابت قائلة:

-وأنا أعرف هذا يا "هيكيكيان بيه".

وأخيرا، في منتصف نوفمبر أتى السيد "داف جوردن" كما كان مقررا؛ فهذا هو التاريخ المحدد لزيارته للسيدة؛ فإما أن رسائلنا لم تصل إليه، أو أنه لم يستطيع تغيير جدول مواعيده، وكنا سنذهب إلى ميناء" بولاق" لمقابلته، وللمرة الأولى منذ شهور كثيرة، سمحت لي سيدتي بالاهتمام أكثر ومساعدتها في ارتداء ملابسها؛ فأحضرت ملابسها الانجليزية من شاحنة السفر، وقضيت عدة أيام لأصلحها وأقوم بإعدادها، ولكن في النهاية، قالت لي سيدتي أنها لا يمكنها ارتداء أيٍّ من هذه الملابس، وقررت ارتداء زوج من البناطيل النسائية من الكتان الأبيض تم غسلها وكيها حديثا.

وأخذت فستاني الإسلامي الانجليزي البني القديم من الصندوق لهذه المناسبة وارديته، ولكن... ويا للهول! لم أتمكن من غلق أيٍّ من الأزرار أو الأربطة؛ فشعرت بالذعر، وأخرجت كل ملابسي، وحاولت تنسيق زيٍّ لائق على النمط الأوروبي، وحققت نجاحا جزئيا فقط.
وكان ببيت القاهرة مرآة في بهو المدخل كنت أتجنبها أنا وسيدتي على حد سواء؛ فوقفت سيدتي أمامها وقالت:
-لن يتعرف عليَّ؛ فأنا لم أتعرف على نفسي؛ فأنا لست انجليزية ولا عربية، وإنما أصبحت بين هذا وذاك ولا أجد من هم مثلي، وضحكت سيدتي وحاولت أن أختلف معها، ولكن هذا صحيح جدا؛ فقد كانت رفيعة، وشعرها البني أشيبا، ولا تشبه المرأة التي ودعها زوجها في "مرسيليا" أو في الصورة التي رسمها "هنري فيليبس" منذ أكثر من عشر سنوات، وقالت:
-انظري لنفسك يا "سالي"، لقد أصبحت ممتلئة الجسم؛ فطبخ

"عمر" كان جيدا جدا بالنسبة لك.
وتابعت الضحك وهي تضع قبعتها، بينما شعرت كما لو أنني قد لقيت حتفي، ولم يكن هناك شيء يمكنني فعله أو قوله؛ فممتلئة الجسد كان أفضل من العار، وكان "عمر" متحمسا جدا لمقابلة أبو "موريس"؛ للإشارة إلى السير "أليك" زوج سيدتي ووالد "موريس"، وسيدتي أيضا كانت متحمسة لمقابلته، وقالت:
-لقد أريتك صوره مرات عديدة، وأنا متأكدة من أنك ستعرف وجهه مثلى تماما
وكان السيد "إليك" هناك ينزل من الباخرة، وبدا حبيب سيدتي، كما يبدو دائما، طويل القامة ومستقيم الظهر ويرتدي نظارة وقبعة من النوع المعروف للمسافرين الانجليز في مصر، وقالت سيدتي:
-الشمس حارقه جدا.
فخلع سيدي قبعته من على رأسه ووضعها على رأسها وهو يضحك، وقالت بينما كانت تتأبط ذراعه بجديه:
-سنأخذك إلى البازار يا عزيزي، وسنجعلك ترتدي مثل المصرين ألن نفعل هذا يا "عمر"؟
ولكنني رأيت لحظة توقف سيئة من السيد "أليك"، عندما وجد زوجته في الحشد؛ حيث توقف ونظر إلى مظهرها، ولم يبتسم ومرت لحظة؛ لحظة بطول ضربات القلب، لحظة بطول السنة والأشهر التي قضاها، يتساءل إذا كان سيرى زوجته مرة أخرى، وها هي قد تغيرت تماما، ثم أخذ نفسا عميقا وفتح ذراعيه وسمح لها بإزالة قبعته، وابتسم ابتسامة كبيرة سعيدة دافئة، وشعرت بالأمل يتسرب لنفسي أن كل شيء سيكون بخير بالنسبة لسيدتي، وحتى الآن أفكر في أن الأمر قد لا يكون كذلك.

ومع وصول السيد "أليك" تغير كل شيء في المنزل مرة أخرى، وتغيرت الصلة الوطيدة التي أصبحت بين السيدة والخادمة والخادم، وفقدنا طرقنا للتواصل السهل مع بعضنا البعض، وأصبح أبو "موريس" هو سيد البيت الآن، وستخضع إرادتنا له، وأمضينا أسبوعا سعداء؛ وجعلت سيدتي من نفسها دليلا للسير "أليك"، وأرته المساجد الشهيرة في المدينة والقلعة الكبيرة على التل، وركبنا على ظهور الحمير بالصحراء، وزار أخيرا الأهرامات بالجيزة مما ملأني بالسعادة والفرح، وتخلت عن التحدث بالعربية، وطلبت مني القيام بذلك، وكان "عمر" يبدأ في إعداد الأطباق الشهية ذات المذاق الجيد من الفجر وحتى المغرب كل يوم، وكان سيدي يحرك شفتيه ويأكل كل ما يقدم له، وأشاد بمعرفتنا للغة العربية والإسلام، وتعجب من عجائب المدينة، ولكن بعد انخفاض درجة الحرارة في إحدى ليالي نوفمبر، سمعت سيدتي تقول للسير "أليك" أنه ربما حان وقت السفر إلى الأقصر، وهناك الكثير من الأشياء التي أرادت أن تريه إياها؛ فهناك نهر النيل، والبيت الفرنسي، وأخبرته أنه سيحب الأقصر، وكيف يمكن أن يرحب به شعب الأقصر بطريقتهم الخاصة؛ فقاطعها السير "أليك" قائلا:

-لا تعتقدي أنني سأسافر معك إلى الأقصر يا عزيزتي .

كنت أتحرك بالممر بعيدا عن الغرفة التي كان يتحدث بها السير "أليك" وسيدتي، فتوقفت وسمعته يقول:

-أعدت "جانيت" كل شيء؛ فقد دعينا لزيارة السويس؛ حيث يتم بناء القناة وسترافقنا مجموعة بقيادة "دي ليسبس" نفسه، وسنقوم باصطياد الغزال في الصحراء بعد مشاهدة البناء، وسنغادر في غضون أيام قليلة.

لم أستطع التحرك عند سماعي هذا، ومرت لحظات قليلة قبل أن تتحدث سيدتي وقد بح صوتها وصارت نبرته منخفضة قائلة:

-لست بصحة جيدة بما فيه الكفاية لهذا النوع من الرحلات .
فقال:
-أوه، يا عزيزتي، لم نتوقع منك ألا تأتي معنا.
فتحركت مبتعدة؛ حيث لم أرد سماع أكثر من هذا.

وضع "عمر" الشاي بالنعناع والحلوى على الصينية، فمنعته من مقاطعة سيدتي والسير "أليك"، وبعد مرور عشر دقائق، أخذت الشاي إلى الغرفة بنفسي وكان السير "أليك" واقفا على قدميه ينظر إلى اللوح الخشبية التي تظلل النافذة، وكانت سيدتي تجلس على طاولة كتاباتها وتمسك بمنديل، ولكن بدت كما لو كانت تؤلف، وقالت عندما وضعت الصينية:
-شكرا لك يا "سالي"، سأرن الجرس إذا احتجنا شيئا.

وبعد يومين، وصلت إلى القاهرة عائلة "روس"؛ حيث وصلت السيدة "جانيت" وزوجها "روس"، يرافقه العديد من الموظفين ومعهم أختي "إلين"، وقد تركوا الطفل وراءهم بالأسكندرية مع مربيته، وهذا الأمر بدا كالعار بنظري؛ حيث أن هذا معناه أن السيدة لن ترى أول حفيد لها، وقالت السيدة "جانيت":
-أوه، ماما، بدلا من التحية، 'ماذا فعلت لشعرك؟ !وما هذا الذي ترتدينه ؟!"
وأخذت نفسا عميقا، ونظرت إلى والدها نظرة مفادها:
-انظر إلى هذا، ألم أحذرك ؟

وكنت أنا و"إلين" سعيدتين للغاية لرؤية بعضنا البعض؛ فلم نستطع التوقف عن الابتسام وسرقنا كل لحظة ممكنه بعيدة عن واجباتنا لنجلس ونتحدث مع بعضنا البعض، ولم يسعني

فعل شيء حيال الشعور بعدم الارتياح؛ فقد كانت أختي بجواري باستمرار ولم أشعر بالقلق حيال رؤية السير "أليك"؛ حيث كنت أعرف أنه سيتجاهلني بطريقته المعتادة في تجاهلي، ولكن الأمر بالنسبة لشقيقتي مختلف؛ فهي تريد حقا البقاء بجواري و النظر إليَّ، وكان لدى "إلين" الكثير من الكلام عن الانجليز الذين تعرفت عليهم أسرة "روس" في الأسكندرية، وذهلت من حالة خزانتي المليئة بثياب البلد الأصلية، وكنت أرتدي ثيابا كملابس سيدتي التي علقت عليها السيدة "جانيت".

وقالت "إلين":

-تبدين كما لو أنك تلعبين دورا في مسرحية "الأرض الضائعة".

قالت:

-إن وزنك قد زاد يا سالي.

وضحكت واحمر وجهي خجلا، وقلت:

-أخشى أنني تركت نفسي التي اعتدت عليها خلفي في الأقصر.

واتسعت عينا "إلين"، وخفضت وجهها وقالت:

-على أي حال، فأنت تبدين جيدة بما فيه الكفاية، أما أنا فالطعام العربي جعلني أمرض، فأنت محظوظة، ولكن استمعي إليَّ؛ فأنا سأتزوج.

فصرخت قائلة:

-أنت ماذا؟!

فقالت "إلين" وهي تضحك:

-صه، ابقِ صوتك منخفضا.

فقلت:

-لمن؟

فقالت:

-أوه، أنا لا أعرف حتى الآن، ولكن قد قررت أن أختار من بين بعض الزملاء، عندما نكون في انجلترا مرة أخرى، أو أن أختار أحد الشباب الذين يمررون بالأسكندرية".

فقلت:

-ولكن سيكون عليك ترك وظيفتك مع السيدة" روس".

فقالت:

-أعرف ذلك، ولكن لا يمكنني أن أكون خادمة لسيدتي لبقية حياتي، فأنا لست مثلك يا "سالي"، وقد أخبرت سيدتي بهذا، ولكنها لم تعلق واستمرت بالكلام، وأنا أريد أن يكون لي بيتا، وفي يوم من الأيام سأجد زوجا يكون له وظيفة جيدة - وربما لديه تجارة - أو يكون جنديا، وسنعيش في انجلترا، فهذا ما أريده فقد تعبت من هذه الحياة، فمصر قذرة ومزدحمة ودرجة الحرارة بها مرتفعة وصاخبة، ألا تكرهيها يا "سالي"؟

فقلت:

-لا يا "ألين" إنني لا أكرهها .

فقالت:

-ألا تفتقدين انجلترا؟ ألا تفتقدين رحلاتك إلى لندن لمشاهدة المعالم السياحية؟ ألا تفتقدين الكاكاو الجيد القوى بالقرب من النيران المشتعلة في "كوبا"، بينما تهطل الأمطار بالخارج؟!

قمت بتكرار كلمة الشتاء وأنا مستمتعة بحنين أختي غير المتوقع، وقلت:

-لا، ولا بقدر ضئيل، ويمكنني البقاء في مصر لبقية حياتي.

فقالت:

-إن السيدة "داف جوردون" محظوظة جدا بتواجدك معها وآمل أن تكون مدركة لذلك؛ فلا يوجد الكثير من الانجليزيات على استعداد لدفن أنفسهن في الرمال كما فعلت أنت من أجل سيدتك وصحتها.

فقلت:
-هذا سهل بالنسبة لي.
توقفت عند ذلك، وكان يغمرني شعور بالذنب؛ بسبب ما أخفيته عن شقيقتي، وعبسنا في وجه بعضنا البعض للحظة أخرى، ولكن بعد ذلك لم نستطع منع أنفسنا من الضحك.

وفي اليوم التالي غادرت أسرة "روس" مع السير "أليك" في أزواج وتركت السيدة، وأنا و"عمر" خلفهم في القاهرة، وقررت السيدة أننا سنبقى في انتظار عودة السير"أليك"، ولم تقل لماذا، ولكنني كنت أعرف أنها تأمل أن يغير زوجها رأيه في الأقصر بعد قيامه بالصيد، وأنه سيغرم بمصر ويقرر رؤية المزيد في هذا البلد، وواصلت درجات الحرارة في الانخفاض وتدهورت صحة سيدتي مرة أخرى، وبدت الأيام لا نهاية لها، والوقت لن يكون بهيجا؛ حيث حوصرنا بين افتقادنا للأقصر وأملنا في عودة السير "أليك" مبكرا .

وأرسلت سيدتي "عمر" خارج المنزل خلال فترة الظهيرة ليجلس في المقاهي ويرى أصدقاءه القدامى في القاهرة وبالطبع لقضاء بعض الوقت مع عائلته، وكانت هذه الأوقات صعبه بالنسبة لي؛ فمعنويات سيدتي كانت منخفضة جدا لدرجة أنها تفضل أن تقضي وقتها بمفردها ولا تريد رفقة أحد، وهذا لم يكن مألوفا إن لم يكن غير مسبوق، وبلا شك انطلق "عمر" مع أصدقائه يناقشون السياسة في مقهى مليئ برجال مثله، ويقلقهم سماع ما يقولونه بواسطة الشخص الخطأ، أو مسئول حكومي، أو أحد أفراد قوة شرطة الخديوي، ولكنهم غير قادرين على منع أنفسهم من نقاش آرائهم التي يتمسكون بها.

وبالطبع، زار عائلته، ووجدت نفسي لا أ تستطع التفكير في هذا، وشعرت بالوحدة الشديدة، ودفعت نفسي لأسأله بعض الأسئلة عندما عاد إلى المنزل في المساء نحو: "كيف يبدو والداك يا "عمر" ؟"، "وأخبرني عن والدتك؟"؛ حيث أريده أن يصدق أنني كنت هادئة، ومع ذلك فإن هذا التظاهر لا يظل لفترة طويلة بحيث أستطيع طرح أسئلة حول زوجته وطفله.

قال:

-سآخذك معي لمقابلتهم.

ولكن بعد ذلك أحنى رأسه بالطريقة التي يفعلها عندما يقدم على فعل شيء لا يريد فعلا القيام به، سواء كانت سيدتي ستنضم إلينا أم لا، فقمت بهز رأسي، واضطررت للبقاء مع سيدتي، عندما يذهب "عمر"؛ فلا يمكن أن تترك بمفردها، والحق يقال، فإن فكرة زيارة عائلته كانت مثيرة للقلق، وعندما كان معهم كنت أشعر بموجة متصاعدة من اليأس والتعاسة وإحساس مرعب بنذير شر وكان عليَّ دفع هذا الشعور عني، وعندما جاء إلى غرفتي بعد قضاء يوم بعيدا، كنا محرجين وبطيئين ونشعر بالخجل من بعضنا البعض، ولم أستطع أن أسأله مزيدا من الأسئلة؛ بسبب الخوف مما قد يكشف لي، وتعثر حديثنا وتعثرنا، وحصل صدام بيننا، ولكن بعد ذلك توقفنا عن الكلام وبحثنا عن العزاء في وسيلة أخرى، وكان أي شيء يشعل حماسنا بشكل مكثف، ولكن تلك الليالي، اختلطت رغبتنا بتوترنا وقلقنا.

شعرت أن حياتي مختنقة ومحدودة خلال تلك الأسابيع في القاهرة وبدت فترة أطول مما كانت عليه حقا، وعندما عاد السير "أليك"، تبين أن رحلته لم تكن على ما يرام؛ حيث بدا شاحبا ومنهكا، وكان عليه المشاركة في مسيرة عبر الصحراء مع

الفلاحين المسخرين بدلا من مرافقة شخصيات كبيرة، وقضت سيدتي والسيد "أليك" ساعات طويلة خلف الأبواب المغلقة، وكان صوتهما منخفضا وهما يتحدثان، وكنت أنا و"عمر" في حيرة، وبذلنا جهدا إضافيا لإدارة البيت بسلاسة كوسيلة لتبديد مخاوفنا، وعلمت أن فضول السير "أليك" حول مصر والحياة التي اعتادتها زوجته قد تبددت وتحول إلى نفور ،وادعى أنه لم يحب طهي "عمر"، وقال أنه لم يستمتع بالبازار، واشتكى من استيقاظه بالنداء للصلاة، وقال أن القاهرة منهارة وغير مريحة، وسمعت سيدتي تقول:

– نعم، هي كذلك، ولكن هذا ليس بيت القصيد.

وقضى أسبوعا آخر، ثم أصبح في طريقه للعودة إلى انجلترا، وعند الوداع، لم يقل أحد ما كان واضحا بأذهان الجميع، وهذه الليلة قد تكون آخر مرة يجتمعان فيها كزوجين؛ وعرفنا أنه سيمضى وقتا طويلا قبل أن يقوم السير "أليك" بزيارة مصر مرة أخرى، وبالنسبة لطفليها الصغيرين السيد "موريس" والآنسة "رينية"، فلم يتجرأ أحد على التساؤل عما إذا كانت سيدتي تأمل أن تراهم مرة أخرى، والحقيقة أنها قد لا تكون بصحة جيدة تسمح لها بالسفر إلى انجلترا، ولكنها قالت للسير "أليك" أنها تخطط للعودة في الصيف المقبل، وذهبت إلى حد البدء في التخطيط ولم شمل الأسرة في أحد المنتجعات ربما ألمانيا؟ وقاموا بتوديع بعضهم البعض، وابتعدا عن بعضهما البعض كما لو أنهما سيجتمعان مرة أخرى في غضون أيام قليلة، وليس كما يبدو أنها قد تكون نهاية زواج طويل.

وعقب لقاء السير " أليك" أرادت سيدتي العودة إلى الأقصر على الفور، واستغرق "عمر" بعض الوقت لتأمين قارب، وعندما فعل، كان السعر أعلى بكثير مما يتوقعه أي شخص،

ولم يكن هناك أي خيار في الأمر مع البرد وتدهور حالة سيدتي النفسية؛ لذا نحتاج الذهاب إلى هناك بأسرع ما يمكن، وسمعت سيدتي تقول:

-قوية.

و سافرنا في أسرع وقت ممكن، وقالت السيدة أنها تشعر أن حالتها أفضل قليلا مع كل ميل نقطعه كما لو أنها كانت تحاول الهروب ونسيان كل الآمال التي علقتها على زيارة السيد "أليك"، وتحركنا أكثر فأكثر تجاه الجنوب، بعيدا عن القاهرة.

الجزء الثاني
الموت

الفصل العاشر

جلسنا بجوار نافذة غرفتي المفتوحة في البيت الفرنسي في المساء، لمشاهدة غروب الشمس على صفحة النيل.

كنا في شهر يناير، وقد عدنا إلى الأقصر مرة أخرى منذ بضعة أيام فقط، كانت ليلة باردة؛ لذلك قمت بلفنا معا في شال ثقيل منقوش، وكان موجودا معي مما أعطاني شعورا رائعا عظيما، شعرت بالتعب والصدمة والذهول والسعادة، سعادة رائعة، كل هذا في نفس الوقت، و"طفلي" تلك الكلمة التي حتى الآن تمنحني الشعور على أمر غير متوقع، وتجعلني أتعجب؛ فطفلي بين ذراعي، لا شيء... سأقولها مرة أخرى... لا شيء يعنيني على الإطلاق؛ فطفلي جميل ويشعر بالجوع، ويداه تتحركان، وله عينان بنيتان وشعر أسود، وبشرته فاتحة اللون، وخداه ورديان، ونظيف، أراح كفيه على ثديي عند الرضاعة، قام بمصهما برفق، وكانت غرفتنا تفوح برائحة الحليب الحلو، ورائحة الطفل الغريبة التي لا يمكن وصفها.

وجلب "عمر" صينية الطعام الذي أعدها لنا، وقال أنها ستساعد على بناء مناعتي وسار كل شيء على نحو سلس ونقى ونظيف؛ فلا يوجد شيء حار جدا أو حاد، واتكأ على مقربة مني لتقبيل شعري، وأخذت يده في يدي وابتسم لي؛ فمنذ تلك الليلة التي وضعت فيها طفلي على ضفاف النيل، شعرت بحنيني للأمومة؛ فمنذ أن فقدت والدتي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، لم يكن لديَّ أيَّ فكرة عن الأمومة، ولكن "عمر" تنقل بسرعة في جميع أنحاء الغرفة، كما يفعل دائما، بسرعة ودقة؛ ليطمئن على وضع كل شيء في مكانه، وقال:

-سيأتي من يغسل في الصباح، وسيذهب لإحضار "أحمد" لمساعدته في غسل كومة كبيرة من الغسيل التي تسببت أنا والطفل في تراكمها، وقال:

-لا تتحركي.

وعندما عاد قال أنه يدرك رغبتي في مساعدتهم حتى قبل أن أدرك ذلك بنفسي؛ وأنا لم أعتد على أن يرعاني أحد من قبل، ولم أعتد على أن يتولى أحد مهامي، وقاموا بملئ سلة الغسيل، وجرها "أحمد" بعيدا، وجاء "عمر"، وجلس بجواري، ثم سمعناها، وكان صوتها يتردد بجميع أرجاء المنزل بصوت ضعيف قائلة:

-عمر! عمر!

ابتسمت وتساءلت:

-لماذا لا أذهب إليها؟

قلت:

-سأصطحب الطفل معي.

قال مرة أخرى:

-لا تتحركي؛ فكل شيء على ما يرام.

وسلك طريقه خلال المنزل الفرنسي لغرفة سيدتي، واستندت إلى وسادتي، وسحبت شالي وألقيت نظرة على طفلي، أجمل أطفال مصر، وفتح عينيه وأغمضهما مرة أخرى، وكنا في سلام كامل لم أكن أعرفه حتى الآن، ولكن هذا السلام لم يكن لي ولم يكن من المقدر لي الاستمتاع أبدا به، ودون مقدمات بدأت بالتفكير، وجدت نفسي أفكر في أن كل شيء موجود، ولكن لماذا كان يقول ذلك؟ لماذا يحتاج إلى قول أن كل شيء على ما يرام؟

وكنت مسرورة جدا لعودتي إلى البيت الفرنسي وإلى غرفتي الجميلة، والحديقة الرائعة؛ مما جعلني لا أدري بما يجرى من حولي؛ ففي اليوم الأول جعلت الطفل يقيم في غرفتي، وكنت قادرة على المساعدة في تفريغ الحقائب، واستقبلت "دهبية" حشدا كبيرا من أطفال القرية، عندما رست، وجروا ذهابا وإيابا من "دهبية" إلى القرية، وقاموا بنقل كل شيء إلى المنزل، وقال "عمر":

-كوب واحد ومعلقة واحدة في المرة.

كان لدى شعور جيد لأني قادرة على النهوض والتجول والعمل مره أخرى، وانشغلت سيدتي بحفل الاستقبال الذي بدأ مباشرة من القارب وحتى بيت "مصطفي آغا"؛ حيث كان من المقرر أن تتناول الطعام والماء وتبقى بعيدا عن الفوضى، وقمت بترتيب غرفة سيدتي لمعرفتي أنها ستسعد بإيجادها لجميع أشيائها المألوفة من حولها؛ فقمت بترتيب فرشاة الشعر الخاصة بها، ومرآة الوجه التي تقوم بوضعها في بعض الأحيان أمام عينيها، وطاولة الكتابة الخاصة بها وأوراقها وكتبها، وكان "أحمد" الصغير تغمره السعادة لعودتنا، وأخذ يتسلل إلى غرفتي

لينظر للطفل، ثم يقفز ويخرج إلى الصالون ويرقص بجنون، وبالفعل يعرف كل من في الأقصر عن الطفل، وظهرت إحدى القرويات عند الباب مع سلة منسوجة، قالت أنها للطفل كي ينام بها، وكانت مزينة على نحو رائع بالقطن الأبيض والدانتيل الجميل، وشاهدتني المرأة وأنا أضع الطفل لينم فيها، وعلقت على بياض بشرته وباركتني قبل أن تغادر.

وبمجرد مغادرة المرأة قلت ل"عمر":
-انتظر حتى تراه سيدتي... الأمير المصري الصغير في سلته.
ولم يرد "عمر"، فنظرت إليه، لكنه لم ينظر في وجهي، ولم أتحدث مع سيدتي منذ ليلة مجيئ الطفل إلى العالم، والحق يقال، لم أفكر فيما يدعو للقلق؛ فقد انشغلت بالطفل والنوم والأكل، وبينما كنا نسافر، لم يجعلني "عمر" أنهض من فراشي لأكثر من بضع دقائق كل يوم، وقال أنه يهتم بي وبالطفل، ويهتم بحاجتنا، فكنت لا أفكر في أي شيء يتجاوز الطفل ومشاعري وآلام جسدي، ووضعت طفلي بصورة جيدة؛ فلقد حضرت ما يكفي من عمليات الولادة السيئة للتعرف عليها، ولم أصب بأي ضرر دائم، ولكني شعرت بضربات كما لو أنني أخوض مشاجرة كبيرة، ولكنه الطفل، وكان معي أحمله وأرعاه وأتساءل ماذا أفعل معه؟ وأشارك ذلك مع "عمر" حبيبي، وهذا ما قمنا به لفترات طويلة على متن "دهبية"؛ حيث اجتمعنا معا في مقصورتي، وابتسمنا لطفلنا، وتحدثنا عن ذهابنا إلى الأقصر حيثما سنتزوج؛ واخترنا اسم "عبد الله"، تيمنا باسم والد النبي "محمد"؛ فقلت ل"عمر" في ذلك الوقت:
-هذا يجعلك أبا عبد الله أبا حلاوة.
وضحكت وغمزته بإصبعي في صدره؛ فأمسك بيدي وسحبني له، وأخذ يقبلني، وعدنا مرة أخرى إلى الأقصر، وما زلت لم أرَ

سيدتي حتى الآن، وكل المخاوف والقلق الذي ناقشناه خلال الأشهر القليلة الماضية تتدافع إلى ذهني، أين هي؟ أين سيدتي؟ لماذا لا يشجعني "عمر" على أخذ "عبد الله" لها؟ لماذا لم تأتِ لزيارتي؟ قد توقعت وأنا في غرفتي على متن "دهبية" أن أعفي من خدمة السيدة.

وفي الواقع، كنت أتطلع إلى قضاء أيامي مع سيدتي مرة أخرى بمجرد عودتنا للبيت الفرنسي، وتصورت "عبد الله" في سلته على أرضية غرفتها، وسيدتي تنظر إليه من وقت لآخر لتطمئن عليه، بينما أتنقل في المكان، وهذا نموذج لعاطفة الأمهات، وعندما يستيقظ وهو يصرخ، تقوم سيدتي بحمله وتضمه إلى صدرها وتسير به خلال المنزل لتأتيني به، وسيكون "عبد الله" موضع ترحيب، وأكثر الأفراد تبجيلا بمنزل الأقصر وبعائلتنا المصرية؛ فهو طفل أفضل من الجميع، ولكن الصورة التي رسمتها بدأت في التلاشي وهى ما زالت في إطارها، وكان "عبد الله" نائما بين ذراعي، ومر غروب الشمس والسماء مرصعة بالنجوم، وقمت بوضع "عبد الله" في سلته، وأشعلت مصباحا في الزاوية البعيدة على الطاولة الصغيرة التي كنت أستعملها للكتابة؛ فأنا لم أكتب إلى "إيلين" في الأسكندرية لأخبرها عن الطفل، وهى لا تعرف شيئا عنه، على الرغم من أنني قد رأيتها منذ أقل من شهرين ماضيين، أود إرسال رسالة لأقول لها كل شيء، وأعود بذاكرتي إلى وقتنا في القاهرة وأتعجب منها؛ حيث كنت هناك وقد اكتملت فترة الحمل تقريبا ولم يلحظ أحد ولا حتى "إلين" التي تشبه سيدتها السيدة "روس"؛ حيث لم توافق على الطريقة التي كنت أحيا بها أنا وسيدتي، ولم توافق على الطريقة التي نرتدي بها ثيابنا وطريقة اعتيادنا على العادات والتقاليد، والطريقة التي كنت أتسوق بها مع "عمر"

في السوق، وطريقة تناولنا للطعام مع سيدتي؛ حيث نجلس على الأرض حول صينية فضية، وكان رفضها قد أعماها عن رؤية الحقيقة، حتى طبيب سيدتي الانجليزي الجديد، الطبيب "باترسون"، الذي رآني في القاهرة قبل بضعة أيام فقط من ولادة "عبد الله"، لم يكشف حقيقة الأمر؛ حيث كان يهتم أكثر بصحة سيدتي، وتأكد من أن صندوق الأدوية لدينا تم تحديثه وسليم أيضا.

وبدأت رسالتي: "عزيزتي "إلين"، لدى شيء لأقوله لك وهو شيء أكثر من رائع، ولكن لم أستطع الاستمرار، وأخذت أفكر لماذا لم تأتِ سيدتي لرؤيتي أنا والطفل؟ كنت أعرفها فلابد أن تكون متشوقة لرؤيتنا، وأن الفضول يقتلها؛ حيث تريد أن تعرف كل شيء، وقد مضى أكثر من أسبوعين منذ ليلة مقابلتنا على القارب فوق سطح النيل، وفجأة نمى شكي ليصير كالمرض الذي يينتشر سريعا كالغيرة؛ فتأكدت أن "عبد الله" كان ينام جيدا، وغادرت غرفتي، وكان "عمر" آتيا عبر الممر يحمل شمعة تومض في الهواء البارد، وكان المنزل ممتلئا بالهواء البارد بالكامل مما يعطيك الانطباع بوجود العديد من النوافذ بلا زجاج كما لا تتحرك الأبواب بكفاءة؛ ففي الليالي العاصفة لا نتمكن من الحفاظ على أي مصباح مشتعل، وسألت: "هل لا تزال سيدتي مستيقظة؟"، وحافظت على صوتي منخفضا على الرغم من معرفتي أن الوقت ليس متأخرا؛ حيث اعتقد أنه بإمكاني التحدث إليها، وكان كل ما قاله عمر: "لا"، قالها بضجر، فقلت:

-ماذا تعنى بلا؟

وكنت لا أزال متعبة بما فيه الكفاية من الولادة ورحلة شعوري بالوخز، فأجاب قائلا:

-سيدتي قالت...

وتردد ولم يكمل كلامه، وشعرت بقلبي يغوص في أعماقي، وبالفعل علمت ذلك جيدا ، وقال : "سيدتي" ثم توقف مرة أخرى، في محاولة للعثور على الكلمات، وأكمل قائلا:

-أعطتني تعليمات بشأن البيت.

ولم أفهم ما يقصده وأكمل هو قائلا:

-أنا المسئول عن البيت الآن.

فأخذت خطوة للخلف؛ فقد كنت المسئولة عن البيت حتى في مصر؛ حيث كنا في كثير من الأحيان بأماكن متغيرة، وكان البيت تحت إدارتي؛ فقد كنت خادمة السيدة "داف جوردون"، وبالتالي، في حالة عدم وجود مدبرة منزل انجليزية، تكون مسئوليتي هو جعل العمل في المنزل يسير بشكل سلس، وكنت المسئولة هنا، ومسئولة أمام أي شخص بغض النظر عن سيدتي، ولكن بطبيعة الحال تغير كل شيء و"عمر" والد طفلي، وكان لدينا خطط للزواج، وسيكون زوجي وله السلطة عليَّ، ولكنه كان بيتي؛ فهو مصري، وأنا انجليزية، فقلت:

-ماذا تقصد؟

لم أرد أن يكون شعوري على هذا النحو، وتنهد "عمر" كما لو أن دوره الجديد يمثل ثقلا كبيرا عليه، وقال:

-سيدتي ..

ثم توقف مرة أخرى ودار ليهتم بالشمعة التي كانت تحترق بلهيب أسود فسألته:

-ماذا قالت؟!

فقال بصوت أقصى مما قصد، فقال:

-عليك البقاء في الغرفة الخاصة بك مع "عبد الله".

هذا ما قالته، ولكنني على ما يرام تماما، واستعدت صحتي بالفعل، ويمكنني أن أقول لها هذا بنفسي، فقال "عمر":

-سالي!
وأخذ بيدي مرة أخرى إلى غرفتي قائلا:
-استمعي لي.
ولم أرغب أن يكون شديد الرزانة على هذا النحو، ولكنه أبقى صوته منخفضا، وقال:
-سيدتي لا تريد أن تراك أنت أو الطفل.
ودمرني كلامه بحيث لم أستطع الرد؛ فسيدتي لا تريد أن تراني، أو تري طفلي، لقد كنت إلي جانبها لسنوات وسنوات، ولكنها لن تراني، وتمتم بهذه الكلمات ثم توقف، وأصدرت صرخة بصوت عال، عندما رأيته يبكي، وقال:
-إنها تحملك اللوم كاملا.
وابتلع ريقه بصعوبة، وأجبر نفسه علي الكلام وقال:
-إنها لم تستمع لي، ولم تسمح لي أن أدافع عنك، وقالت أنك أفسدتيني، وقدتني إلي ضلال.
ورأيت أن "عمر" كان غاضبا أيضا، وأكمل:
-لقد قلت لها أنني رجل، وكنت أعرف ما أفعله، وأنني أتحمل المسؤولية كاملة، وقد وضعنا خططنا للزواج، لكنها لم تستمع لي يا "سالي"، وقالت أنها لن تسمح لي بالدفاع عنك، واستخدمت كلمات رهيبة، وقالت أشياء فظيعة عنك لي، وقالت أنها لا تريد أن تراك ، وبقيت مرتبكة وانبغي علينا التحدث باللغة الإنجليزية أو كنا نتحدث باللغة الانجليزية بالفعل؟، وقلت متى سنتزوج......
فهز رأسه وقال:
-لن يمثل هذا أي فرق معها.
واعتقدت أن هذا الأمر كان أسوأ ما يمكن أن يقال، ولكني كنت مخطئه.

ورأيت أن سيدتي لا تفكر بصورة سليمة، ولا يمكن أن يكون هذا رد فعلها؛ فهي غاضبة وحزينة وتشعر بالخوف من فقدان عائلتها؛ ولذا لا يمكن أن تسمح لي بأن أكون سعيدة علي هذا النحو، ولكنها ستأتي بالقرب منا وستهدأ، وتتذكر أنني خادمتها الأمينة المخلصة "سالي نالدريت". نعم، "سالي" التي لها ستتذكر بنفسها شخصيتها الجيدة القوية العادلة، ومن ثم ستتذكر حبها لي وستري "عبد الله" وستحبه، وكيف يمكن لأي شخص ألا يحبه؟! ستري الطفل وتعرف ما يجب عليها فعله، هذا ما ظننته وما ظللت أفكر فيه. وقال "عمر":

-قالت إنها لا تريدك أن تتركي البيت الفرنسي الآن، وليس علي الفور؛ فهذا سابق لأوانه والطفل صغير جدا، ولكنها لا تريد أن تراك، وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر، عندما تكونان قويين وقادرين علي الرحيل، يجب أن ترحلي، وأن يذهب "عبد الله" إلي "مبروكة" زوجتي في القاهرة، وأن تعودي إلي انجلترا.

في تلك اللحظة، دمرت حياتي ودمرتني كلماتها التي نقلت إليَّ بواسطة حبيبي.

الفصل الحادي عشر

لم أعتقد أبدا أنه يمكنني أن أكون سعيدة جدا، ولم أفكر في أنني سأكون خائفة جدا مما سيجلبه لي المستقبل واستنفذني الشعور بكل هذه الأشياء في نفس الوقت؛ ففي تلك الليلة علي متن القارب ساعدتني سيدتي في مجئ "عبد الله" إلي العالم، وكانت لطيفة وماهرة في تأدية دورها مثل أي قابلة وبمجرد و صولها إلي حجرتي نسيت عذابي للحظة وشعرت بالخجل أن من تراني سيدتي وأنا عارية على هذا النحو؛ حيث رُفع لباس نومي ووضع حول كتفي وأنا أصرخ، لكنها لم تغمض لها عين، ولم تتردد مما أشعرني براحة عميقة مثل موجات الألم التي تمر عبر جسدي؛ فكل شيء سيكون علي ما يرام، واعتقدت أن سيدتي ستكون هنا الآن؛ ويمكن لها أن تتعامل مع أي شيء تقريبا.

وكانت ليلة الميلاد ليلة مظلمة غير مقمرة وكئيبة وغير مأهولة علي طول ساحل النهر، وفي هذا اليوم كان لدي شعور غريب

وحكة، وشعرت بثقل وضيق بالصدر، وبالطبع كنت غبية حيث لم أدرك ما كان يحدث وقد أغبتني السعادة بحيث أعتقد أنني سأبقى حاملا إلى الأبد، وكنت سعيدة بهذا، ولم يدرك "عمر" أيضا الأمر علي الرغم من حقيقة أننا هُيئنا نفسيا لحدوث هذا ونحن علي متن "دهبية"؛ فقد دفنا معا سرا مع مخزون الإمدادات ودربت "عمر" علي كل ما عرفته عن الولادة، وبدأ المخاض في بداية المساء، واحتفظت بالأمر لنفسي، ومشيت ذهابا وإيابا في القارب أقوم بكل مهمة أمكنني التفكير فيها، حتى كان كل الأثاث والتركيبات علي متن "دهبية" تبرق من النظافة، ورأيت سيدتي وهي تستعد للذهاب للنوم، وعدت بسرعة إلي الحركة، حتى جاء "عمر" وسألني لماذا لم أذهب إلي الفراش، وكان الوقت متأخرا، وسيدتي نائمة منذ عدة ساعات، وفي مثل هذا الوقت من الليل تكون مستغرقة؛ حيث استمر جنبها يؤلمها مرة أخرى خلال النهار، وكذلك في الليل، وذهبت إلى غرفتي وأصبح الألم كالعاصفة القوية التي تأتي علي بناء السفينة في عرض البحر، وكنا في حجرتي أحاول أن ألتزم الصمت وأعمل باجتهاد للسيطرة علي نفسي؛ لمنع نفسي من الصراخ كلما ضربتني موجات من الألم، ولكن بعد ساعات قليلة طويلة، لم يكن لدي فكرة عما مر من الوقت، ولكن لم يعد من الممكن إبقاء الأمر سرا، وفقدت رشدي كجميع النساء في هذا الوقت، وأدركت أنني قمت بجلبة فظيعة، وكان "عمر" خائفا، ولم يعترف أبدا بذلك، ولكنني أعلم أنه كذلك؛ لأنه علي الرغم من أنني لم أكن مدركة لطبيعة الأمر في ذلك الوقت ذهب لجلب سيدتي؛ فدور القابلة لم يكن هو الدور الذي قام به من قبل، وكل ما قمنا به من حديث وتخطيط ثبت أنه خطأ عندما يتعلق الأمر بالواقع الملموس، وها قد أتى الوقت الذي أحتاج فيه للمساعدة، وليساعدني ذهب وأيقظ سيدتي التي استلزمها

بعض الوقت لتفيق، حتى وإن سمعت صراخي المكبوت من بعيد؛ فقد كانت مستغرقة في النوم لا يصلها الصوت كاملا، وربما تكون قد تقلبت في فراشها قائلة:

-ما هذا؟ ربما حيوان علي ضفة النهر.

ثم عادت لتستغرق في النوم، ولكنها أجبرت علي الاستيقاظ مرة أخرى قبل مرور وقت طويل متسائلة:

-ما هذا؟

وبعد ذلك، وفي هذا الوقت، بدأ "عمر" يصيح:

-يا سيدتي! يا سيدتي!

وطرق "عمر" الباب وهو مذهول يرتجف وقال:

-سيدتي "داف جوردون"! تعالي معي؛ فسالي تحتاجك! تعال معي!

وهرعت سيدتي وراء "عمر" إلى أسفل الممر الضيق، ثم إلى حجرتي، "عمر" أولا ثم سيدتي خلفه خائفة مما قد تراه وما قد تشاهده، لم يكن ما كانت تخشاه، ولكن شيئا مختلف جدا؛ فأنا أعرف هذا الآن؛ فهو أسوأ مما كانت تظن بكثير، رأتني في خضم المخاض، نعم رأت خادمتها "سالي" "نالدريت" العانس التي لا يقل عمرها عن ثلاثين عاما تصرخ وهي منحنية علي الفراش، وشراشيف الفراش ولباس نومها ملطخ بالدماء وهائجة من الألم، قال "عمر":

-ساعديني يا سيدتي.

قالها أقوي الآن لعلمه أنه بحاجة لأن يكون قويا:

-ساعديني في ميلاد طفلي!

وكانت هذه هي الطريقة التي اكتشفت بها سيدتي أنني حامل، وعرفت ما كان بيني وبين "عمر"، وبقية الرحلة لم تسر علي ما يرام؛ حيث مرت فيها الأيام بطيئة مثل قافلة طويلة تابعة ل"دهبية"، وكانت تمر بهدوء، وبالرغم من كوننا بفصل الشتاء،

فحرارة الشمس بعد الظهر كانت لا تزال مرتفعة وواصلت سيدتي قضاء معظم فترات بعد الظهيرة بالخارج علي سطح السفينة لمشاهدة الفلاحين المصريين في حقولهم؛ حيث يجلبون منتجاتهم لبيعها في القرى، وقد مر ألف سنة، ولكن بدا لو أن شيئا لم يتغير، ولكن في الواقع، كان التغير سريعا علي الأرض بالنسبة للشعب، وعلي "دهبية" لم يظل أي شيء كما كان.

وفي وقت لاحق قال "عمر" أنه عندما ذهب إلي مقصورة سيدتي في الصباح وهو يحمل المياه العذبة وحوضا نظيفا بعد ولادة طفلنا، اعتذر عن التأخير قائلا:

-أنا آسف يا سيدتي؛ فبمجرد معرفتي أن "سالي" والطفل علي ما يرام غلبني النوم ونمت لمدة أطول بكثير من المعتاد.

فأجابت سيدتي قائلة:

-كل شيء علي ما يرام يا "عمر".

وكانت قد أرتدت ثيابها وأعدت نفسها للخروج من غرفتها في هذا اليوم دون مساعدتي لأول مرة منذ فترة أبعد مما أستطيع تذكره، وعندما أخبرني بهذا، شعرت بالخجل والحزن معا، وأضافت:

-الوقت قادر تماما.

فقال:

-بالطبع يا سيدتي.

قالت:

-سأتناول طعام الإفطار علي سطح السفينة.

قال:

-أمرك يا سيدتي.

قالت:

-سأتناول بيضة من البيض الذي اشتريناه في ذلك اليوم.

ولوحت بيدها لتصرفه، ولكنه لم يكن علي دراية بهذه الإشارة، وقال لي:

-مثل هذا.

وقام عابثا بالتلويح بيده ليصور لي إشارة سيدتي، وضحكت بسبب الشعور بالإهانة المرسوم علي وجهه، وقال أنه ظل واقفا هناك منتظرا، فقالت سيدتي:

-هذا كل شيء يا "عمر"، شكرا لك.

وقال أنه حاول مرة أخرى في وقت لاحق من ذلك اليوم التحدث بهذا الأمر قائلا:

-إنه بخير.

ذلك أثناء مساعدته لسيدتي في الاستعداد للذهاب إلي الفراش، تلك المهمة التي جعلته محرجا لحقيقة أن هذه هي المرة الأولي التي يقوم فيها بهذا الأمر.

وقالت سيدتي:

-من؟

فقال "عمر":

-الطفل، وأتصور أنه ابتسم بلطف بحيث لا يمكن لسيدتي فعل شيء سوي الابتسام هي أيضا.

ولكنها تخلت عن الابتسامة بسرعة، وقالت:

-أوه! نعم، الطفل!

قال "عمر":

-هل تريدين مني أن أحضره لك ؟

مضمضت سيدتي فمها وقالت:

-لا، شكرا لك يا "عمر؛ فأنا لا أريدك أن تجلبه لي.

استغرب "عمر" وقال:

-سترتاح "سالي"، وأنا أستطيع القيام بواجباتها من أجلها؛ فأنا لا مانع... أنا لست أكثر من......

فقاطعته قائلة:

-ليس لدي أدني شك في أنه بإمكانك القيام بعمل "سالي"، وكذلك العمل الخاص بك يا "عمر"؛ فهذا ليس ما أقوله، أنا لا أريد رؤية الطفل.

وكان "عمر" واقفا ينظر إلى وجهها وقالت:

-هل هذا واضح؟

فقال:

- نعم يا سيدتي.

فقالت:

-شكرا لك يا "عمر"، تصبح علي خير.

كان هذا يوم عيد الميلاد، ولكن "عمر" قد نسي، وهذا ليس بغريب، وأنا بالطبع قد نسيت أيضا؛ فلم يفكر أي منا في الاحتفال بهذا اليوم بأي شكل من الأشكال، وسيدتي لم تقل كلمة عنه ل"عمر"؛ حيث لا بد من أنها متعبة للغاية بعد أن أمضت معنا ساعات في الليل بحيث إذا فكرت في البكاء، ستشعر أنها ضعيفة جدا، وأتصور أنها شعرت بالمرض قليلا؛ فهي لم تكن بصحة جيدة، وكانت الصدمة أكبر من كل شيء؛ حيث وجدتني أعاني آلام الولادة علي متن قارب في نهر النيل ليلة عيد الميلاد؛ فهذا قد صدمها، ولكنه لم يكن الأسوأ؛ فقد رأت نساء بمرحلة المخاض من قبل وهي نفسها قد أنجبت، وتعرف هذا الوضع؛ فهو مزيج مروع من الفوضى الجامحة والألم والأمل المحفوفين بالخطر، ولكن عدم إخبارها بالأمر، وأنني أحجبته عنها كان صعبا بالنسبة لها؛ فهي لا تحتمل جهلها للأمور، وأعتقد أن هذا هو أكثر ما سبب لها الألم؛ فكيف أمكنني وأنا رفيقتها الدائمة خلال السنوات القليلة الماضية وخادمتها التي كرست حياتها لها لأكثر من اثني عشر عاما كيف أمكنني

خيانة ثقتها بهذه الطريقة؟ وكيف أمكنني عدم إخبارها؟ وأعتقد أن هذا القدر من الخداع قد جرح كبرياءها، وكيف يمكن لها عدم رؤية ما وصلت إليه؟ كيف أمكنني عدم إخبارها بالأمر كله فقد كانت ستر عاه؛ ولكنها لم تدرك منه الكثير، بل أدركت القليل منه فحسب، هذا كثير جدا عليها؛ فسيدتي يلجأ إليها الناس عندما يواجهون مصاعبا سواء من الموظفون أو الأصدقاء أو الأسرة علي حد سواء؛ وفي منزل "جوردن أرمس" في وطننا كان من المتوقع أن تتدخل سيدتي وتسوي أي مشكلة للموظفين سواء كانت مشكلة شخصية أو مالية، أو غير ذلك، وتلك الفتاة الصغيرة "لورا" التي أوقعت نفسها بالمشاكل في "إيشر" قبل مغادرتنا لمصر، وقلت لها أن تذهب إلي سيدتي لطلب مساعدتها، وفعلت ذلك وساعدتها؛ فقد وجدت لها مكانا متواضعا في منزل في "إيشر" يمكن أن يقال عنه منزل متواضع فبه خادم واحد فقط، ولكنهم وافقوا علي وجودها معهم هي وطفلها، وذهبت تلك الفتاة الشابة إلي سيدتي طلبا للمساعدة، وقدمت سيدتي مساعدتها، وكذلك في الأقصر؛ فأهالي القرية عندما يحتاجون المشورة والمساعدة، يأتون إليها حتى أنهم يأتون إليها بأطفالهم المرضي، فعادة ما يأتي الناس لسيدتي طلبا للمساعدة ويخبرونها بكل شيء، كمشاكلهم وكل ما لديهم من أحزان، ويطلبون نصيحتها ومساعدتها، وفي أكثر الأحيان يطلبون منها التدخل في حياتهم؛ وهم لا يكذبون عليها، ولا يتآمرون لإخفاء الحمل.

وعندما وجدتني في مرحلة المخاض، لم يكن أمامها شيء آخر سوى مساعدتي؛ لذلك شمرت عن ساعديها وساعدت في ميلاد طفلي، وأمسكت بيدي وطمأنتني بهدوء وطلبت مني أن أصرخ وألا أكتم الألم وأصرخ منه بصوت عالٍ، وجعلت عمال القارب

يتناوبون في العمل معها في تقديم الماء الساخن، والملابس النظيفة، والمشروبات الساخنة، وشباك نظيفة، وسكين حاد تم تعقيمها في النار، ولم تفاجأ عندما وجدتني قوية ولدي قدرة علي تحمل المخاض كما كنت في بقية حياتي وهذا ما أخبرتني به، في الواقع هو آخر شيء أتذكر أنها قالته لي عندما كنت في آخر مراحل المخاض:

-لست مندهشة يا "سالي نالدريت" أن أجد لديك القدرة علي ذلك.

وعندما شق الطفل طريقة إلي هذا العالم، وضعته سيدتي بين ذراعي، وقالت أنه بصحة وعافية.

في الوقت الذي سمعتها فيه، كانت تعني أمرا بعينه، أما الآن فهي تقصد شيئا آخر، لقد كان ذلك قاسيا، بل كان من الصعب أن أتوقع تحملها لهذا التحول في الأحداث وأتوقع أنها ستأخذ هذا الأمر مثل كل شيء آخر؛ كمرضها وسنواتها الطويلة معه، هذا المرض العنيد الذي لا يتركها ولا تشفي منه، وذلك المنفي الاختياري؛ فلم يكن أمامها سوي الاختيار بين الموت والمنفي بعيدا عن انجلترا وكل عزيز عليها، وأصدقائها، وأطفالها، وزوجها، وأمها، وفي بعض الأحيان أثناء سفرنا كنا مثل جماعة من اللصوص، حيث كنت أنا وسيدتي و"عمر" نسرق الوقت، ونخلق عالمنا الخاص وحياة جديدة بالنسبة لنا جميعا في الأقصر حول النيل في مصر نحن الثلاثة، ولكنني حطمت كل هذا، دمرت السلام الذي كانت تحيا به سيدتي، وأصبحت هذه الحياة كأنها خيال أزلته بلا رجعة، والحق أن بمجرد اطمئنان سيدتي علي الأم والطفل، عادت لمقصورتها، وخلعت ملابسها الملطخة بالدماء، وأزالت دمي من على ذراعيها ويديها ووجهها، فعلت هذا من دون مساعدتي، دون مساعدة من خادمتها المخلصة،

ثم استلقت وهي منهكة، ولكنني أتصور أنها كانت غير قادرة علي النوم؛ فقد مضى الوقت مع السيد "أليك" علي نحو سيئ بالقاهرة، وكانت تتطلع بشدة لزيارته، ووضعت الآمال، والأفكار، وقامت بالترتيب للأشياء التي تريد أن تريها له، والمناقشات التي ستدور بينهما، وتخيلت حبه لمصر كما أحبتها هي، وأنه سيحب الأقصر أكثر من ذلك، وكانت مقتنعة أنها ستكون معه مرة أخرى؛ فهو الرجل الذي قد تزوجته، عندما كان عمرها ثمانية عشر عاما، وكانت تحبه منذ ذلك الحين، وقضت معه تلك السنوات السعيدة؛ ومن ثم كانت زيارته بلا فائدة؛ حيث لم يحب السيد "أليك" مصر، بل الأكثر من ذلك أنه قال أنه لن يحب الأقصر؛ فهو لم يسافر مع سيدتي إليها عندما طلبت منه ذلك.

وبالطبع، بدت نفسيتها في حالة سيئة مرة أخرى وآلام جنبها مثل ألسنة اللهب، فقد أخبرتني بذلك؛ فسنوات السعال وبصق الدماء أفسدت كل شيء، وزيارة السيد "أليك" فشلت فشلا ذريعا، وكان وداعهم في بولاق نهاية حزينة لوقت بائس، وكانت سيدتي تفكر بابنها "مايور" الذي أصبح رجل تقريبا، وصغيرتها "رينية" التي كانت تبلغ خمس سنوات وأصبح لديها ما يقرب من ست سنوات؛ فهما في انجلترا بدون أمهما وبدون أي احتمال لرؤيتها، وكانت تفكر فيهم وهي تشعر بالحرمان، وقد ابتعدت عني بمجرد رحيل السير "أليك"، ووجدتها تشعر بأنها ضحية؛ فهي ميتة حية هنا في مصر، وحيدة دون أطفالها، ودون زوجها، ودون أسرتها؛ وكانت السيدة "جانيت" في الأسكندرية، ولكن المسافة بينهما كانت كبيرة حقا، لدرجة أن ابنة سيدتي ربما قد عادت مرة أخرى إلي انجلترا وليس لدينا علم بذلك؛ ولا أستطيع رؤية ما بداخل عقل سيدتي، على

الرغم من محاولتي فعل هذا بشكل يومي وفي كل ساعة؛ فكان لديها أفكار لم تتحقق أبدا.

إنني علي يقين من صدمتها بولادة طفلي، وربما كان من الأفضل أن تبقي في انجلترا لتموت بجوار من تحب من أن تأتي إلي هنا لتعش حياة الآخرة المصرية، وربما كان من الأفضل أن تموت، وهذه الفكرة تكفي لتدمير ما تبقي من رباطة جأشها، والقضاء علي الصورة التي رسمتها لنفسها والعالم حيث الحياة ذات الطابع المصري الهادئ؛ فقد سألت نفسها من المسئول عما حدث لها وهذا الطفل خطأ من؟ علي الرغم من أنه لم يكن سؤالا حقيقيا؛ لأنها عرفت الجواب بالفعل: كان خطئي أنا "سالي نالدريت"، وتساءلت أحيانا عما إذا كانت الأمور ستختلف، إذا كنا أخبرناها عن الطفل في وقت مبكر أو منذ البداية، ربما منحت حينها الوقت لتعتد علي الفكرة؛ ولإيجاد وسيلة لتعد نفسها لهذا الوضع، وهل إذا كنت قد تزوجت أنا و"عمر" في وقت مبكر، ولم نبق الأمر سرا فربما كان يمكن تفاديها، وكان من الممكن أن تشعر بالسعادة في الشهور الماضية؛ وبعد ذلك تكون بجوارنا وتكون جزء من حكايتنا، بدلا من الشعور بأننا نتآمر ضدها، وجاء ميلاد "عبد الله" في هذا الوقت ليكون أسوأ ما يمكن، وهي وحيدة عشية عيد الميلاد علي شاطئ النيل بعد أيام فقط من وداع سيدتي للسيد "أليك"، ولكن يبدو الآن –علي الأرجح– أن رد فعلها سيكون هو نفسه، بغض النظر عن وقت اكتشافها لحقيقة وضعنا، وإذا كنا قد أخبرناها بذلك في الربيع، ربما أفسدت وقتنا بصورة أكثر قسوة، وقد تسببت في عدم وجود "عمر" بجانبي وقت ولادة طفله، وهذا هو سبب عدم إيجادنا وسيلة لنخبرها، حيث عرفنا أن الخطر كبير جدا؛ لذلك قمنا بخداعها، وعلينا تحمل العواقب.

وكانت الرحلة في النيل بعد ولادة الطفل بطيئة، وعندما عبرنا الخط البري الذي يفصل مصر السفلى والعليا في أسيوط، هجرتنا الرياح تماما، وفي حجرتي شعرنا بالسكون؛ حيث كنت أنا و"عبد الله" معا علي ظهر "دهبية"، بينما يضطر الطاقم للخروج، وسحب القارب بحبل علي طول ضفة النهر، وكنت أسمع صيحاتهم وإصدار "الريس" لأوامر صارمة من مكانه علي سطح السفينة، وبينما كان الطفل نائما قررت الصعود للأعلى؛ لأحرك أطرافي، وأرى ما يمكن رؤيته هناك، وخرجت في مؤخرة القارب، وكنت أرى سيدتي أمامي في مقعدها تحت المظلة، و"الريس" بجوارها، وكان "عمر" مع الأواني والمقالي في المطبخ بالأسفل؛ فوقفت وشاهدت الرجال وأنا أحسد بنيانهم القمحي ذا الأطراف القوية، وكانت حرارة الشمس مرتفعة، وكما هو الحال دائما، فهي تهدئ الآلام في جسدي، وسأتحدث مع سيدتي بين لحظة وأخرى، ولكنني رأيت أن أتمتع بالهواء الطلق الآن، ونظرت إلي أسفل في النيل حيث لفت شيء في الماء انتباهي إلي جانب جسم السفينة في المنتصف، وارتفع إلي السطح، وللحظة اعتقدت أنه كان تمساحا، ولكنها امرأة ميتة لديها أساور فضية تلمع بذراعيها المرتفعة لأعلي كما لو أنها في حالة دفاع عن النفس، وركبتاها لأعلي أيضا، كانت عارية، وثدياها يعومان بالماء تحت وجهها، وصرخ الرجال:

- بني آدم!

حيث اكتشفوا وجودها بعد لحظة من رؤيتي لها، وعلي الفور قال الريس:

- ليرحمها الله.

وقالت سيدتي:

- ماذا يوجد علي الأرض ؟... هل هي ميتة؟!

إنها ميتة بالفعل، ورد الريس:

-إنها ميتة!
فقالت سيدتي:
-فتاة مسكينة!
وأردت أن أندفع إلى جوار سيدتي، وقالت وأحد رجال القارب يريد أن يدفع المرأة بعيدا عن "دهبية" باستخدام مجداف:
-لماذا يريد هناك من يريد قتلها؟
وانزلق الجسم في الماء مما تسبب في ضوضاء قبيحة، وبدأت أشعر بالإغماء، وشعرت بالارتياح؛ لأنه قد لاحظني شخص ما، وذهبت مرة أخري إلي حجرتي للراحة، ولكن قبل أن أتمكن من الذهاب، سمعت "الريس" يقول:
-نحن في مصر، في صعيد مصر يا سيدتي علي الأرجح، إن المرأة كانت زانية، وقد لطخت اسم والدها، وأجبر علي خنقها - تكريما له (الرجل المسكين).
وقالت سيدتي:
-زانية!
ولاحظت شيئا غريبا في صوت سيدتي، سمعت ذلك وتخيلت أن المرأة التي في الماء هي أنا، وأطلقت صرخة بصورة تلقائية قائلة:
-سيدتي!
وبدأت أتحرك تجاهها بطول السفينة، وبعد ذلك جاء "عمر" من المطبخ، واستوقفني، ووضع شالا حول كتفي، واتجهت نحوه وهو يتمتم لي وأخذني إلي مقصورتي مرة أخري، وأبعدني عن سيدتي علي الرغم من أنني لم أدرك ذلك في ذلك الوقت، وفي تلك الليلة كنت قلقة وغير قادرة علي النوم، والمرأة المقتولة تتمايل في الماء أمام عيني، وكلمة "زانية" تعيد نفسها مرارا وتكرارا؛ فأنا كنت زانية، و"عمر" له بالفعل زوجة وطفل، علي الرغم من أنه يروق لي تجاهل هذه الحقيقة، ولدينا خطط للزواج؛ فالقانون المصري يسمح لنا بالقيام بذلك، وقال أنه

ليس من الضروري أن يطلق زوجته الأولي ليتزوجني، ولكن في الوقت الراهن كنت زانية، فهل سيكون عقابي قاسيا كتلك المرأة التي رأيناها؟!

وفي الأقصر، وفي وقت متأخر، أخبرني "عمر" عن المحادثة التي جرت مع سيدتي علي متن "دهبية" في تلك الليلة؛ حيث كان "عمر" يرتب مقصورة سيدتي قائلا:

-معذرة يا سيدتي.

وهذا كان من ضمن العديد من المهام التي كنت أتولاها سابقا، وقالت:

-لتبقها بعيدة عني؛ فأنا لا أريد أن أراها.

فقال:

-ولكن، يا سيدتي...

قالت:

-لا ترد علي!

فأخذ "عمر" خطوة بعيدا عن سيدتي، وقال أنها لم تتحدث معه بهذه الطريقة من قبل، وقالت:

-لا أريد أن أراها!

فأجاب "عمر":

-أمرك يا سيدتي.

فقالت:

-شكرا لك يا عمر.

وأومأت له:

-إن هذا سيكون كل شيء.

وأشارت له مرة أخري بتلك الإشارة غير المألوفة للانصراف، وانحني "عمر"، وترك المقصورة، وبعد بضعة أيام قال لي أنه أخذ علي عاتقه الدفاع عن وضعنا، وقال لها:

-إننا نخطط للزواج.
فقالت:
-أنت متزوج بالفعل!
فقال:
-القانون المصري يسمح بأكثر من زوجة للرجل الواحد.
فقالت سيدتي:
-لن تتزوجها، كيف سيكون حال مبروكة؟!
فقال:
-أستطيع القيام بواجباتي كزوج لامرأتين، وهذا لن يكون من الصعب بالنسبة لي.
وأبقي "عمر" صوته منخفضا، في حين ارتفع صوت سيدتي شيئا فشيئا، وقالت:
-إنها جاءت إلي مصر في خدمتي؛ لذا أنا من سيحدد مصيرها؛ فهي موظفة لدي.
فقال "عمر":
-سأتزوجها يا سيدتي.
فقالت: " يا "عمر" لقد خدعتك؛ فهي ذكية وسريعة، واستغلت طيبتك؛ فأنت لا تفهم النساء الأوروبيات، ولن أعطي إذني لذلك.
واستمع "عمر" وأحني رأسه في طاعة، وبعد لحظة قال وهو ينظر إلي سيدتي:
-سأتزوجها وسأكون والد طفلي
وبعدها ترك الغرفة بسرعة، ولا أشك في أن موقفه جعلها غاضبة؛ فلم يستطع أي عامل لديها أن يتحداها علي هذا النحو من قبل.
وبعد بعض الوقت تجرأ علي إثارة موضوع زواجنا، وتخلت سيدتي عن أي تظاهر بالهدوء، وصرخت في وجهه قائلة:

-إنها تخدعك يا "عمر" كما خدعتني أنا أيضا، ولن تفلت بخداعها هذا، ويجب أن تغادر؛ فهي لا تستطيع البقاء معنا في البيت الفرنسي؛ حيث كنت سعيدة جدا، وفي البيت الفرنسي سأعيش حياتي المدمرة في سلام، قد رتبت لهذا وكتبت بالفعل ل"جانيت"، وسأدفع تكاليف سفر "سالي"؛ نعم سأرسلها بعيدا، سأجعلها تعود إلي انجلترا.

وعمر! ماذا قال؟ لم يقل شيئا، ولكنه سيجد وسيلة ليغير رأي سيدتي، وقال حينما كان يضمني بين ذراعيه في البيت الفرنسي بعد إخباري بتصميم سيدتي على إرسالي بعيدا:

-سأجد وسيلة لإبقائكم في مصر.

الفصل الثاني عشر

قضيت ساعات طويلة وحيدة في غرفتي مع "عبد الله" وأنا أشعر بالقلق، تمر ساعات طويلة وأنا أشعر بذلك ويغمرني اليأس، ومن أجل "عمر" حاولت أن أرسم علي وجهي الشجاعة، ولكن كان هذا صعبا، وشعرت كما لو أنني في الثانية عشرة من عمري، وتوفي والدي للتو فقط، وأن الجميع تخلى عني مرة أخري، و"عبد الله " يذهلني بجسده الصغير الدافئ وجوعه وحاجته إليَّ، ويأتي "عمر" لرؤيتي في وقت متأخر من الليل، ولكنني دائما ما ينتهي بي الأمر وأنا أحثه ليمدني بالمعلومات لرغبتي في أن يقول لي كل شيء أصبح علي ما يرام، وعلي استعداد أن يقولها مرة واحدة وإلي الأبد:

-استمعي إليَّ فكل شيء علي ما يرام.

ولكنه لم يفعل، ولم يستطع فعل هذا، وبعد قضائه ساعة أو ساعتين معي، و"عبد الله" يظهر لي نفاد صبره من أسئلتي، وينسحب بعيدا ليعود إلي سيدتي.

أستطيع تخيلها علي الجانب الآخر من البيت الفرنسي وأخبرني "عمر" أنها ليست علي ما يرام بالرغم من تحسن حالتها الصحية كثيرا عما كانت عليه علي ظهر "دهبية" قبل عيد الميلاد، واعتبرته يقصد أنها ستجن قليلا مثلي، علي ما يبدو، فأنا لم أستطع منع نفسي من تقاسم الأشياء مع سيدتي، ويمكنني تخيلها بوضوح كبير وهي مستلقية علي أريكتها بجانب طاولة الكتابة، وأوراقها في حالة من الفوضى؛ حيث أسقطت الحبر علي كومة من الدفاتر النظيفة، فهي لا تستطيع أن تتأقلم على أي شيء أو مع أي شخص؛ ولا تستطيع إحراز تقدم في مقدمة كتابها الخاص بالرسائل، ذلك الكتاب المقرر نشره في غضون أسابيع قليلة، ويجب أن ترسل شيئا لوالدتها في أقرب وقت ممكن؛ فالصداع يتملك رأسها، وجنبها يؤلمها، ولكن ما هو أسوأ من ذلك، أنها منزعجة جدا، والستائر مفتوحة وهي تريدها مغلقة، والأثاث بغرفتها بحاجة للتلميع، إنها تشعر بالجوع والعطش والبرد ولا تشعر بالراحة ولا يوجد شيء كما ينبغي أن يكون ؛ ليس في البيت الفرنسي فقط بل بكافة أرجاء مصر.

وأخبرني عمر أنها تدعوني:"بتلك الفتاة البائسة وطفلها الصياح." وهو يحاكي أسلوبها وهي تقول:

-عمر، تعال هنا!

وأكمل عمر:

-فذهبت كالعادة؛ فأنا مخلص، ولكن بعد ذلك سألتها: "متي ستسمحين لنا بالزواج.".

وفوجئت سيدتي بتصميم "عمر" علي هذا الأمر وعلي موضوع زواجنا فسألته:

-لماذا؟ لماذا تصر علي هذه الحماقة؟ إنك تخاطر بكل شيء

عملت من أجله، ولا يمكنك الزواج دون إذن مني، ولن أمنحك إياه.

فقال "عمر":

-ستكون زوجتي؛ فعبد الله طفلي.

وقالت سيدتي:

-لقد وعدتها، وأن تخلف وعدك شيئا يتعدي كرامتك؛ فإنك تخشي أن تخسر مظهرك، وهذا هو ذكاء "سالي"... لقد أوقعتك في شباكها، وكلانا يعرف هذا؛ فقد كانت هذه خطتها منذ البداية.

وقال "عمر" لي أنه لم يرد علي هذا، وتحدثت عن كرامته، ولكنه كان مخالف لكرامته بأن يتجادل مع سيدته؛ فهي تستطيع أن تسيء له بالكلمات، ولكنه لن يرد عليها، وأحببته أكثر عندما رأيت الحقيقة في ذلك، ولم أتخيل أنه قد يري في زواجه مني مصلحة بأي حال من الأحوال كجزء من خططه لمستقبله أو إضافة إلي قائمته الطويلة من المهارات والإنجازات في الحياة.

ولم أجرؤ علي الأمل في أي شيء يتجاوز مستقبلي في الحياة، وأصبحت عكرة المزاج وصارمة وعبوسة الوجه، ولكن "عبد الله" رفع معنوياتي مرارا وتكرارا كل يوم؛ حيث لم يسبق لي التفكير في أنه سيكون لدي أطفال، وحتى عندما حملت، لم أدرك ما يعنيه وجود طفل؛ فأنا أحب "عمر" بصورة لم أتوقعها، وأطلعتني علي العالم، ولكنني أحب "عبد الله " بصورة أشد ضراوة وأكثر اكتمالا مما يمكن أن يكون عليه العالم في أي وقت مضي، وقرار السيدة "داف جوردون" بأنني سأتخلى عن "عبد الله" لزوجة "عمر" الأولي، وأذهب أنا إلي انجلترا كان بمثابة حكم بإعدامي.

دخل عليَّ "عمر" في يوم في نهاية شهر يناير في غرفتي وقال:

-سالي، حبي، سنتزوج غدا.

وجعلتني كلماته أدور بالغرفة وأرقص مع "عبد الله"، ورقصنا قليلا قبل أن أعطيه لوالده، وقمنا نحن الثلاثة بدورة سريعة، سنتزوج أخيرا، إنه انتصار صغير، وربما الخطوة الأولي نحو إيجاد وسيلة لتغيير قدري كما هو محدد من قبل سيدتي، وفي اليوم نفسه، لم يكن هناك موسيقيون أو غناء ولا موكب يمر بالقرية ولا أخوات ولا أبناء عمومة لرسم يدي وقدماي بالحناء أو لمساعدتي في تثبيت حجابي، وقام الشيخ "يوسف" بأداء الشعائر في الغرفة الأمامية من البيت الفرنسي، وكانت السيدة" داف جوردون" هي شاهدتنا المترددة.

وارتديت شالا أحمرا، وضعته فوق رأسي كما يحدث في حفلات الزفاف بالبلدة التي حضرتها مع سيدتي، وبعد ذلك قدم "عمر" الطعام بنفسه، وكان قد جهز بإحدى زوايا الصالون وسائدا للطفل ولي، وجلس الشيخ "يوسف "وسيدتي يتحدثان بالجانب الآخر من الغرفة، وتعجب الشيخ، علي الرغم من أدبه، بوضوح من عدم وجود حفل، وسأل سيدتي قائلا:

-لماذا لم يتم دعوة أي شخص آخر؟ ووجه ابتسامة -عبر الغرفة- لي، وبطبيعة الحال، لم أجرؤ علي الكلام، وأجابت سيدتي قائلة:

-هذا ما أراداه، كان هذا ما يريدانه نظرا لوصول الطفل المشئوم قبل يوم الزفاف.

وصدمت عندما وجدتها تكذب بسهولة، وفهم الشيخ "يوسف"، ولم يسأل أي أسئلة أخري، وبقيت جالسة في صمت، وبذلت سيدتي قصارى جهدها لتتجنب النظر إلي وجهي، بينما ناقشت مسائل القرية مع الشيخ الشباب.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وصل "مصطفي أغا" ومعه حمل مذبوح كهدية، وطعام مجهز ومعد بصورة جميلة، ولكن بحلول ذلك الوقت، كنت قد عد ت إلى غرفتي مع طفلي، وعمل "عمر" علي تقديم الشاي لسيدتي وأصدقائها كأنَّ شيئا لم يحدث كما لو أنه لم يكن يوم عرسه، وأخبرت سيدتي "مصطفي آغا" أن الطفل سيذهب ويعيش مع "مبروكة" زوجة "عمر" وهو ينفخ النارجيلا وأومأ قائلا:

-سالي أيضا ستكون موضع ترحيب في منزل والد عمر.

فقالت سيدتي:

-لا، هي ستترك الطفل في القاهرة وتعود إلي انجلترا.

وشعر "مصطفي" أننا نواجه سوء فهم فقال:

-لا لا لا ! فزوجة "عمر" الأولي سترحب بالثانية؛ فأم أولادي فعلت نفس الشيء مع زوجتي الثانية، والأسرة المصرية يمكن توسيعها، وستكون علي ما يرام.

فأجابت السيدة قائلة:

-إنها ليست علي ما يرام.

وقال "عمر" أن "مصطفي أغا" أخمد غليونه وهو يستمع لكلام سيدتي، بينما أكملت كلامها قائلة:

-سالي جلبت العار لنفسها وعائلتها، ولن يسمح لها بتدمير "عمر" أيضا؛ فهي ستعود إلي انجلترا.

فاستهان" مصطفي أغا" بذلك، ونظر إليها نظرة تعني أنه يعتقد أن الإفرنجيين يصعب فهمهم حتى المتعاطفين مثل سيدة "داف جوردون"، واستأنف تدخينه، وضحكت باستخفاف، وحاولت التظاهر بأن هذا بالضبط ما ينبغي أن يحدث، وعاد "عمر" مرة أخري إلي المطبخ، وبعد ذهاب "مصطفي أغا"، تحدثت سيدتي مع "عمر" مرة أخري قائلة:

-لقد وافقت علي زواجك في محاولة لتجنب حدوث مزيد

من الفضائح في القرية؛ فأنا سأحيا هنا ولا أنوي أن يصبح عار "سالي نالدرات" هو عاري.
فلم يرد "عمر"، ولكن في تلك الليلة، ليلة زفافنا جاء إلي غرفتي مباشرة بعد نوم سيدتي، ولم يتركني مرة أخري حتى شروق الشمس، وقد بذلت سيدتي ما تستطيع لتتأكد أن يوم زواجي كان يوم تكفير ذنب وغم لي إلي أقصي حد ممكن، ولكن لم تنجح؛ حيث طار قلبي من الفرح في ذلك اليوم، وكان الفرح يملأ قلبي بصورة لا يمكن احتوائها حتى كاد أن ينفجر بداخلي، والحق يقال، فأنا لم أكن أهتم بحفل الزفاف وزخارفه سواء كان مصريا أو انجليزيا؛ فقد تزوجت أنا و"عمر"!
وامتلك أمري بالزواج، وقلنا عهودنا، وأعتقد أننا سنحافظ عليها، ولم يكن لديَّ أي فكرة عما سيكون عليه زواجنا، ولا ما سيكون عليه مستقبلنا، ولكننا كنا متزوجين؛ أنا "سالي نالدرات" الخادمة العانس، ولكنني لم أعد كذلك، وسلطت شمس مصر كلها عليَّ في ذلك اليوم وأعتقد أنني لن أشعر بالبرد مرة أخري.

وانقضت الأيام وازدهرت بهذا الطفل، بينما ذبلت وبقيت في غرفتي مع الطفل بناء علي إصرار سيدتي، ولم نغادر البيت الفرنسي، ولم نظهر وجوهنا في القرية، وفي الليل، ومرة أخري، ولمزايدات سيدتي، كان "عمر" ينام علي الأرض خارج غرفتها، والباب مفتوح في حال احتياجها لشيء، وبدأت تخاف من الليل الآن، لم تكن تخاف من الليل قط، ولا في أصعب جولاتها مع المرض، وكثيرا ما استيقظت ونادت علي مرافقها، وكان "عمر" يذهب إليها مسرعا، ومرضت مرة أخري، وصارت أضعف يوما بعد يوم، وبدأت تعود إليها الأعراض المألوفة واحدا بعد الآخر، ولكنها لم تسمح ل "عمر" أن يأتي بي لمساعدته في علاجها،

وعندما بكى الطفل، وكان الصوت مكتوما بسبب المسافة بين الغرف، قامت بشجب هذا الصوت، وقالت:

-ما صوت مواء القطط هذا ؟ هلا يعيد شخص ما الهدوء للبيت، رجاء!

ولم ينجح أي جهد بذله "عمر" في إحداث تغيير بصلابة مشاعرها ليجعلها تري الطفل، وكان مرضها شيئا مروعا، وطبعا هذا غني عن الكلام، ولكن حقيقة أنه يأتي ويذهب على وتيرة خاصة به، كان دائما يبدو لي أمرا قاسيا، وكانت تصارعه لسنوات، والآن ستضعف وتضعف ويصيبها المرض أكثر فأكثر؛ حيث السعال المصحوب بالدم، وفقدان الوزن السريع ورئتاها اللتان تصدران صوتا في صدرها مثل انشقاق عودين من الخشب المشقوق والمرض أكثر فأكثر حتى اعتقدنا جميعا أن موتها حتمي؛ فهي بالتأكيد ميتة تقريبا، وبعد ذلك تراجع المرض، وتماثلت للشفاء خلال أشهر قليلة؛ حيث تم لفها في بطانية في ضوء الشمس، وعاد لها لونها تدريجيا وكذلك شهيتها، ثم أصبحت بخير مرة أخرى وبصحة وعافية وقوة، أو بالأحرى ستكون قادرة علي إعطاء انطباع أن حالتها علي هذا النحو، وهكذا كنا في دوامة لا نهاية لها، وبعد كل جولة تتماثل للشفاء إلى حد ما، ولا يمكن القول كم ستدوم كل نوبة أو مدي صعوبتها؛ ففي بعض الأحيان تصبح علي حافة حالة مرضية خطيرة، ثم تتحسن ويذهب المرض شيئا فشيئا، فلا يمكن التنبؤ به؛ فهو بغيض ولن يكون هناك إدراك لوقعه عليها، والآن في بعض الأحيان أعتقد أنه ربما كان هذا المرض يؤثر على حالتها المزاجية بالسلب وينعكس ذلك على معاملتها لى، ولكن الحقيقة هي أنني فعلت الكثير لها وأستحق عفوها عنِّي.

وبعد ظهر أحد الأيام، عادت سيدتي إلي المنزل في وقت مبكر، بعد رحلة لزيارة "مصطفي آغا" في منزله عبر نهر النيل، ولم

يسبق وصولها وصول "أحمد" يلهث كما جرت العادة؛ فهو يحب أن يكون أول من يصل في أي مكان، وكذلك أول من يغادر، وكان يلهو في القرية، وتخلف عن الموكب الصغير، وعثرت سيدتي علي الطفل نائما في سلته في منتصف الصالون، ولابد أنها أدركت علي الفور أن "عمر" معي، وأول ما سمعناه كان تعبيرها عن انزعاجها؛ فارتدي "عمر" ثيابه مسرعا، واندفع للخارج ليحيها، ولم يكن قميصه قد أغلق كاملا، ووقفت علي مدخل غرفتي لأستمع، وكانت سيدتي تقف فوق سلة الطفل، وتحدق في وجهه، ثم قالت:

-طفل قبيح.

وقالت:

-إنه لا يشبهك يا "عمر"، هل أنت متأكد أنه ابنك؟

وكان شهيقي مسموعا لكليهما علي حد سواء، وصمت "عمر" للحظة طويلة، ثم قال:

-هل أنت مستعدة لتناول فنجان من الشاي؟

وأغلقت باب غرفتي، وتراجع أي أمل كان لدي بعد زواجي بسرعة.

وفي الأسبوع الذي أعقب هذا الحادث، أقنعت سيدتي نفسها أنني أحاول إقناع "عمر" أن يطلق "مبروكة" بحيث أكون زوجته الوحيدة، ويمكن الاعتراف بزواجي في القانون الانجليزي، وقال "عمر":

-لا شيء، لا شيء.

ولكن نفيه لم يقنع سيدتي بخلاف ما تعتقد، وتوسلت إليه لإقناعها بالاستماع لي، والسماح لي بالتحدث معها، وبذل قصارى جهده، ولكنها لم توافق قائلة:

-لا تسألني مثل هذه الأشياء.

وفي أحد الصالونات ذات مساء - تلك الصالونات المرحة والبهيجة مثل أي وقت مضي، وبقدر ما كنت أسمع، لم يكن هناك مأساة تجري داخل البيت الفرنسي - أصرت سيدتي علي أن الشيخ "يوسف" والقاضي "سليم "أفندي يشرفا علي آخر قراراتها، وسألت "عمر" الوقوف أمامها، بينما تقرأ القرار قائلة:

÷ إنك لن تطلق" مبروكة" يا "عمر".

ثم نظرت إلى ضيفيها، مضيفة:

÷ أنتما شاهداي؛ فمثل هذا الظلم القاسي لن يحدث، وإذا حدث، فسأتأكد من أنك يا "عمر" قد خسرت وظيفتك في بيتي؛ فالقانون الانجليزي يعترف بزوجتك الأولي فقط، وزواج" سالي" لا يتم الاعتراف به علي هذا النحو، ولن يعترف به أبدا، و"سالي" في نظر القانون الانجليزي زانية.

ذهل القاضي ولم يلاحظ نظرة الشيخ" يوسف" له، وقال:

÷ ليست هناك حاجة لهذا سيدتي "داف جوردون"؛ فالقانون الانجليزي لا يطبق في مصر، وإنما تقلقون من الخديوي، وأظن أن وجود زوجتين ل"عمر أبو حلاوة" لن يزعج "إسماعيل باشا" كثيرا.

ووقف "عمر" مثبتا كفيه خلف ظهره، ولم يقل شيئا، ولم يأتِ إلي غرفتي في تلك الليلة ولا الليلة التالية أيضا، وملأني اليأس والقلق، فهل من الممكن أن أفقد "عمر" علي الرغم من زواجنا؟

وعندما جاء في صباح اليوم التالي لجمع الغسيل، غادر مرة أخرى دون أن يمنحنا وقتا للتحدث معا، ودون تحية ابنه، وعندما ذهب نحو الباب أمسكت بذراعه فدفعني بعيدا بشدة، فقلت:

-ماذا تفعل؟!

حيث آلمني صدري مكان ضربته لي، وقال:
-لديَّ واجباتي.
فقلت:
-لماذا لا تأتي لرؤيتنا؟
فقال:
-إنك تطلبين الكثير.
فقلت:
-أطلب الكثير؟! أنا لا أطلب أي شيء.
فتوقف وانحني وقال:
-لقد أذلتني.
فقلت:
-يجب أن تبقَ قويا يا "عمر"، ويجب عليك البقاء قويا من أجلي أنا و"عبد الله".
وغادر الغرفة بعد ذلك، ولم يعد إلي فراشي لأكثر من أسبوع. ولم أرد أن يطلق "عمر" "مبروكة"، ولم أقترح شيئا من هذا القبيل، وأعترف بتفكيري في أنني أريد "عمر" لنفسي، خصوصا خلال تلك الأشهر، ونحن في القاهرة بانتظار وصول السير "أليك"، عندما شعرت أنه قادر على الابتعاد؛ حيث توجه لقضاء فترة بعد الظهر مع أسرته، ويعود من تلك الزيارات ورائحته نظيفة ومنعشة كما لو كان قد استحم في ماء ورد وزيت البرتقال، ومزاجه معتدل، وينقل لي أخبار منزله، ويبتسم ويضحك ويطارد غيرتي، وقال لي كل شيء عن والديه والفتاة الصغيرة "ياسمينة" و"مبروكة" أيضا، وأستطيع تصور أنها سمراء وصغيرة وجميلة؛ إنه يعتبر أمرا مسلما؛ حيث أريد أن أسمع عنها، وقال:
-إنها خجولة جدا وهادئة للغاية وزوجة صالحة.
ثم يضحك ليغيظني، وينظر في وجهي ويضحك ويقول:

-سوف تتقابلا عندما نتزوج.
ومن ثم خمنت أنه لم يخبرهم أيضا بسرنا، وأنه استمر في أداء واجباته الزوجية، وقلت لنفسي إن مصر لم تكن انجلترا؛ فكل شيء في مصر علي عكس أي شيء في الأراضي الانجليزية بما في ذلك "عمر" وزواجه، وعلاقته معي، وأكدنا لبعضنا البعض أن كل شيء سيكون علي ما يرام، ووعدنا بعضنا البعض أن المستقبل سيكون أمامنا؛ حيث سنكون المتحكمان في مصائرنا وفي الواقع، كان "عمر" سيد بيته الخاص به، ولا أستطيع وضع حد لذلك، بينما كنت سيدة لا شيء؛ ففي ذلك الخريف بمنزل القاهرة، قد أتيحت لنا خصوصية كبيرة مثل البيت الفرنسي في الأقصر؛ حيث رقدت سيدتي لتدهور صحتها بسبب المرض قبل وصول السير "أليك"، وبعد ذلك، ما هي الكلمة الصحيحة؟ حزن عميق بعد مغادرة السير "أليك"؛ حيث كانت تخلد للفراش مبكرا وتنهض في وقت متأخر، وتركت ليالي القاهرة الطويلة المتألقة ل"عمر" ولي.

في البداية، كان غريب علي الشعور بالعاطفة والشعور بالحب؛ وبمجرد أن تذوقتهما صرت أنهل منهما حيث كانا ما أفتقده منذ وفاة والدي؛ فلم تستطع العمة "كلارا" تربيتي أنا وأختي، وأرسلتني إلي الخدمة في سن صغير، ولا يوجد شخص بالعالم يهتم بأمري وإنما أنا فقط من تهتم بأمر غيرها، وتساءلت، وربما جازفت باعتقادي بأن سيدتي لديها ولع مميز تجاهي، ولكن بعد كل هذه السنوات كنت خادمتها، ولم أجرؤ علي التعبير عن زعمي بمحبتي، وبعد كل شيء؛ فقد دفعت ثمن ما قدمته، وهل سألت نفسها؟ فلا أشك أنها قد ادعت محبتي؛ فسيدتي تمنح الحب والعطف بسخاء وكرم، وتلهم المثل في المحيطين بها وتعامل الناس في منزلها جيدا، وكان الشعور

بالتميز لخدمتها من سمات خادميها في انكلترا وفي مصر، ولكن الآن، انتهي كل هذا واستمرت رغبتي في أن أبذل قصارى جهدي لمواصلة القيام بكل ما يمكنني القيام به في المنزل، وأنا بعيدة عن طريق سيدتي، ولكن قصارى جهدي تآكل وانتهى بإذلالي و"عمر" بجواري فبقيت في غرفتي، وشغلت نفسي مع "عبد الله" في انتظار "عمر"، وأصبحت غرفتي هي زنزانتي، وأخيرا، وبعد فترة شعرت أنها كالدهر، وفي وقت متأخر ذات ليلة، عندما نامت سيدتي، عاد لي "عمر"، عندما رأيته علي عتبة الباب هرعت إلي ذراعيه، وقال وهو يهمس لي:

-زوجتي وحبيبتي وزوجتي.

الفصل الثالث عشر

نشر كتاب سيدتي خطابات للوطن في انجلترا، وحقق مكاسبا، كما يحدث لأي شخص آخر، وقالت ل"عمر" أنها سعيدة للدخل الذي حققه، ولكن في عالم الكتب، قام الكتاب بتفجير حياة أدبية في لندن لأديبة هي بعيدة عنها في ذلك الوقت، وكان هذا غريبا وغير واقعي كما كانت الأقصر نفسها ذات مرة؛ فأثناء حياتنا في انجلترا حدث مثل هذا، عندما يسلط الضوء علي صاحب الكتاب، وعلى إثرة يقام احتفال كبير يجمع جميع الأطراف ويتم تناول العشاء والقيام بالرحلات، وكان النقاد يثيرونها؛ وسعدت لمعرفة آراء أصدقائها من الكتاب، ولكن في الأقصر قد مر يوم النشر ولم تتذكر أن تضع عليه علامة لتتذكره، وفي هذا اليوم أخذت كوبا من الشاي بالنعناع، وقالت ل"عمر":

-أشعر أنني أصبحت عربية أكثر من كوني أوروبية، ولكن

هذا الشعور وهذه المعرفة التي ألممت بها مهمة بالنسبة لي بقدر ما يعنيه لي أي عمل تم نشره.

وظل الضيوف غير المرحب بهم يتوافدون في هذا الربيع، وأصبح البيت الفرنسي وجهة تستحق الزيارة كوادي الملوك عقب نشر كتاب سيدتي، وأخبرني "عمر" أن سيدتي قالت له:

-الحقيقة هي أن كتابي سيساعد السير "أليك" علي سداد فواتيري، فكلما زاد عدد النسخ التي يتم بيعها، كلما كان ذلك أفضل، ولكني لم أتخيل أنه سيكون بمثابة دعوة إلي كل من في لندن أن يأتوا لزيارة العجوز المدمرة.

وقال "عمر":

بالطبع لا.

فقالت:

-أنت لا تحب الترفيه بعد كل شيء.

فقال:

-لا.

وضحكت سيدتي وقالت:

-'لا تغيظني!

وبطبيعة الحال كانت زيارة الضيوف ترفيه؛ حيث من الأفضل لسيدتي أن ترى أصدقاءها وأصدقاء الأصدقاء، حتى البارونة "كيفينبرينك" والسيد والسيدة "هوبسيتي" قد مروا علينا واستقبلتهم سيدتي بشكل لائق، وهم بدورهم دعوها لحفلات العشاء علي متن "دهبية"، ورحلت سيدتي علي ظهر الحمير للوصول إلي مرسى مركب "هوبتون" بقيادة "أحمد" الذي قال لي في وقت لاحق أنه عثر علي بقعة جميلة مريحة علي ضفة النهر ليغفو بها، بينما كان ينتظر سيدته، وفي بعض الأحيان أثناء زيارة اللورد "دادلي"، كانت سيدتي تقيم مأدبة عشاء كبيرة، وترسل "عمر" ليطهي ببزخ، وقامت بدعوة

أروع أصدقائها بالأقصر الذين أتوا ليلقوا نظرة علي آخر رجل انجليزي نبيل، وهو يقوم برحلة عبر بلدهم، ولكن هذه الحفلة لم تنجح، وأخبرني "عمر" بأن اللورد" دادلي "أدهش جميع الحاضرين بافتقاره للآداب، وضحكته الكلابية، وحديثه العاصف، وتعامل بصلف، وتحدث مع "مصطفي أغا"، عندما وقف القنصل لتحيته، ومن خلال هذا، بدا أنه لا يستطيع حتى أن يدرك كيف يمكن للمرء أن يعامل الآخرين، وترك وحيدا ليحادثه السكان الأصليين، ووصل وريث ثروة "وتشيلد" ذو الأربعة عشر عاما، وهو أمير ينتمي للأسرة المالكة يسافر في باخرة ضخمة مع تشجيع كبير ونفقاته يدفعها" إسماعيل باشا"، وكان مرافقه الخاص هو "محمد الرشيدي"، وهو رجل محترم ومسن، وأصابه المرض خلال رحلتنا إلى النيل، وعلي الرغم من حقيقة أن هناك طبيب يسافر مع المجموعة، فإن "وتشيلد" الصغير قد اتخذ قراره بأن يترك الرجل المسن في الأقصر وتخلي عنه وأعطاه أجره ومبلغا ضئيلا يكفي لإعادته إلي القاهرة، وتعاطفت سيدتي مع الرجل المسن، واقتادوه إلي البيت الفرنسي؛ حيث راعته هي و"عمر"، ولكنه عانى من حمى شديدة، وتوفي بهدوء في ليل يوم ما، ووجهت سيدتي وجهه إلى الكعبة، وأخذ الحاضرون بما فيهم "عمر" يرددون دعاء، لا إله إلا الله، وغسلت جثته، وخلال ساعة ونصف، كانت ملفوفة في الكتان، وكان يحملها الرجال إلي مكان الدفن، وشاهدت هذا من نافذتي، والجميع في القرية شق طريقه من خلال الأحجار العملاقة، وأعمدة المعبد إلي المسجد لأداء الصلاة، وعندما انتهوا، خرجوا إلي المقبرة لدفن الرجل المسن وسيدتي بقبعتها الإفرنجية وطرحة، ونساء القرية محجبات ويقمن بالعويل، وعندما عادوا إلي البيت الفرنسي، تلا صبي من القرية القرآن في الغرفة؛ حيث مات "الرشيدي" وصوت الصغير لم ينقطع،

وكان قويا وجميلا، وفي وقت لاحق، وصف "عمر" اليوم لي، وكنت دائما متشوقة لسماع أخبار خاصة بالبيت والقرية، وذكر "عمر" أيضا أن العديد من هؤلاء الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء بدا أنهم يعرفون كل شيء عني وعن وضعي، وأخذوا علي عاتقهم تقديم المشورة لسيدتي؛ حيث يعتقد البعض أن قرارها قاس جدا، والبعض الآخر يراه متساهلا للغاية، وقال "عمر" أنَّ الإجماع الحقيقي علي شيء واحد، وهو أن لا أحد يعتقد أن سيدتي يجب أن تفكر في الاستمرار بالعيش في مصر دون خادمة.

وبالطبع لم يُسمع "عمر" وهو يحاكي أسلوب السيدة "هوبتون"؛ فقد كان كارثة هذا فضلا عن ما أخبرني به "عمر" عن وصول رسائل سيئة حول هذا الأمر؛ فقد بدأت رسائل من عائلة سيدتي تصل؛ فالسيدة "روس" والآنسة "جانيت" علي وجه الخصوص كانتا مرنتين، وكانتا تريان أن سيدتي مخطئة، قال لي "عمر":

-مخطئة في استبعادك.

ودق قلبي قليلا؛ فالآنسة "جانيت" في صفي، وسألته:

-حقا؟!

فقال:

-نعم لقد قرأت سيدتي لي هذه الرسالة.

فقلت:

-وماذا تقول سيدتي؟

فقال:

-رفضت هذا، ولكن الآنسة "جانيت" تصر أيضا علي أن تحصل سيدتي على خادمة جديدة علي الفور.

وكانت هذه هي القضية، وليس سوء حظي أو مصيري، ألهذا الحد أصبحت قضيتي هي قضية الساعة، ولم أتوقع أن يدافع

عني أي فرد من أفراد أسرة "داف جوردون" ليس علي محمل الجد، ولكن حتى مع ذلك وأدهشني سماع انتقال خبر المأزق الواقعة فيه أذهلني؛ فطوال هذه الفترة وأنا ألتزم بطاعة الأوامر، وبقيت في غرفتي مع "عبد الله"، وقمت برعاية طفلي بتفان كالذي منحته ذات مرة لسيدتي؛ حيث أخيط ثيابه وأبقيه نظيفا، وفعلت كل ما في وسعي لجعله راض وسعيد؛ وبالتالي يكون هادئا، وكان هدفي الآن جعلها تنسيً أنني والطفل في البيت الفرنسي، وجعلها تشعر أننا غادرنا بالفعل وذهبنا بعيدا، وهمست ل"عمر" في ساعة متأخرة من الليل:

-نجعلها لا ترانا ولا تسمعنا؛ وبالتالي لن تفكر بنا وسيكون لا وجود لنا، وإذا كان لا وجود لنا، فلن نضطر للمغادرة.

وطلبت من "عمر" أن يجلب لي مزيدا من العمل حيث يمكنني أن أساعده في واجباته؛ فأنا أعرف كم العبء الواقع عليه، وقاوم في البداية، وطلب مني تكريس نفسي بالكامل لطفلنا، ولكن في نهاية المطاف لان وأحضر لي ملابس سيدتي لإصلاحها، وهكذا جلست أخيط وأطعم طفلي وفتحت نافذتي لأسمح لشمس الربيع بدخول الغرفة علي أمل أن تذيب وحدتي، آملة أن أصبح في منزل مزدحم بالمسئوليات، ولكن الأمل ذهب بعيدا؛ فكيف سيصبح مصير خادمة ماهرة وكادحة أسوأ مما أنا فيه ؟!

كبر "عبد الله" بسرعة، ورقد علي ظهره، وأخذ يفحص أصابع يديه وقدميه كما لو أنها كائنات عجيبة، وحقيقة هي كذلك بالنسبة لي أنا و"عمر" أيضا، وكان يبتسم ويتطلع حوله، ويتلوي بسعادة مع دخول كل شخص للغرفة، وسمعت صوته الطفولي، وأخذ يصدر صوتا باستمرار كما لو أنه يشارك في محادثة جارية، وفي يوم قلب نفسه عن طريق الخطأ من علي

ظهره إلي بطنه وأصبحت ذقنه علي الأرض، فصرخ بدهشة من وضعه الجديد بقدر ما كان يصرخ من الألم، وهذا كل ما قمت به لكبح جماح نفسي من الاندفاع للخروج من غرفتي بالبيت الفرنسي، فزرعت الحب له واحتضنته وغنيت له ووقفت علي النافذة حيث أستطيع مشاهدة كل ما يفوتنا في القرية وصرخت يوم ميلاد "عبد الله"، وأحدثت ضوضاء في ليلة واحدة أكثر مما تسببت بها طوال حياتي، ولكني بعد هذا لجأت إلي الصمت، هذا الصمت أصبح أعمق وأكثر ظلمة وأثقل، كما أصبحت أيامي مظلمة وساكنه كلياليَّ، وهمس"عمر" لي بالعربية يخترق لياليَّ وكل كلمة مثل نجمة تحترق ثم تسقط؛ فأنا لا أتحدث الانجليزية الآن، ولا أسمعها في الواقع كما لو كانت لغتي تذبل وتختفي، وكنت أغني ل"عبد الله" أغاني الأطفال والتهويدات بالانجليزية، ولكن المحادثة لم تكن سوى شيء يعد هدية من سيدتي نشتاق لها، وهذا الأمر لا أجده الآن، وفاجأتني تلك التهويدات؛ حيث بدت كما لو أنها عاشت داخلي كل تلك السنوات، والآن حان الوقت لتنبثق، ووجدت لدي مخزونا صغيرا منها، وكانت مختلفة عن تلك التي سمعت سيدتي تغنيها لأبنائها، ولم تشبه تلك التي سمعت النساء الأخريات ينشدنها لأطفالهن، بل كانت أغاني خاصة بي، وكانت والدتي تغنيها لي، وقد ماتت والدتي منذ فترة طويلة، وتلاشت من ذاكرتي، ولكن عادت مرة أخري من خلال هذه الأغاني، ومن خلال الطريقة التي وجدت نفسي أحب وأرعى طفلي بها، مما أعاد تجسيد والدتي.

ما يمكن ل"عمر" فعله هو كل شيء بالنسبة لي، والآن اكتشفت أن هذا لا يعني شيئا؛ فلم يكن هناك شيء يمكنه فعله لإنقاذي، وقد تولي عمل شخصين، حيث قام بالطبخ وتدبير

أمور المنزل، وعمل كخادم لسيدتي، وأضاف سيل الضيوف الذي لا ينتهي الأعباء إلى عمله، لكنه لم يعترض، وكان شديد الحذر كالرجل القادم في موكب إفرنجي، وإلي جانب ذلك، فضيوف سيدتي ساعدوا علي شغلها عن الوضع الداخلي شريطة ألا أكون موضوع الحديث؛ فعندما تغير سيدتي موضوع الحديث يخيل إليَّ أنني و"عبد الله" في أمان .

عاش "عمر" الكثير من صور الحياة المختلفة في وقت واحد، لدرجة أنه قال ذات مرة أنه قلق من التشويش في بعض الأحيان، وقول الشيء الخطأ إلي الشخص الخطأ في المكان الخطأ، ولكنه لم يفعل؛ فقد شاهدته وهو ينزلق بين تلك الأدوار المختلفة بكل سلاسة عندما يقتضي الوضع ذلك مثل أي موظف يمتلك الإصرار، ومضت فترة طويلة منذ اعتياده علي أن يكون رجلا واحد ايخدم مجموعة من الناس، ويستطيع القيام بمستجدات الأمور.

كان رب الأسرة في حياته الأولى قبل لقائه بي، وابن وزوج وأب علي الرغم من أن زوجته" مبروكة" بعيدة عنه معظم الوقت، ولكنها كانت محور حياته في القاهرة؛ حيث عاشت مع والديه وابنته الصغيرة" ياسمين"، ولم يكن من الصعب بالنسبة لي قبول هذا؛ فهو بهذه الطريقة منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه، وكان ل"عمر" دائما حياته الأخرى، ولكن نظرا للمسافة التي تفصلنا، كان من السهل أن يتم قبولها، ومن السهل نسيانها، وكان يعيش أدوارا أخرى أيضا بما في ذلك مرافقة سيدتي "دوف جوردون"، وحقق هذا المنصب إنجازا كبيرا.

قضي "عمر" حياته ليصل إلى هذه المكانة، وكان والده

يناضل للنجاة من الإيجار والضرائب، وعائلته تعتمد عليه لتأمين دخل مناسب، وعرف "عمر" أنه سيحفظ مكانه في أسرة سيدتي، إذا نفذ مهامه بحب ومهارة كافية، وهذا الأمر سيرفر له العديد من الفرص، وقد عمل لدى الأجانب من قبل، في القاهرة والأسكندرية؛ لذلك كان على دراية بهذا العالم، وقال لي أنه لم يتصور أن يجد نفسه مسئولا عن بيت مثل أسرتنا وسيدة مثل سيدتي "داف جوردن"، وهي ليست مثل أي امرأة قابلها من قبل سواء من الأجانب أو المصريين، قال أنها أكثر جدية، وأكثر علما، ورغم أنها امرأة فهي أرجل من معظم الرجال الذين يعرفهم، وتحب أن تجادل وتناقش، وقالت أنها تسعى لصحبة الرجال الذين يمكنها أن تتعلم منهم، وقالت أنها تصدت للإسلام بطريقة جعلته ينظر مرة أخرى إلى إيمانه الباهت.

وتغلبت علي مرضها كل مرة بقوة إرادتها التي تجاوزت التوقعات، وعلي الرغم من ذلك، ففي إحدى المرات الكثيرة أجد "عمر" يتراجع بتهور وعدم تفكير، وكل شيء بعلاقتنا يعد جديدا بالنسبة له كما هو بالنسبة لي؛ فقد قال:
-لقد غمرتني العاطفة، ودائما ما غمرتني عاطفتي، ولكنني لم أنل الفرصة للإفصاح عنها من قبل؛ فقد أفصحنا -أنا وعمر- عما بداخلنا لبعضنا البعض في السر بصورة خاصة، وقال أنه لم يتمكن من فهم سبب عدم زواجي، وعدم تكويني لعائلة خاصة بي؛ ولذا عندما أتته الفرصة ليفصح عما في قلبه، لم يتركها تضيع من بين يديه، ولام نفسه علي ما حدث، بالطبع فعل ذلك ولا يبالي رفضي لهذا، وهذا صحيح؛ فهذا الأمر ما كان ليحدث لو لم يبادرني هو به، وبمجرد أن بدأ تركه، يستمر، بل تركناه يستمر دون توقف وبدون تفكير، "هذا دفاعي عن نفسي" هذا

ما قاله لي ذاتِ مرة ونحن نرقد سويا وفعلنا ذلك دون تفكير، ولكنني لم أعطَ الفرصة من قبل سيدتي لقول دفاعي، و قال "عمر":

-لم أكن خائفا.

وهذا لا ينطبق علي؛ فبمجرد إدراكي أنني حملت الطفل، لم أظهر خوفي له، ولكنني أبقيته داخلي لينمو جنبا إلي جنب مع طفلي، وقلت:

-لقد انتصرت؛ فلدي الطفل ومستقبل.

وقال:

-هناك شيء واحد أفهمه الآن... هو أنك شجاعة جدا.

إن الطفل كان حياة سرية داخل حياتنا التي عشناها معا دون معرفة سيدتي، وكانت بدورها مخفية عن زوجة "عمر" ووالديه في القاهرة اللذين تطلعا إليه كابن صالح وقادر على تقديم مشيئة الرب " إن شاء الله"، وكان ل"عمر"هناك حياة كاملة لا يعرف عنها أحد من أسرته ولا حتى أنا؛ فقد عرفت عنها لمحات فقط، ولكن الحمل وولادة طفلنا جعلني أتجنب حياته التي أراها أمام عيني في ذلك الوقت، وكان هناك الكثير لأراه؛ فكلا من العثمانيين والفلاحين يظنون بالخطأ أن هذا البلد لن يتغير أبدا، ويخدعون بهذا التصور؛ ولكنه صحيح إلى حد ما؛ فمصر تتعرض للغزو منذ وقت فرعون، واحتلت وحكمت من بعيد وحتى الآن؛ فالخديوي العثماني "إسماعيل باشا"، الذي يدعي استقلاليته عن القسطنطينية يحكم الناس كما لو أنهم ضمن ممتلكاته الشخصية ليس الأرض، ولكن الناس في حد ذاتهم، وعلي الرغم من ذلك، يستمرون ويتحمل المصريون، مثل النيل نفسه من خلال التاريخ الأبدي للفيضان الذي يليه المجاعة والمجاعة تليها الوفرة، ولكن مع صحة كل هذا؛ فمن الخطأ أن

نعتقد أن ينشغل الشعب بالنيل وغمره للأرض بالمياه أثناء الفيضان، وهو غمر يفضي في الوقت نفسه للتدمير وإعادة الميلاد، وهم يستمرون في العمل مع ذلك غافلين مرور القرون، وبدلا من ذلك؛ فهم ينتظرون مثل عقرب علي صخرة، أو تمساح بين القصب، ولكنهم يتمردون من وقت لآخر ويثورون.

"عمر" هو رجل من دلتا مصر الخضراء ليس لديه ولاء خاص وهو يعيش سعيدا بين النيل والصحراء، بين الطين الأسود الرطب والرمال العظيمة البيضاء، ولكن في الأقصر قال أنه شهد السخرة والوحشية التي يعامل بها الفلاحون وزملائه المصريون بواسطة الباشا العثماني وهو في قصره في القاهرة، وشاهد القرى من حولنا وهي تفقد رجالها وهم يساقون إلى السويس لحفر الخندق الواسع الهائل الذي سيصبح في يوم من الأيام قناة السويس، وشاهد سرقة المحاصيل التي نمت، وكذلك الحيوانات والنساء والأطفال الذين تُركوا بالقرى، كما شاهد أخذ الجمال والخيول للقوات المشاركة في معارك الباشا في النوبة والسودان وفي منطقة الخليج، وأكثر من ذلك حدث؛ فعندما عاد إلي القاهرة مع سيدتي رأى المرحلة المحمومة من برنامج البناء حيث قالوا أن "إسماعيل" باشا سيجعل "القاهرة" مدينة تنافس "باريس" بشوارعها وقصورها وحدائقها، ولكن في الأقصر شهد "عمر" الثمن الحقيقي لطموح الباشا.

وفي القاهرة في الخريف قبل ولادة طفلنا، وجد "عمر" أصدقاءه في المدينة أحسوا نفس شعوره وبدأ يبذل ما بوسعه للمساعدة، ولم يكن ما يقدمونه كثيرا، حيث كانوا يمررون الرسائل ويتحدثون مع الناس، وكانت هناك شائعات فقط، ولكن "عمر" وأصدقاءه يعرفون أنه عندما يرتفع صوت

الشائعات بما فيه الكفاية فيمكن للشائعات أن تصبح حقائق، وكانت هناك شائعات في الجيش عن تمرد في صفوف القوات واستياء علي مستوى الرتب العليا بين الجنرالات؛ ومعظم الأشياء في مصر قد تستغرق وقتا طويلا لكي تحدث؛ فقد تستغرق ما يقرب من عشرين أو ثلاثين عاما أو حتى قد يمر مائة سنة قبل أن نرى تغييرا حقيقيا، ولكن هذه أيضا حقيقة جزئية أخرى ف"عمر" دائما ما يقول عن نفسه وبلده :

- نحن المصريون صبورون ونستطيع الانتظار.

هذا ما همس لي به في وقت متأخر من الليل، بينما كنا ننتظر تحديد مصيري، وبالطبع أبقى كل هذه الأفكار بعيدة عن سيدتي، ولكنها قضت عدة ساعات في شرفة منزلها تنظر على الناس بالأقصر، وكان لديها العديد من الأصدقاء الفلاحين والأشخاص المهمين بالقرية مثل "مصطفي آغا "، وكيل القنصل و"سليم "أفندي القاضي، والشيخ "يوسف" ؛ وكانوا زوارا دائمين لصالونها، وتحدثوا بالسياسة طوال الوقت وسمعتهم، ولكنني لم أكن مهتمة، وكانت سيدتي تتحدث بالسياسة أينما كانت سواء في مصر أو انجلترا أو ألمانيا، وشاهدت ما يحدث في الأقصر والقرى المجاورة، والحقول لا يوجد بها رجال، والحيوانات طوقت وسيقت بعيدا، ولاحظت هي ذلك وقامت بفعل أقصى ما يمكن أن تفعله؛ حيث رفعت صوتها احتجاجا علي ذلك وتجادلت مع أصدقائها في الأقصر، وعندما شاهدت قلة ما يستطعون فعله؛ بسبب خضوعهم لأهواء الباشا مثل أي فلاح متواضع، كتبت رسائل إلي الوطن، و كانت تجلس في مكتبها بالمنزل الفرنسي في الصباح الباكر حيث الضوء شديد، ولكنه ليس ساطعا، وذات يوم أحضر "عمر" مسودة جزئية لأحد رسائلها لي لأقرأها: "المكان كله خراب، ويتعرض الرجال للضرب؛ مرة بسبب أن الإبل ليست

جيدة بما فيه الكفاية، وأخرى لأن السرج قديم ومتهالك، وباقي الرجال لأنهم لم يملكوا المال الكافي لسداد ثمن المواد الغذائية لمدة شهرين، وأجر رجل واحد لكل أربعة جمال، وكل هذا يجب أن يسدد للحكومة مقدما؛ فجيراني يتم ضربهم بالكورباك علي ظهورهم وأقدامهم كل صباح ، وتحدث ضجة كبيرة عندما يشغل أحد الأصدقاء خدامه؛ ثم تظهر علامات الأصفاد الخشبية والأغلال علي رقبته، وقد بلغ النظام من الابتزاز والسلب نقطة يصعب تجاوزها، وبدا الحزن على "عبد الله الراباشي" والرجال ذوي المكانة الرفيعة مثله الذين يموتون من المرض أو يتم قتلهم في السجون، ولكني لا زلت أشعر بالحزن بصورة أكبر لمعاناة الفلاحين الفقراء اليومية الذين يعملون بالحرث؛ حيث يضطرون لأخذ الخبز من أفواه أفراد أسرهم الجياع وأكله ليكدحوا من أجل تحقيق أرباح رجل واحد.

وتعتبر مصر أحد المزارع الشاسعة حيث يجعل السيد عبيده يعملون من دون أن يطعمهم، ومن نافذتي أرى الرجال يعرجون بين الجمال الضعيفة التي تنتظر زوارق الباشا لنقلها، وأكوام كبيرة من الذرة التي يضطرون لجلبها لإطعامهم، وأستطيع أخباركم عن الدموع التي يجلبها مثل هذا المشهد للعيون، حيث تكون دافئة ومريرة، إنها مشاعر الظلم والجوع، والألم، والعمل دون أمل ودون أجر؛ ومرارة الاستياء من العجز المستمر وهذا غير قابل للتصديق، ولكن حاول أن تتخيل فريق مزارعي "سميث" والشرطة تقودهم للخارج، وهو نفسه تم ضربه حتى سلم قشه وشوفانه، وأخذت زراعته للورد "ليوتنانت"، وجر ولديه في سلاسل للعمل في سدود السكة الحديد، وهكذا سيكون لديك فكرة عن حالتي الذهنية اليوم، واستغربت عدد القوات التي تذهب لأسوان حيث يوجد تمرد

آخر بين السود، وكان هناك تمرد فيما بينهم بالصيف الماضي في السودان، والآن أسمع أن "شاهين" باشا سيصل هنا خلال يوم أو يومين وهو في طريقه إلي هناك، كما يتم إرسال مئات الإبل يوميا من جميع القرى، ولكني أقول بضجر أنكم ستستاءون من سماع رثائي وقرأته بشكل مستمر، ورجعت للخلف ونظرت إلي "عمر" الذي كان ينظر إليَّ بترقب والخطاب نموذج من مراسلات سيدتي المليئة بالعاطفة والتفاصيل، فسألته:

-لماذا جلبت هذا إليَّ؟

وأجاب "عمر" بصوت منخفض:

-أنا متأكد من أن هذه الرسالة كتبت بتفاصيلها المهينة انطلاقا من الاهتمام الحقيقي بالشعب المصري، وستخلق ضجة في انجلترا.

عندما يخبر الأجانب بما يحدث فعلا في بلدي، فقلت:

-ربما، ولكن لماذا جلبته لي؟

فقال:

-أردتك أن تريه، فسيدتي "داف جوردون" تهتم بمصر، وقد حصلت علي ولائي .

فنظرت إلي "عمر" وفكرت فيما كان يقصده، هل يقول أن ولاءه لسيدتي كان أكبر من ولائه لي؟ وقال وهو يتحدث بسرعة:

-الآن "سترين"، وستظهر هذه الرسالة الحقيقة للأجانب عن بلدي، وهي لم تنظر لهم لتراهم من خلال نظرة أسطورية، بل تنظر إليهم من خلال رؤيتها لتشكل النسخة الخاصة بهم في تاريخ بلادي؛ فهي لم تنظر للمصريين الجدد ورأتهم شعبا يتخلف عن غيره، ولم تنظر إلي مصر لترى إنجازات أجدادنا العظيمة؛ تلك الأنقاض التي نعيش بينها بل تنظر إلينا وترى كل شئ، وما تراه يسعدها.

فقلت:

-إنها تحب مصر، ولكن الحقيقة أن سيدتي كتبت العديد من الرسائل المماثلة لعائلتها وأصدقائها، والضجة الوحيدة التي أحدثتها كانت هنا في مصر عندما تسببت آراؤها في جذب اهتمام الخديوي نفسه، والذي لم يكن مسرورا بسماع صوت السيدة "داف جوردون" مرتفعا.

إن "عمر" يعرف هذا كما أعرفه أنا، وبالطبع كانت سيدتي معروفه جدا للسلطات في مصر، فمن غير العادي بالنسبة للأجانب أن يقضوا فصل الشتاء في صعيد مصر، فناهيك عن امرأة، وهذا حتى بالنسبة لأكثر الرجال اهتماما بما تحتويه الرمال، حيث يأتون ويذهبون ولا يبقون، وبالطبع كانت سيدتي تراقب ويتم التجسس عليها أيضا، وهذا شيء متوقع دون أن يقال.

وفي فصل الشتاء بدأت الأخبار تصل سيدتي عن أن رسائلها تختفي ولا تصل إلي وجهاتها، وقالت:

-من الآن فصاعدا سأرسل رسائلي باليد مع المسافرين والأشخاص الذين أثق بهم.

وخلال كل هذا كان "عمر" إلي جانبها، ولم يكن من رجال الباشا وأجره لم يكن مختلسا؛ حيث مكانته في منزل السيدة "داف جوردون" أمن وملجأ وحماية له، وقال لي:

-أنا آمن.

ورأيته يحتقر نفسه لذلك وزاد احتقاره لها؛ فبقاؤه في المنزل في أمان لا يعني أن بإمكانه حمايتي أنا أم طفله.

الفصل الرابع عشر

قد ازداد غضبي بشدة الآن، وتبلور بصورة واضحة؛ حيث إنه في بعض الأحيان لم أجد حلا سوى التعبير ل"عمر" عن هذا الغضب عندما يجلب لي وجبتي ويتسلل ليرى ما يفعله "عبد الله"، وفي هذه الأوقات كنت أكافح للسيطرة على لساني وأريد أن أصرخ في وجهه وأتجادل معه وأحثه على فعل شيء، أي شيء لإنقاذي، تمالكت نفسي أكثر من مرة، وذلك بالسكوت والانصراف بعيدا عنه والنظر من النافذة، ولم أسمح لنفسي أن أنظر إليه، وفي هذه الأيام يأتي إلينا بصورة أقل ويرسل "أحمد" لتقديم وجباتي.

وعلى الرغم من ذلك، ففي الليل يأتي لي "عمر"، فهو لا يستطيع الابتعاد عنيَّ على الرغم من أن باب غرفة نوم سيدتي يظل مفتوحا، وينام بشكل دائم خارج باب غرفتها، وعلى الرغم من تأخر الوقت ونومي أنا و"عبد الله"؛ فهو يدخل الغرفة

ويجلس لفترة ينظر إلينا في ضوء القمر ويزيل سترته فيتدفق هواء الليل على بشرته بسلاسة، ثم يستلقي بجانبي فاستيقظ واتحرك تجاهه حتى أصل له، وأصبح حبنا محفوفا بالتوتر الآن، ولكن هذا لا يحمل أيًّا منَّا على التراجع مهما كان الغضب الذي أظهره بالنهار؛ ففي الظلام لا يغضب أيٌّ منا من الآخر، وكانت الغرفة مليئة بالأسئلة التي لم تطرح، وكذلك الرغبة، ولم أسأله: "متى يجب أن أغادر؟"، ولم يسألني: "كيف سأعيش بمجرد أن أذهب بعيدا؟"

وفي إحدى الليالي بقى "عمر" في سريري لفترة أطول قليلا من المعتاد ونام، وأنا في حضنه وسريعا ما نمنا، وسيدتي في غرفتها مريضة على الجانب الآخر من المنزل الفرنسي؛ حيث تثاقلت رئتاها مرة أخرى، واشتدت آلام جنبها وأصبحت تعرف العلامات جيدا، ونادت على "عمر"؛ فهي بحاجة إلى شراب الشاي الساخن مع الأعشاب والعسل لتهدئة الألم، ولم يرد، فنادته مرة أخرى، ولكن بصوت أعلى هذه المرة قائلة:

- "عمر"!

فلم يجيب، فجلست في سريرها ووصلت لشالها ولفته حول كتفيها، وخرجت من غرفتها بثياب النوم العارية، وسارت ببطء نحو المطبخ على الرغم من أن الظلام ما زال يسود المكان، ولكنها اعتقدت أنه قد يكون نهض لبدء العمل بالفعل، ولكن الغرفة فارغة والفرن بارد؛ فسلكت طريقها إلى الصالون، حيث فتحت الستائر للسماح بدخول مزيد من الضوء، ومنذ أن استيقظت عرفت مكان "عمر"، ولكنها سارت خلف مشاعرها لتبحث عنه مبعدة ظنها في أن يكون بجواري، وسارت أسفل الممر ثم إلى غرفة أخرى، تلك الغرفة التي تعرف الآن أنها ملك "لامرأة وطفلها"، ووقفت بالخارج لبضع دقائق

تستنط ولا يوجد شيء لتسمعه، ولكنها أدركت أن المنزل معبأ بأنفاس العشاق المختلطة مع أنفاس الطفل، فدفعت الباب وفتح ببطء، حيث أرادت رؤيتنا معا، وكنا أمامها في ضوء القمر مثل لوحة لمشهد من الكتاب المقدس؛ رجل وامرأة وطفل، ولكن سيدتي لم ترى سوى امرأة انجليزية ورجلا مصريا وفيما بينهما خبزهما الذي لم ينضج -طفلنا- وهناك صوت منخفض لا تعرف مصدره، فهو تذمر يشبه بدء العواء وتحركت إلى الأمام وقبل أن تعرف ما يحدث أصبحت بجوارنا، حيث صوت الخربشة والصراخ؛ فقامت بسحب الغطاء، وكشفت عن تشابك أطرافنا وشعري الطويل الغزير وكلانا عارٍ تماما، فنهض "عمر" وصاح لينبهني، وصرخت من الخوف وتحركنا لنأخذ ملابسنا و كرامتنا، واستيقظ "عبد الله" وبدأ في البكاء، وأعتقد أن سيدتي جنت لما رأت؛ فصرخت في وجهي قائلة:

-ماذا فعلت به، ولماذا جلبت كل هذا إلي بيتي؟ لماذا دمرت سلامنا؟

قبل أن تتراجع فجأة وتصمت لصدمتها من سلوكنا، وبدأت تبكي من الخجل لما فعلته في الوقت نفسه، وشعرت بالاختناق وارتجفت، ورمقتني بنظرة تملؤها الكراهية، ما جعلني أصرخ بشدة وألتف بعيدا عنها.

ونظرت إلى "عمر" وكان غير قادر على الكلام، ووضع سترته عليه ووصل إلى سيدتي وطوق ذراعيه حول كتفيها لسندها، وقال بصوت منخفض:

-صه يا سيدتي، أنا آسف هذا لن يحدث مرة أخرى، وأنا معك الآن، أنا آسف وسوف آخذك إلى الغرفة الخاصة بك.

وكانت تهتز في حضنه من الغضب، ولكن ماذا فعلنا؟ وماذا حدث؟ هل حملناها كثيرا هذه المرة؟ واستطعت رؤية خوف

"عمر" الآن على وضعه بالمنزل وكذلك علي، ورمقني بنظره من خلف كتفه كما لو أنه يعتذر لأخذ سيدتي بين ذراعيه وليس أنا، وبكيت وحضنت "عبد الله" بنفس القدر الذي كنت أحتاج أن يحتضنني به أحد، وعاد الهدوء للطفل سريعا كما لو أنه رأى حلما مزعجا ونسيه بالفعل، وأخذ "عمر" سيدتي بعيدا وقضيت بقية الليل والأيام القليلة التالية في حالة من الهياج الشديد، ولم أجالس "عبد الله"، ولم أدري ماذا أفعل بنفسي، ولم يأتي "عمر" إلى غرفتي، وكان "أحمد "يحضر لي وجبات الطعام وهو على نحو غريب لا يعلم ما حدث؛ فهو عادة يعرف كل ما يحدث في القرية حتى قبل حدوثه، وكان يقول لي أيضا:

-ستي تستريح أكثر من المعتاد ولا يوجد أي زوار، و"عمر" مشغول في المطبخ كما هو الحال دائما.

وشعرت بالقلق، واقتنعت أن سيدتي ستطردني أنا وطفلي من منزلها في أي لحظة، ولكنها لم تفعل، وبدأت أتنفس الصعداء ببطء، وفي النهاية ظهر "عمر" أمام بابي مرة أخرى، وبعد بضعة أيام بينما كان "عمر" أسفل النهر يتفاوض على سعر كيس من الدقيق جاء رجل أمامه، وقال الرجل ل"عمر":

-السيد "عمر أبو حلاوة".

واندهش "عمر" من أن شخصا غريبا يناديه باسمه، وقال له الرجل:

-يرجى الانضمام إلينا لتناول فنجان من القهوة على متن قاربنا.

وأدرك "عمر" من ثياب الرجل أنه قد يكون مسئولا حكوميا، وكان هذا في حد ذاته ينذر بالخطر، ولكنه وافق على الذهاب إلى القارب مع قدر من الحذر والطاعة والفضول، كان يعلم أنه

قد يكون هناك أدلة على آرائه حول الباشا وسياساته، ولكن قد أدين البعض وأرسلوا ليموتوا من المرض أو يتم قتلهم في "فازاغو" لأسباب أقل من ذلك، ولكن لم يكن "عمر" نفسه هو من يهتم به هذا المبعوث؛ فعندما جلسوا معا تحت مظلة منخفضة في مؤخرة القارب، وبمجرد أن سكب القهوة صرف الرجل موظفيه والتفت وأشار إلى البيت الفرنسي الموجود فوقهم عند معبد الأقصر، وقال مبتسما:

-السيدة "داف جوردون".

فقال "عمر":

- نعم.

وأحنى رأسه لإظهار تقديره لسيدته

-هي من أعمل لديها.

فقال الرجل:

-كتاباتها ورسائلها تزعجنا والأسوأ من ذلك تمثل لنا إحراجا. ويفضل الخديوي ألا تكتب مزيدا من الرسائل لوطنها انجلترا، فلم يعرف "عمر" كيف يجيب، وقال:

-لا أستطيع أن أملي على السيده "داف جوردون" أن تفعل شيئا أو لا تفعل شيئا.

فقال الرجل:

-سيقوم الباشا باتخاذ الترتيبات اللازمة لامتلاك مائة فدان من أراضي الدلتا؟ أو أية وسيلة أخرى لدفع المقابل.

فسكت "عمر"، وتساءل:

-هل فهم المسئول بشكل صحيح؟

وأخطأ الرجل فهم هذا الصمت على أنه من قبيل المساومة، وقال:

-في المرة القادمة التي تقوم بها برحلة على ضفاف النيل ستكون قريبا منها، وأنت دائما كذلك، ونحن نعلم هذا الأمر؛

حيث نراقبكم وهذا سيجعل من السهل جدا أن تسكتها، فالأرض جيدة بمنطقة الدلتا.

واهتز "عمر" بشدة من الداخل وناضل ليبقَ هادئا من الخارج، وتابع الرجل قائلا:

-سوف يكافئك الخديوي، حيث يتوقع الولاء الخالص منك.

وشعر "عمر" أنه يجب عليه الرد فقال:

-نعم يا سيدي.

فقال الرجل:

-شكرا لك.

ولوح الرجل بيده كما لو أنه يقول:

-هذا لا شيء و"إسماعيل باشا" سيكافئك.

فوقف "عمر" وانحنى ،وشكر الرجل على القهوة، وعقد يديه خلف ظهره لمنعهما من الاهتزاز وهو يشق طريقه بعيدا عن القارب وعلى طول الجسر، وقال أنه حاول ألا يهرول لمعرفته أن المبعوث سيراقبه، واضطر إلى السير في نفس طريقه السابق لأخذ كيس الدقيق الذي قام بشرائه في وقت سابق، ولم يسمح ل"أحمد" بتحميل الكيس على الحمار، ولكن رفعه على كتفه، وقال أنه سيشعر بتحسن لتحمل هذا الحمل الحقيقي الملموس، وتوجه إلى البيت الفرنسي، من خلال القرية ورحب بجيرانه بأسلوبه المعتاد، وكان المنزل الفرنسي لا يزال باردا، وحرارة اليوم لم تبدأ في الارتفاع بعد تحت سقفه العالي، وكانت سيدتي تستريح في غرفتها والباب مواربا لتحصل على الهواء لتتنفس، ونظر "عمر" إلى "عبد الله" ولي، وكنا نياما نحن أيضا؛ حيث سمع بكاء "عبد الله" في الليل وأنا أحاول تهدئته، وذهب إلى المطبخ، وأخرج الأواني والمقالي، وقال أنه أراد أن يهلك نفسه في العمل في الطبخ، لعدم التفكير في ما حدث، وأعتقد أني سأطعم وأرعى سيدتي و"سالي" و"عبد الله"؛

لهذا السبب أنا في الأقصر، وسأجعل للبيت الفرنسي مكانة عظيمة بسهولة وإخلاص من أجل سيدتي؛ فأنا لست في الأقصر لمراقبة الفلاحين والقلق على مصير زملائي المصريين والتكهن بالنماذج الأكثر عدلا والأفضل من الحكومة، كما أنني لست في الأقصر لتنفيذ طلب الخديوي، وأغرق السيدة "داف جوردون" في النيل، وبالتالي القضاء على إحدى نقاد الباشا الإفرنجيين القلائل، والتقط وعاء وانقض عليه بشدة على سطح منضدة العمل، وأيقظتني الضوضاء التي أحدثها "عمر"، فتسللت، وتوقفت عند غرفة سيدتي للتأكد من أنها نائمة، ووصلت إلى "عمر" بالمطبخ، وكان في حالة هياج، وقلت له لتخبرني بما حدث فقال:

-ما نوع الرجال الذين يعتقدون أنني منهم ؟... هذا الذي يستطيع الباشا أن يجعله أحد القتلة التابعين له.

والتقط المقلاة وضربها بشدة مرة أخرى وأخذت يده وحاولت أن أهدئه قائلة:

-إنك توقظها.

فقال:

-أنا هنا كمرافق للسيدة "داف جوردون".

وقال:

-أنا كما كنت تقولين بنفسك بكل فخر في خدمة سيدتي، وماذا يمكنني أن أفعل؟ لا شيء لا أستطيع أن أفعل شيئا لمساعدتك يا زوجتي، ومائة فدان من الأرض كما أعتقد لا يمكنني منع نفسي من التفكير فيها .

وقال:

-لن أفعل أي شيء، وسأستمر في عدم القيام بأي شيء.

وانقضى الطقس البارد لشهري يناير وفبراير وحرارة شهر مارس المتزايدة، وحل شهر رمضان مرة أخرى وقال "عمر"

لسيدتي أنه لن يصوم هذا العام؛ حيث يحتاج لقوته الآن بعد أن أصبحت "سالي"غير قادرة، ثم توقف وقال:

-إنني بمفردي.

فهزت رأسها ولوحت بيدها لإظهار أنها تثق أن مرافقها لديه القدرة على اتخاذ قراراته بنفسه.

وقلت ذات ليلة ل"عمر":

-أرغب في الصوم.

فقال:

-ليس هذا العام .

فأضفت قائلة:

-أعرف، من أجل الطفل، ولكن في سنة أخرى، ربما.

وقال وهو يتطلع إلى وجهي متسائلا حول قدرتي على وضع افتراضات بشأن المستقبل، ولكن الحقيقة أنني كنت أتمنى صيام شهر رمضان، وطقوس الصوم من الفجر حتى الغسق لها نقاء وجدته يجذبني:

-لا يلمس شفتيك شيء حتى يحل الليل، طوال أربعة أسابيع، وهذا وقت طويل لتحمل مثل هذا الشيء، ولا يمكن أن أتصور كيف يمكن تحمله عندما يقع الصيام في أشهر الصيف، وكيف يمكن النجاة والبقاء حيا في الحرارة دون شراب، وبالرغم من أنني قلت أنني أود وأرغب في المشاركة بنفسي في سنة ما، وإلى جانب وضع افتراضات حول المستقبل، وكيف نجوت طوال هذه الأسابيع وأنا مختبئة في البيت الفرنسي، فقمت بوضع الخطط ليصبح الوضع أكثر هدوءا في المستقبل متى تم تسوية الأمر؛ حيث سيكون "عمر" و"عبد الله" وأنا سعداء معا، ومن الغريب أنني وجدت نفسي أفكر في القاهرة؛ حيث منزل والد "عمر"، وهو فناء كبير وبارد به نبات الجهنمية الحمراء الزاهية ومائة فدان من الأرض، وهذا جلب معه عودة تهيج

مرض المعدة الذي كافحته أنا وسيدتي منذ سنة، وعلى الرغم من العلامات المبكرة فقد ظهر أنها لن تكون شديدة، ومع ذلك قامت جماعة من البدو بعمل مخيم خارج البيت الفرنسي، في انتظار أن تراهم الحكيمة حيث سمعوا أنها قد تعالجهم، وكافحت سيدتي لمواجهة الموقف، وحاولت تدريب "أحمد" على مساعدتها ولكن الصبي الصغير بالرغم من أنه كان ذكيا وحريصا على التعلم، لكنه لم يصلح ليكون بديلا عني، وقال لي "أحمد" نفسه أن سيدتي كانت سريعة الغضب في بعض الأحيان وشكى لي قائلا:

-كان من الصعب عليَّ تذكر كل شيء، ولكن سيدتي كانت عنيدة وأبقت على العيادة المؤقتة، وقالت أنها حصلت عليها مع "أحمد"، وعرفت سيدتي أنها تراقب وقال لها "مصطفي أغا" هذا كثير.

وبعد ظهر أحد الأيام ذكر مبعوث الحكومة الذي شوهد يتحدث مع "عمر"، بعد أن غادر دعت سيدتي "عمر" إلى غرفتها وسألته عن الإشاعات وهل كان صحيحا أنه تم زيارته بواسطة وكيل الباشا؟ ولم يرد "عمر" أن يقول لها ما قاله المسئول فقال:

- نعم.

وقال "عمر":

-سيدتي... أنهم لا يحبون رسائلك وأنت تعرفين هذا بالفعل فهم لا يحبون الكتاب.

ولكنها قالت ل"عمر" أنها لا تهتم ولن تقلق فهي تستسلم لقدرها، ومصر هي قدرها، وهي لا تخاف من الخديوي، وعلى الرغم من موقفها معي، فقد كان من الواضح أنها تثق ب"عمر".

وفي إحدى الليالي بعد أن سقط "أحمد" نائما على أرضية المطبخ، منهكا من جهوده في العيادة، أخذ وجبة سيدتي للصالون، وقالت:

-اجلس معي من فضلك يا "عمر" لتأكل.

لم يشتركا في وجبة المساء منذ عودتنا إلى البيت الفرنسي، حيث تغير وضعنا جميعا في الأسرة منذ ميلاد "عبد الله"، فجمع "عمر" الوسائد وجلس وأكل قليلا من حساء الضأن الذي أعده لها، وقال لاحقا أنه شعر بمزيج قوي من الراحة والقلق، وكانت سيدتي لديها بعض الأنباء لتقولها ل "عمر"؛ حيث قالت:

-سنسافر إلى أوروبا هذا الصيف

فابتسم "عمر" وأومأ، وقالت:

-سوف نسافر مع "جانيت" من الأسكندرية فهي تقوم باتخاذ جميع الترتيبات.

فقال:

-أنا متأكد من أنها تجيد ذلك يا سيدتي.

وأكملت قائلة:

-سنسافر بالسفينة إلى "مرسيليا"، ثم نأخذ القطار إلى "باريس"؛ حيث سنقوم بالانضمام إلى بقية أفراد الأسرة.

قال "عمر":

- "باريس"!

وتنهد وأضاف قائلا:

-سيكون مثل السفر إلى القمر والعودة مرة أخرى.

فضحكت سيدتي وقالت:

- "باريس جميلة"، أجمل بكثير من القمر، وأنا متأكدة من أننا سنبقى لبضعة أيام، وسنرى بعض المشاهد، ونهر "السين" و"نوتردام "

فقال "عمر":
-وما هذا؟
فأجابت سيدتي قائلة:
-إنها كاتدرائية كبيرة في وسط المدينة، ولكن سنبقى لبضعة أيام فقط، ثم سنسافر إلى مدينة المنتجعات في ألمانيا لقضاء عطلة عائلية.
وقال "عمر":
-ألمانيا!
وقالت سيدتي:
-كنت تريد دائما الذهاب إلى ألمانيا، ولكنك لم تعرف حتى الآن.
فقال "عمر":
-أنا سعيد للسفر إلي أي مكان يا سيدتي، لن نذهب إلى انجلترا؛ فهي بعيدة جدا، ومكلفة جدا ولا يوجد مكان لنا جميعا للبقاء به، ورتبت "جانيت" كل شيء، وسأرى عائلتي مرة أخرى يا "عمر"، ولا استطيع الانتظار وسنمضي وقتا رائعا.
وقال إنها ابتسمت في وجهه، وابتسم هو أيضا، وتساءلت قائلة:
-هل رأت كل القرويين الذين يريدون مساعدتها ؟
فقال:
-لقد تبقى القليلون وبطبيعة الحال، لا يزال هناك الذين سيعودون إذا لم يكن العلاج فعالا.
وقال "عمر" لها:
-هذا العمل يؤثر سلبا على صحتك.
فقالت:
-لا بد من القيام به وعندما أتعافي بما فيه الكفاية، سأتابعه.
فقال "عمر":

-سيكون من الأسهل إذا كان المساعد الخاص بك له خبرة أكثر من ذلك بقليل ...
وتوقف "عمر" وأضاف قائلا:
-إنه أكثر، ولم يستطع "عمر" مساعدة نفسه؛ فمزاج سيدتي كان جيدا جدا.
وقالت سيدتي:
-الولد يبذل قصارى جهده، وهو يتعلم بسرعة، ومفيد عندما لا يمكن أن أفهم ما يقوله البدو.
وقال "عمر":
-سترى المزيد من الناس، بسرعة أكبر، إذا سمحتي ل"سالي" أن تساعد....
فأضطربت سيدتي وقالت:
-كنت أعرف ما ستقوله، ولا تعتقد أنه يمكنك استخدام مزاجي الجيد لمساعدتك في جدلك بشأن قضيتك.
نهض "عمر" وحمل صينية الطعام إلي المطبخ، وأراد أن يلقيها بشدة على المقعد، ويعاقب نفسه لأنه تجرأ على الجدال مع سيدتي، وفي الوقت نفسه كان يريد أن يستعجل العودة للصالون ليصرخ معبرا عن إحباطه، وقال لي:
-لكن حياتك في يد سيدتي.
وقال:
-قد تعتقدين أنه ليس هناك أي خطر يمكنك ببساطة أن تبعديه، ولكن الخطر حقيقي، هل تعرفين ماذا طلب مني عميل الباشا ؟
فقلت:
-يجب أن تجعلها تفهم ما هي مدينة به لك يا "عمر"؛ فرجال الباشا يراقبون، وإذا كانت تأتمنك على حياتها، فكيف لا تثق بمعرفتك لما هو أفضل لزوجتك وطفلك؟

ولكن هذا بلا فائدة؛ فسيدتي لن تستمع له، وموقفها المضاد لي لن يتغير، وما كانت المسألة إلا مسالة وقت حتى يتم إرسالي بعيدا، واضطرت سيدتي "داف جوردون" التخلي عن قيامها بدور حكيمة القرية عندما أصابتها نوبة خطيرة من المرض، ومرة أخرى قل نشاطها بالاستلقاء في السرير طوال اليوم، وكانت غير قادرة على النوم من السعال والدم والحمى مما جعلها غير قادرة على الاستلقاء باستقامة وغير قادرة على الجلوس، وكان من الواضح أنها لم تعد تتعافي من نوباتها كما كانت تتعافي في الماضي، وسيطر عليها المرض أكثر الآن، ولن يكتمل شفاؤها في كل مرة، وفي ليلة رفع "عمر" جسدها النحيل؛ وقام "عمر" بطهي طعام لها يعمل على زيادة وزنها، حيث تفقد وزنها بمجرد شعورها بالمرض، وحملها للخروج إلى الشرفة التي تطل على الحديقة وجعلها في وضع مريح لها على الحصير والوسائد والبطانيات، على أمل أن يسهل النسيم تنفسها، ونظرت إلى مسافة خط التلال المظلم في الصحراء لتشاهد النجوم، وقالت ل"عمر" أنها تشعر في بعض الأحيان كما لو أنها قد تغرق في السائل الذي يملأ رئتيها، وبذل "عمر" قصارى جهده لعلاجها، وجاء إلى غرفتي مرات متكررة لطلب المشورة والتوجيه، وكنت أجيبه بتلقائية، ووفقا لاقتراحي نقل فراش نومه بجوار باب الشرفة، حيث كان يرقد مستيقظا في الليل، ويستمع إلى سيدتي تتنفس بصعوبة بالغة، واستيقظ ذات ليلة مع قشعريرة واقتناعا منه أن سيدتي قد توقفت عن التنفس تماما حيث هدأت أنفاسها فهرع إلى الشرفة، حيث وجدت حالتها سيئة وانخفض تنفسها لمعدلات قليلة، فركض لإيقاظي لمساعدته، ولم أتردد في هذا، وجلبت الأدوات، وقام "عمر" بأخذ سيدتي إلى المطبخ ووضعها على الطاولة، وسألت "عمر" تسخين سكين في النار، وعندما أعطاها لي كان

نصلها متوهجا في ضوء المصباح، ونحن نستعد لعلاجها نظرت إلى وجهها، فكم مرة قمت بتمريضها، وأرسل إلى الإسعاف عندما بدا أن حياتها تنحسر وتفارقها تماما، كم قدمت لها من تضحيات قبل اكتشافي أنها ليست مستعدة للتضحية بأي شيء من أجلي!

وكان "عمر" يسخن المياه ويجمع الوسائد، ويحاول أن يجعل سيدتي مستريحة بشكل أكثر، ولم يستطع قراءة أفكاري، وأدركت أنه يعتقد أنني جاهزة، وفي انتظار أن ينتهي، وتساءلت:

-هل لاحظ أنني قمت بعمل قطع عميق جدا، في المكان الخطأ؟

وقمت ببث الثقة بنفسي، وقلت له:

-انظر جيدا، قد تضطر إلى القيام بذلك بنفسك في المرة القادمة.

وقمت بعمل شق في ثدي سيدتي بثقة كما أراني الطبيب، وكما فعلت من قبل ووضعت كأسا من الزجاج الساخن على الجرح، وانتظرت ليمتلئ الكأس بالدم، ونظر لي "عمر" من الجانب الآخر لطاولة المطبخ من فوق جسد سيدتي الراقد أمامنا فاقدا للحس، وكنا مثل الأطباء في جراحة وحشية.

فقلت:

-سيساعد.

وتحسنت سيدتي قليلا خلال أسابيع قليلة، فسألت "عمر" عما إذا قال لسيدتي أنني من عالجها تلك الليلة، ولكنه أجابني بلا؛ حيث لم يرد أن يخاطر بإثارة غضبها وإضعافها مرة أخرى، وكان محقا في عدم إخبارها، ولكني فكرت في بعض الأحيان إذا ما كان "عمر" تخلى عني، ووصل خطاب مفتوحا معادا دمغه كجميع بريد سيدتي، مرسلا من الأمير والأميرة "ويلز"؛ حيث اطلعا على كتاب السيدة "داف جوردون"، وكانا في

مصر، وأرادا أن يقابلاها وكان سفرهما عبر النيل، ويودان أن تزورهما على متن قاربهما، عندما يكونا في "أسوان" خلال أسبوع، وقرأت سيدتي الرسالة بصوت عال ل"عمر"، وابتسمت وأغلقت عينيها، وقالت:

-انظر، لقد قلت لكم أنني أصبحت مزارا أساسيا على مسار خط النيل.

وفوجئ "عمر" من أنها يمكن أن تلقي نكتة عن عائلتها المالكة، وقال "عمر":

-لا بد أنك تشعرين بتحسن اليوم.

فأجابت:

-أنا فقط كما تعلم.

بعد ظهر ذلك اليوم، ظهر نفس الرجل من الحكومة والذي دعى "عمر" على قاربه لتناول القهوة يطرق باب البيت الفرنسي، وركض "أحمد" وصعد السلم للإعلان عن الزائر المجهول، وكما قال "عمر" لي لاحقا أنه عندما رأى من يكون هذا الزائر المجهول انحنى واتكأ على الحائط بصورة تلقائية، وابتسم الرجل وقال:

-لقد أتيت للحديث مع السيدة "داف جوردون".

وبدأ "عمر"الكلام قائلا :

-يجب ألا...

ولكن الرجل قاطعه قائلا:

-من فضلك قل لها أنني هنا.

فقال "عمر":

-اسمك؟

فقال:

-قل لها جئت بناء على أوامر من الخديوي .

وأصرت سيدتي على رؤية الرجل وحدها ومُلئ البيت بالقلق،

فأولا رسالة رسمية ملكية، ثم وكيل الحكومة، وتسلل "أحمد" إلى غرفتي لينقل لي كل شيء وصوته مليئ بالإثارة، ووجه "عمر" المبعوث للانتظار خارج المنزل، وساعدت سيدتي لتصل إلى الصالون وجعلتها تستقر على الأريكة، ثم دخل المطبخ حيث طلبت سيدتي منه إعداد الشاي والحلويات كما كان سيفعل مع أي ضيف، ولكنه أتخذ موضعا يمكنه من سماع كل كلمة من حديثهما، وبدأ الرجل الحديث بلهجة مؤدبة قائلا:

-"سيدة داف جوردون" قد تلقيت دعوة من أمير ويلز؟

فأجابت قائلة:

-نعم.

ولم يشعر "عمر" بأثر للخوف في صوتها، "ستكون في أسوان، الأسبوع المقبل."، وقال المبعوث:

-إن الخديوي يطلب منك بكل احترام عدم قبول دعوتهم.

وتساءلت:

-لماذا يهتم الخديوي بقبولي أو عدم قبولي لدعوة الأمير والأميرة "ويلز" ؟

واستطاع "عمر" أن يشعر بنبرة الاستمتاع في صوت سيدتي، وقلق من أن تضحك سيدتي على مبعوث الباشا، فقال المبعوث:

-إذا قمت باستئجار قارب ليأخذك إلى أسوان، سيتم القبض على البحارة.

قالت سيدتي:

-إذا استأجرت قاربا...

وتوقفت عن الكلام وانتظر "عمر" في المطبخ.

وحاول إجبار نفسه على متابعة عمل الشاي والحلويات ووضعها على صينية التقديم، وقالت سيدتي بهدوء:

-هل تهددني؟ ولماذا؟ أنا امرأة عجوز مريضة، ألا يمكنك رؤية

هذا؟!
فنظف الرجل حنجرته، ولكنه ظل صامتا، فتساءلت سيدتي قائلة:
-مما يخاف الخديوي؟ أن أخبر الأمير والأميرة بما أراه خارج نافذتي كل يوم؟
فقال:
-لقد أوصلت رسالة الباشا لك يا سيدة "داف جوردون"، والآن لتعذريني فسأنصرف من فضلك، كما أن الخديوي يرسل تحياته لك.
فقالت:
-ألا تبقى لتناول الشاي؟
فانحنى الرجل وقال:
-لا، شكرا !

وبعد أن ذهب الوكيل، أخذ "عمر" صينية الشاي إلى الصالون، وقال أنه لم يستطع التظاهر بأنه لم يسمع ما تم، وقال "عمر":
-هذا الرجل جاء لرؤيتي، وعرض عليَّ رشوة لأغرقك.
وعندما سمعت سيدتي هذا، ضحكت بصوت عال، ولكنها ضحكة كاذبة، وقالت:
-كم كنت أساوي لدى الخديوي؟
ولم يرد "عمر"على سؤالها، وقال:
-يا سيدتي هذه التهديدات ليست من باب الدعابة، وليست من باب التسيب فالخديوي... .
فقاطعته قائلة:
-ألا تعتقد أنني رأيت ما يكفي من وحشيته لأعرف أنه إذا ناسبه أن أختفي فسأختفي في اليوم التالي؟

وأومأت ل"عمر" فجأة قائلة:

-صب لي بعض الشاي.

وبدأت سيدتي في السعال وهي تمسك جنبها، ورأى "عمر" أنها كانت تتألم، فسندها وحاول تخفيف الآلم بفرك ظهرها، وقبل ميلاد "عبد الله" لم يكن "عمر" يلمسها، ولكن الآن قال أنه اعتاد لمسها تقريبا أسرع من اعتياده على القيام بعملي، وعندما تمكنت سيدتي من أن تتكلم مرة أخرى قالت:

-كنت أخطط لرفض الدعوة على أي حال، فأنا مريضة جدا للقيام بهذه الرحلة، والتفكير في السفر إلى أسوان يجعلني أشعر بتوعك أكثر، وأشك أنني أستطيع الذهاب إلى نهاية القرية، وسأكتب للأمير في وقت لاحق اليوم.

وفوجئ "عمر" من هذا القرار رغم أنه لم يظهر هذا، ولكن بعد فوات تلك الليلة، أخذت حالة سيدتي تسوء، فلا يستطيع أحد أن يعيش وحده، وكل نوبة سعال وكل بصاق ملبد بالدماء كان يقربها من الموت، وعرفت ذلك ويمكن أيضا معرفة أنه لا شيء يمكن أن يكون مخيفا أكثر من هذا، ولا حتى الخديوي ورجاله، ووجدت نفسي أتساءل عما سيحدث إذا ماتت سيدتي، وتوجب على "عمر" إيجاد وظيفة جديدة على الفور، ولا يوجد ضمان بأن يجد صاحب عمل إفرنجي آخر ينظر لوضعنا بعين الرأفة؛ فحقيقة وجود زوجة أوروبية وطفل يجعل العثور على عمل صعبا بالنسبة ل"عمر"، ويحتمل أن يكون علينا العيش منفصلين، ولكن لا يمكن لأحد أن يصر على مغادرتي للبلاد، وسأكون حرة في البقاء وربما سترحب بي عائلة "عمر" لأقيم معهم كما اقترح "مصطفي أغا" يوم زواجنا، ولكن تلك لم تكن طريقة جيدة للتفكير، بل لم يكن التفكير على هذا النحو مفيدا، وستسحب سيدتي كلامها؛ فهي دائما ما تفعل هذا، وهي تمرض، ولا تموت، وعندما تمتلك القوة تستمر

السيدة "داف جوردون" بكتابة رسائلها للوطن، وأحيانا بضعة أسطر فقط في اليوم الواحد، ولم تفكر بمبعوث الحكومة وتحذيره، وأرسلت رسائلها عن طريق المسافرين الموثوق بهم فقط، وبقيت في غرفتها أثناء النهار وتنام في الليل بالخارج، وتناوبت بين شرفة الحديقة والشرفة المطلة على النيل، وأخبرت "عمر" أن تغير المناظر يشفيها، وعجزها المستمر أعطاني قليلا من الحرية، فتمكنت من قضاء جزء من اليوم في المطبخ مع "عمر"؛ حيث أقسم أعضاء المنزل الآخرون على السرية، وأقسم "أحمد" كثيرا؛ فهم لم يمانعوا الحصول على الاستمتاع بحمل الرضيع، وأصبحت بشرته أكثر بياضا مما ولد عليه، وكان بياض "عبد الله" محل إعجاب الكثيرين، وكان ينام معظم الوقت، وعندما لا يكون نائما فهو يطعم أو يلعب معه أو يدلل أو يستحم بواسطة أحد معجبيه، ولم تكن سيدتي بحالتها الطبيعية، ولكنها أدركت ما يتم خلف ظهرها، على الرغم من أنها لا تسمع الهمس أو الزقزقة، وبعد أسابيع قليلة أخرى تمتمت ل"عمر" بعد الظهر وهو يمسح وجهها بقطعة قماش باردة قائلة:

- بعد عدة أسابيع قليلة سأرسل الطفل إلى القاهرة و"سالي"ستكون في طريقها بحلول شهر مايو.

وفتحت عينيها ونظرت إلى "عمر"، ولكنه كان ينظر بعيدا.

وجاءت أنباء الثورة المفاجئة في قرية "قنا"، إلى الجنوب مباشرة من مدينة "الأقصر"، وبدأت الشائعات تملأ القرية، فسمعنا في الصباح أنهم هاجموا قارب "البروسية" في اليوم السابق، وقتل كل من كان على متنه وحرق المركب، وشاركت عشر قرى في الثورة ضد سياسات الباشا، وهز "عمر" رأسه للقروي الذي ذكر له هذا الخبر، وأراد أن يسمع القصة حقيقية، وليس مجرد شائعات تصبح أكبر وأعمق في كل مرة وغادر "عمر"

و"أحمد" البيت الفرنسي إلى القرية، وجلب "مصطفي أغا" الأخبار إلى البيت بنفسه، وسيدتي لم تكن بحالة جيدة تسمح لها باستقباله فجلس في المطبخ مع "عمر"، ونقل كل ما سمع قائلا:
-الدرويش من الصحراء أعلن نفسه المهدي.
وقال:
-هل أستطيع الحصول على مخبوزات أخرى؟
فقال "عمر":
-بالطبع.
وأزاح العلبة ناحية "مصطفي أغا". وأكمل قائلا:
-المهدي هو المسيح الذي سيأتي ليقتل الدجال ويحول كافة البشر إلى الإسلام في نهاية العالم"
وقال:
-هذه لذيذة، يا "عمر"، أنت أفضل طاهي مخبوزات في الأقصر كلها.
ثم أوقف نفسه، وشعر بالحرج من الرجال لذكره هذه الإشارة غير المقصودة لشدة مرض السيدة، وأكمل قائلا:
-ادعى الفلاحون بقرية بجنوب محافظة "قنا" أنه منقذهم، وثاروا ضد الخديوي؛ فهؤلاء الناس يتضورون جوعا، لقد فقدوا أراضيهم ومصادر رزقهم ولا عجب أنهم قد اكتفوا.
قال "عمر":
-ليس أمثالك يا "آغا" بك من يدافع عن حقوق الفلاحين.
فقال:
-أعلم، ولكن الخديوي قد تمادى وذهب لحد بعيد جدا، وجعل شعبه يائسا وجميع حقوقهم التي يمتلكونها هي العنف.
فسأل "عمر":
-وماذا عن سفينة "البروسي"؟
فقال:

-كلها شائعات وأكاذيب؛ حيث كان هناك قارب تجارة يوناني، وأعتقد أنه سرق على يد الغوغاء، ولكن لم يصب أحد، وتحشد القوات قواربها في "قنا" و"إسماعيل" باشا نفسه هناك كما يقولون في باخرته.

فسأل:

-والدرويش؟

فقال:

-إنه محتال كرر أسماء الله الحسنى ٣٠٠٠ مرة كل ليلة لمدة ثلاث سنوات، مما جعله محصنا، وقيل أنه له صديق من الجن علمه مزيدا من الحيل، ثم أعلن نفسه المهدي.

وفكر "عمر" قائلا:

-وبالنسبة للقرويين، ماذا سيحدث؟

فقال:

-التمرد على هذا النطاق مضى على حدوثه وقت طويل، ويحتاج لمجنون ومتعصب لإعادة الأمور لمسارها، وسيعمل الخديوي على منع هذه الاضطرابات من الانتشار فلن تصل الأقصر، وأنا أضمن لك هذا.

ولكنها على بعد أميال، وخطر ببال "عمر" أن تصير الاضرابات على هذا النحو، وقال:

-إن الفلاحين يتضورين جوعا، ويمكن أن يحدث أي شيء.

فقال:

-لا تقلق سنكون مستعدين، أنا أؤكد لك.

وعندما غادر "مصطفي أغا"، أمسك "عمر" "أحمد" وجعله يقسم ألا يقول لسيدتي ما كان يحدث، وأعلم أنه من المفترض أن يفعل معي نفس الأمر، ولكنه نسى ذكر ذلك صراحة لأحمد؛ فجعل "أحمد" عمله إبقائي على علم بالأمر، وفي المقابل أعطيه

الحلوى، وعندما تنفذ أتركه يحمل "عبد الله".

وفي الليلة التي عانت بها سيدتي من حمى مرتفعة؛ ناضل "عمر" لساعات لخفضها على الرغم من أنها كانت غير مدركة، وقال أنه أعطاها حماما باردا لطيفا، ومرة أخرى غامر وأتى إلى غرفتي لمساعدته، وغامرت بالذهاب معه لغرفة سيدتي لمساعدته، وذهبت إلى صندوق سفرها، وأخرجت الصندوق الذي يحتوي على صبغة الأفيون، وقلت:

-هذا سيساعد،

وأعطيت جرعة لسيدتي، فقال:

-سأقول لها هذه المرة يا "سالي"؛ فبدونك لن أكون قادرا على التعامل مع الوضع.

وقمت بهز رأسي وقلت:

-يمكنك التعامل يا "عمر"، إنك تعرف كيفية علاجها بنفسك، فأنت حكيم ذو قدر كبير مثل سيدتي الآن.

أحدثت صبغة الأفيون تأثيرها بسرعة، وارتاحت سيدتي بسهولة أكبر، وذهبنا إلى المطبخ للبحث عن شيء بارد لنشربه، واستطاع "عمر" الجلوس، ولكنه ظل يتحرك، وعندما سألته عما يقلقه قال:

-لا شيء.

فقلت له أنني أعرف ما يجري في "قنا"، فتطلع إلى وجهي مستغربا وكان منزعجا فقلت:

-أخبرني "أحمد"؛ فهذا الصغير هو من ينقل لي الأخبار.

وقال وهو يهز رأسه:

-هذا الصبي!

لم أستطع منع نفسي من الابتسام وقلت:

-أعلم؛ فقد كان جادا جدا بحيث يخفض نبرة صوته، وينفث من صدره، ويتحدث لي وكأنه رجل، وكنت أحاول ألا أضحك...

فقاطعني "عمر" قائلا:

-ولكنه أمر خطير يا "سالي"؛ فالعنف ينتشر في كل لحظة من كل يوم، والأمر يزداد سوءا وهناك أناس يموتون.

فقلت:

-أعلم، ولكن أجد أنه من الصعب التمييز بين الشائعات والروايات الطويلة عن الحقيقة، ولا سيما تحت إشراف "أحمد".

فقال "عمر":

-لقد وضعت خطة، في حالة وصول العنف إلى الأقصر.

فقاطعته:

-لم يتحدث "أحمد " عن احتمال وصول الاضطرابات إلى الأقصر.

وأكمل "عمر" قائلا:

-البيت الفرنسي كالقلعة في أعلى قمة المعبد، وجدرانه سميكة وسليمة أكثر من أي بناء آخر في الأقصر، وهناك مساحة تسع عددا كبيرا من الناس... النساء والأطفال يمكن أن يتخذوا مأوا على الأرض، ويمكن أن يقوم الرجال والفتيان بمراقبة أي حركة في الصحراء وأي حركة للقوارب في النيل من الشرفات وأعلى المنزل، وكان معي مسدسات السير "داف جوردون" وأنا واثق من أن رجالا آخرين في القرية يمتلكون أسلحة؛ ف"مصطفي أغا" لديه بنادق صيد، لقد فكرت في الأمر، إنني أقولها صراحة.

وتساءلت قائلة:

-هل أخبرت أحدا آخر بهذه الخطة؟

فقال:

-ليس بعد؛ حيث لا توجد وسيلة للتنبؤ بما سيحدث، وإذا ما

كان الفلاحون التابعون للمهدي سيهاجمون الأقصر أو سكان القرية الغاضبين المتعبين سيشاركون في الانتفاضة، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد، فسأجبر سيدتي على الذهاب إلى المأوى ومعكم "عبد الله".

فقلت:

-إنها لن توافق على ذلك، بل ستريد أخذ مسدسات السير "أليك" وستواجههم بنفسها.

فقال:

-سأرغمها على ذلك؛ فلن يضر أحد رضيعا وامرأتين، هذا أكثر أمانا للجميع.

فقلت:

-بالتأكيد ستصل قوات الخديوي في الوقت المناسب لحمايتنا.

وتبادلت أنا "عمر" النظرات لبعضنا البعض بعد ذلك، وارتجفنا حيث وجدنا أنفسنا نعتمد على أمل حماية الخديوي الذي هو نفسه من هدد سيدتي، وعاد "مصطفي أغا" إلى المنزل في الصباح مع أخبار الانتفاضة التي قد انتشرت في عدة قرى أخرى، وأن مئات الفلاحين في ثورة مفتوحة، ويمكن أن تنتشر أكثر وقال:

-إذا كانت القوات لا تعمل، فيجب أن نكون على استعداد.

فأخبره "عمر" بفكرته حول استخدام البيت الفرنسي كمعقل، ووافق "مصطفي أغا" عليها كملاذ أخير، ولم يكن بالأقصر علامة على ما يحدث بالقرى الأخرى، واستمرت القوارب السياحية بالسير في النيل، والدعوة إلى الصلاة تخرج من المساجد، ويذهب القرويون إلى أعمالهم كما كان من قبل، ولكن هناك شعورا بالترقب في الأقصر، وميل سريع للغضب في السوق والأزقة الضيقة، وواصل "عمر" الحفاظ على عدم

وصول خبر التمرد إلى سيدتي، وفسرت سيدتي عصبيته الزائدة تفسيرا آخر، فكان أول شيء تفكر به هو أن تنادي عليه مذعورة كما لو أنها مقتنعة أنه تركها وذلك في كل مرة تستيقظ فيها من نومها الثقيل الذي تتسبب فيه الأدوية، وسمعتها تقول:

- لقد ذهب!

وأدركت أنها كانت تخشى أن يتركها "عمر" ويرحل معي، وأنني سأقنعه بطريقة ما أن يأخذني والطفل ويتخلي عن سيدتي، ونسافر إلى مكان ما بحيث لا يمكنها أن تجده، وأن يتخلي عنها هنا في الأقصر وحدها، بعيدا عن بلدها وأصدقائها، وسمعت هذا في صوتها كما لو أنها تركت، ولا يوجد أحد هنا لرعايتها، وكانت تنادي بأعلى صوتها، وإذا لم يجب "عمر" على الفور فتقوم بالنداء مرة أخرى، وتحاول الجلوس في محاولة للنهوض من السرير، ورئتها تؤلمها وقلبها ينبض بشدة والدم يتسارع إلي رأسها، ودائما يأتي شخص ليجيبها؛ فدائما هنالك شخص ما إن لم يكن "عمر" ف"محمد" أو "أحمد"، ولا تترك بمفردها في المنزل دون تواجد شخص بالقرب منها، وتعود لتستلقي على وسائدها لتكون قادرة على الشعور بالراحة مرة أخرى، وتنسى مخاوفها وتطمئن نفسها قائلة:

- بالطبع هو هنا يا لي من حمقاء! إنه هنا؛ فهو مخلص ومطيع.

وأعرب "عمر" عن أسفه لأن "أحمد" أخبرني بما كان يحدث في القرى، ولكن بالنسبة لي كان نوع من الراحة أن يكون لدي شيء ملموس يثير خوفا كبيرا بعد أسابيع وأسابيع من الاختباء بعيدا في غرفتي أنتظر وآمل وأخمن مصيري ومستقبلي، وسمعت رجالا يصيحون على مسافة قريبة؛ ثم أقتربت الصيحات وأدركت أنهم قرويون يتكلمون أسفل نافذتي، أو النسيم يحرك أشجار النخيل، وكان من السهل أن يصيبني القلق، وضممت "عبد الله" المسكين بشدة بين ذراعي في أكثر من مناسبة.

وبعد الغداء في أحد الأيام، ذهب "عمر" إلى القرية في محاولة للحصول على المزيد من الأخبار، وبقى "أحمد" لمراقبة سيدتي كما كان يفعل عندما يذهب، ومع ذلك انطلق ذلك الفتى المشاغب وراءه، وعزم على معرفة ما كان يحدث بنفسه، وشغلني التفكير وأنا في غرفتي، وفكرت في الخروج إلي الصالون فيمكنني رؤية معركة القرية من الشرفة، وكنت أتتبع "عمر"، عندما سمعت سيدتي تنادي، وبطبيعة الحال هذه المرة لم يكن هناك رد، وكان "محمد" بعيدا عن المنزل أيضا، ولم يكن هناك أحد للرد، ونادت سيدتي مرة أخرى، وسمعت نبرة الذعر في صوتها، وفكرت أنها أصبحت طاغية، ولكنها لم تكن طاغية قبل أن يكون لي طفلي وهذا خطأي، وتجدد شعوري بالذنب والعار، ولكن أدى ذلك الإحساس إلي الشعور بالغضب؛ حيث تذكرت قدري وشدة الموقف الحالي.

بدأ الريفيون في التمرد، ولا زال يدفعني ذلك للتحرك وأخذ موقف، فوضعت "عبد الله" في سلة نومه وسرت إلى غرفة سيدتي، كانت جالسة وحركت قدميها لتضعها على الأرض، وكانت على وشك المحاولة للوقوف، وصدمت لدى رؤيتي لها على هذه الحالة؛ حيث أصبحت نحيفة جدا وهناك مسحة من الشحوب ببشرتها، وشعرها القصير أصبح أشيبا تماما، قالت:

-ماذا تفعلين هنا؟

وقالت بنبرة شديدة:

-أين "عمر"؟

ورأيتها مذعورة، وللحظة شعرت برغبة قوية في أن أكون قاسية، وأقول لها:

-إن "عمر" تركنا سويا هنا لنموت على يد القرويين الذين انضموا للانتفاضة.

ولكني قلت ذهب "عمر" إلى القرية، وامتنعت عن إضافة الكلمة المألوفة "سيدتي"، وقلت:
-أستطيع مساعدتك، ماذا تحتاجين؟
قالت:
-أنا لا أريد مساعدتك، سيعرج على "عمر" عندما يعود
والتفتت لتنظر بعيدا إلى الجدار لتصرفني كالطفل، ولكنني لم أستطع المغادرة؛ فبدأت كلامي قائلة:
-رجاء!
وشعرت بتلعثم في كلامي وقلت:
-"سيدة داف جوردون"، من فضلك وأتوسل إليك لا ترسليني بعيدا.
وسمحت لنفسي بأخذ نفس، ولم تكن تنظر إليَّ، وهذا الأمر مكنني من الاستمرار، فأكملت قائلة:
-لا تجبريني علي ترك طفلي والعودة إلى انجلترا، ولتفكري في أطفالك؛ لتفكري بالآنسة "رينية"، ولا تفرضي هذه الفرقة عليَّ، فأنا و"عمر" متزوجان الآن، وسنجد طريقة.........
لم تنظر إليَّ وقالت:
-اخرجي!
كان صوتها منخفضا، وأضافت:
-اخرجي من غرفتي فورا، وسأجعلك تغادرين المنزل اليوم.
وكنت يائسة فقلت:
-إنه يحبني وأنت تعرفين هذا الأمر جيدا، لماذا تكرهينني بعد كل شيء قمت به من أجلك؟... وبعد كل تلك السنوات التي كنت في خدمتك؟... هل تنكرين طفلي وتستنكري حصولي على أي سعادة خاصة بي؟
وأخذت سيدتي كتابا من على طاولة بجانب سريرها كما لو أنها ستبدأ القراءة، وواصلت مناشدتي لها، تسارعت كلماتي،

فاستدارت فجأة تجاهي وقذفتني بالكتاب مع كل ما تبقى لديها من قوة، فأصابت الضربة وجهي فتراجعت للخلف ممسكة بأنفي الذي شعرت أنه بحالة سيئة، وبدأ ينزف فأسرعت إلى خارج الغرفة، وعدت مرة أخرى إلي غرفتي، وبعد عدة ساعات عاد "عمر"، وامتلأ المنزل مرة أخرى بالناس والنشاط، وعندما مر بي لاحظ إصابتي حيث تورم خدي وبشرتي، وكانت هناك بداية لكدمة في عيني، فأخبرته أنني قد انزلقت وسقطت واصطدمت بحافة الطاولة، وشك في كلامي، لكنه كان مشغولا جدا فهناك الكثير من الأمور التي تحدث، وأكدت له أنني على ما يرام، ولم يستطع الحصول على مزيد من المعلومات الحقيقية عن الأحداث بجنوب "قنا"، وسادت حالة من التوتر الشديد بالقرية، واستعدوا لتحويل ولائها إما إلى الانتفاضة أو إلى الخديوي، وقال "عمر":

-ربما حان الوقت الآن لنخبر سيدتي بخطتي، ربما يجب أن أرسل ل"مصطفي أغا"، أخرج الأسلحة.

ولم أجب، فلم يكن لدي أي فكرة عما يجب عليَّ فعله؛ ولم يكن لدي أي فكرة عن أي شيء قط، وبعد ذلك جاء "أحمد" مهرولا على الدرج وصاح قائلا:

-إنهم قادمون، إنهم هنا، إنهم يسلكون طريقهم خلال القرية!

وهرع "عمر" لجلب مسدسات صيد السير "أليك" التي احتفظ بها مخبأة في غرفته، وهرعت إلى النوافذ في الجزء الأمامي من المنزل، ورأيت ما جعلني أتوقف؛ فلم يكن أهل القرية يستجيبون للانتفاضة وأتوا على الطريق لاقتحام البيت الفرنسي، إنه شيء غير عادي فهو موكب رائع تحمله الأحصنة والحمير، وتحرك خلال القرية ليشق طريقه نحو البيت الفرنسي، وبه اثنان من "الداهابياس" -نوع من المراكب الكبيرة- الفاخرة الواسعة الراسية في النهر، وكنت أتساءل من يمكن أن

يكون على وجه الأرض قد أتى؛ وعندما جاء اتضح أنه الأمير والأميرة "ويلز"، واستقبلت سيدتي الزوار الملكيين في صالون المنزل الفرنسي، والحاشية الملكية استقرت في المطبخ، وأسرع "عمر" و"أحمد" من غرفة إلى غرفة بجنون لتحضير احتياجات الضيوف، وتسلل "أحمد" ليجلب لي الأخبار دقيقة بدقيقة، وبعد أن ذهبوا بعد بقائهم الذي دام لمدة أقل من ساعة والتي شعرت أنها عدة أيام، لم أستطع منع نفسي؛ فهناك الكثير من الأمور تحدث، وجاءت الزيارة الملكية في خضم التهديد بثورة الفلاحين، وكنت بحاجة لمعرفة كل شيء، وكنت بحاجة ل"عمر"، والخروج إلى شرفة المنزل بنفسي لرؤية الزوار وهم يغادرون لمعرفة ما إذا كان الغوغاء الغاضبون بالقرية على وشك الثورة في أعقاب هذه الزيارة، ولكن كان "عمر" شديد الانشغال في المطبخ؛ ثم مع سيدتي، ففعلت شيئا لم أفعله من قبل، ولم أفعله طوال سنوات عملي كخادمة، حيث وقفت خارج باب سيدتي لأستمع إلى محادثتهم.

قالت سيدتي:

-إن الخديوي سيكون فخورا بي، فلم أتحدث بكلمة ضده، فالأمير والأميرة أمير "واليز" هما ضيفاه في مصر، ولم يرغبا في مناقشة السياسة معي.

وكنت أسمع وعلمت أنها كانت مرهقة من هذه الزيارة وترتجف، وقام "عمر" بوضع شال على ركبتيها وآخر حول كتفيها، وقالت:

-"عمر"، توقف عما تفعله، واستمع لي... إن الأمر خطير جدا، أعطني يدك.

فقال:

-حاضر يا سيدتي.

فقالت:

-سألت الأمير "ويلز" أن يصنع لي معروفا كبيرا إذا بقيت معي... "عمر"، هل تصغي إليَّ؟
فقال:
-نعم، يا سيدتي.
فقالت:
-إذا بقيت معي ولم تتركني واهتممت بي وقمت برعايتي حتى أموت.
هنا بدأ "عمر" في الاعتراض، لكنها أسكتته قائلة:
-لأنني سأموت، لا يوجد مهرب من هذه الحقيقة. وتوقفت مرة أخرى، فحبست أنفاسي وأكملت هي:
-إذا كنت ستبقى حتى ذلك الحين، فقد وعد الأمير "ويلز" بمكان في بيته فيما بعد، ولم يقل "عمر" شيئا، وحبست أنفاسي بيدي؛ مكان في منزل الأمير "ويلز"!، وأكملت هي قائلة:
-ستمنح مكانة مرافق الأمير "ويلز".
ولم يقل "عمر" شيئا كما لو كان عاجزا عن الكلام، فقالت سيدتي:
-هل تفهم ما أقول؟
وكان هناك صمت لفترة طويلة، ثم سمعت صوته أخيرا مرة أخرى، وقال:
-نعم يا سيدتي.
فقالت:
-إذا كنت ستبقى معي، فسيؤمن مستقبلك ومستقبل أسرتك في القاهرة.
وأخذ "عمر" نفسا؛ فليس أمامه اختيار ولن نكون معا؛ فهذا ليس خيارا وليس احتمالا واقعا، فهو مسئول تجاه الكثير من الناس أيضا، والديه و "مبروكة" وسيدتي والآن الأمير والأميرة "ويلز"، فيعتمد عليه الكثير من الأشخاص وقال:

-سأبقى بجانبك يا سيدتي، وسأكون بجوارك دائما، فلا يوجد أي خيار، وسأضطر للرحيل.

وانتظرت خارج الغرفة؛ حيث رغبت في أن يراني؛ ليعلم أنني أعرف ما حدث خلف ذلك الباب، حيث تم مقايضة حياتي، ووقفت خارج ذلك الباب أنتظر في صمت، ولكن لماذا تصرفت سيدتي معي على هذا النحو؟ ولماذا خبر علاقة حبي جعلها تحتقرني؟ ففي أي أسرة أخرى عندما يحدث هذا ويرتبط الموظفون المخلصون بالزواج، فهذا يقلل من احتمال انتقالهم إلى صاحب عمل آخر، ويعد هذا شيء مفرح، وبينما كنت أقف خارج ذلك الباب كنت أتساءل إذا كانت سيدتي دائما سيئة وأرادت "عمر" لنفسها واتخذت ما فعلت عذرا للتخلص مني، وتساءلت إذا كانت سيدتي تحب "عمر"، ولكنني كنت أدرك أن هذا غير معقول، فلن يتعدى حبها للخادم حبها للحمار، وخرج "عمر" من غرفتها، ونظرت إلى وجهه، وأدركت أنني خسرت؛ حيث خسرت "عمر" لسيدتي، وإذا لم أكن حريصة جدا قد أفقد طفلي أيضا، وهكذا أفقد كل شيء، وكتبت ل"أيلين" أختي في "الأسكندرية"، ولكنني لم أتمكن من الكتابة لها على الرغم من أنني حاولت مرات عديدة، وأخبرتها بما حدث، وأعطيتها وجهة نظري بصراحة وببساطة بقدر الإمكان، وكنت آمل ألا تكون غاضبه مني، وبطبيعة الحال كنت آمل بأنها ستمدني بحل ما، فنحن دائما ما ساعدنا بعضنا بعضا في الماضي، وساعدتها في الحصول على وظيفتها عند أسرة "داف جوردن"، وأتذكر جيدا اليوم الذي أصبحت فيه خادمة للسيدة "جانيت"؛ حيث كانتا فتاتين صغيرتين ومسرورتين ومستمتعتين مع بعضهما البعض.

كتبت "ألين" لترد عليَّ، وبالطبع كانت تعرف كل شيء عن

الوضع بالفعل، وقالت أن كلا من السيدة "جانيت" والسيدة "أوستن" والدة سيدتي، وحتى السير "أليك" نفسه قالوا أنهم يشعرون أن سيدتي تعاملت معي بقسوة شديدة، وللحظة وأنا أقرأ ردها، شعرت بالأمل يعود إليَّ، ولكن ليس لدى "إلين" حلا لتقدمه لي، فلا توجد خطة لدى أسرة "روس" لتأخذني وطفلي، وجدت فقط كلمات رقيقة للتعاطف مغلفة بالدهشة والإهانة والحزن بسبب هذا الموقف، وعرفت جيدا شعور التوتر والراحة الذي يستحوذ على قلوب جميع موظفي المنزل غير المتزوجين، ولكن هناك نعمة، حتى لو لم يعبر عنها، وفي تلك الليلة كان "عمر" نائما خارج غرفة سيدتي عندما أيقظه أكبر أبناء "مصطفي أغا" الذي تقدم لي منذ فترة مضت، وحمل خبرا مفاده أن قوات "إسماعيل" باشا أطلقت النار على مائة رجل شاركوا في انتفاضة "قنا" وحرقوا القرى ودمروا الحقول في كل مكان، وأنهوا التمرد قبل أن يصل إلى الأقصر، وقال الشاب:

-لقد هرب الدراويش إلى التلال، وأصبحنا في أمان.

الفصل الخامس عشر

قمت بتعبئة أشيائي وكنت مستعدة للرحيل؛ حيث أمتلك أمتعه قليله شنطة سفر واحدة و"عبد الله"؛ فمعظم الأشياء بحياتي تمدني بها سيدتي، وتبقى معها، وكان الطفل نائما في سلته غير مدرك لما يحدث حوله، وفي صباح ذلك اليوم، رست باخرة حكومية في "الأقصر" وستغادر مرة أخرى بعد ظهر نفس اليوم ستأخذني أنا و"عبد الله" معها، حيث سأرحل بعد أشهر من الانتظار، سأرحل عن "الأقصر"، وبدلت ثيابي المصرية تلك الملابس التي أمرت سيدتي بها لي خصيصا في العام الماضي، وأمضيت الأسبوع الماضي في إصلاح وإعداد ملابسي الانجليزية والملابس النسائية الثقيلة والتنورة المرهقة، حيث اغتنمت هذه الفرصة لإخراجها من أسفل الحقيبة ونفضها خارجا وربطها بإحكام، ولم تنسَ أصابعي ما اعتادت القيام به، ثم ارتديت الفستان البني ذا الرقبة وأغلقته بخطاف

الزر المحلي، وأغلقت زر الثياب الخشنة المسببة للحرارة وحذائي الجلدي الثقيل، وقمت بلف شعري ووضع القلنسوة البيضاء على رأسي، ولا أتذكر آخر مرة ارتديتها وارديت القفازات وأصبحت مغطاة تماما، وعلى استعداد للرحيل، وبقت سيدتي في غرفتها، ولم يكن هناك أي وداع، وقد رفضت أن تعطيني رسالة مرجعية لأصحاب العمل المستقبليين، كما لم تقبل إعطائي رسالة لعملاء القنصلية لتسهيل المرور إلى أسفل نهر النيل، ومن خلال "عمر" أعطتني آخر راتب لي ومبلغا من المال يكفي لشراء تذكرة عودة إلى انجلترا لا شيء أكثر من ذلك، ولم أرد مال السيدة "داف جوردون" على الرغم من أنني قد أخذته حيث لا بد من ذلك، وما أريده هو أن تغير سيدتي رأيها بالنسبة لهذا الأمر، فماذا تتوقع مني أن أفعل عندما أعود إلى انجلترا؟ وجدت نفسي أتساءل، ولكنني كنت هادئة؛ فلم يتبقَ لديَّ أي غضب في هذا اليوم، وليس لدي مرجع ولا مال خاص بي، ولا سمعة أيضا؛ فالجميع في لندن قد سمعوا ما حدث لي، فكيف تعتقد أنني سأنجو من هذا، وتتوقع أن تنتظرني "مبروكة" زوجة "عمر" ووالداه في القاهرة، وأرسل "عمر" لهم وأخبرهم بأمري، وقد رتبت سيدتي لأن أسلم "عبد الله" لهم قبل مواصلة رحلتي، ولكنني كان لديَّ خطط أخرى، وهي خطط لم أخبرها لأحد ولا حتى لزوجي؛ فسأرحل عن "الأقصر"، ولكنني لن أترك مصر، ودخل "عمر" و"أحمد" إلى غرفتي معا ورفعا حقيبة السفر وسلة "عبد الله"، وأخذاها إلى أسفل لتحميل على الحمار، وفعل الصبي كما قيل له، ولكنه لم يستطع التوقف عن البكاء، فقلت:

- "أحمد"، اثبت أنك ذو منفعة كبيرة خاصة اليوم؛ حيث تبكي بدلا مني.

قلت هذا على سبيل المزاح، ولكن لم يضحك أحد.

كان "عبد الله" علي ذراعي، وقد استيقظ وأخذ يلعب في خدي بسعادة، وحملته أسفل الدرج وخرجنا من الباب، وكان هذا كل شيء، فقد غادرنا البيت الفرنسي، وفي طريقنا خلال القرية ظهر الجيران، وقدموا لي الهدايا والبلح والحلويات والعسل لرحلتي، وكل ما أمكنني القيام به هو عدم التحسر على كرمهم، وعندما وصلنا إلى الباخرة كان "مصطفي أغا" راكبا على خيله، وترجل من على الحصان وانحنى لي، وأعطاني جعرانا كبيرا أزرقا أبديت إعجابي به مرة ونحن في منزله، وقال لي أنه شديد الحزن على رحيلي، وأخذت مقصورة صغيرة من الباخرة، وجلب "عمر" حقيبتي إلى المركب، وذهب لرؤية "الريس"، وأعطاه مبلغا من المال لضمان مروري بأمان، وأطلق صفير الصافرة، وكان عامل المركب ينادي على الركاب، واحتضنني "عمر" وهو يرتجف، وشعرت أنه لم يمكنه العثور على الكلمات المناسبة، ولم يستطع إيجاد ما يقوله، ولكن الصافرة تضرب بشدة وحان الوقت ليغادر الباخرة، فقال أخيرا:

-اعتني جيدا بولدي.

وأحنى رأسه، فقلت:

-إن شاء الله.

ثم ذهب ل"أحمد" الذي كان يبكي أسفل المنحدر، ونظرت عبر القرية إلي البيت الفرنسي الكائن أعلى المعبد، وكان هناك شخص على الشرفة، وانحنيت لمعرفة من هو من خلال وهج فترة بعد الظهر على أمل أنها سيدتي، ولكنه كان "محمد" يلوح بجنون، فلوحت له، ووجدت نفسي أبتسم على الرغم من كل شيء، وابتعدت الباخرة وغادرت الأقصر بالفعل.

الجزء الثالث
بعد الحياة

الفصل السادس عشر

بمجرد مغادرتي لمنزل سيدتي تغير كل شيء مرة واحدة، وشعرت كما لو كان العار مكتوب على وجهي بحبر لا يمحى، وخرجت إلى العالم وحدي كما حدث قبل سنوات؛ حينما غادرت أسرة عمتي وذهبت للخدمة في المرة الأولى، وفقدت وظيفتي ومكانتي كمرافقة للسيدة "داف جوردون" مع مقابلة المبعوث الحكومي في كل منفذ، ونفوذ الاتصالات المصرية والأوروبية، وأصدقاء سيدتي هنا وهناك على طول الطريق، لقد تركت لإعالة نفسي وطفلي، ولم يسبق لي أن سافرت وحدي من قبل، بصرف النظر عن اخذ قطار يصل إلى لندن في يوم راحتي أثناء وجودنا بانجلترا، وشعرت بأن المسافة كانت مليون ميل وملايين السنين تفصلنا عن تلك الأيام، ولم أسافر أبدا بباخرة حكومية، ولست معتادة على الزحمة، على الرغم من أن الباخرة قد بدت شامخة وكبيرة عندما رست في "الأقصر"، وبمجرد صعودي على متنها

بدا أنها قد تغيرت؛ فهي قذرة ومليئة بالهاموش، ولا يوجد بها أيُّ وسائل حديثة للتحدث، ولا حتى الأشياء التي وجدت على متن قاربنا الذي نسافر على متنه، ولكن عندما يوجد امرأتين مع طاقم مكون من اثني عشر رجلا تحت تصرفهم؛ فلا شك أن الحياة تكون أبسط من كونك امرأة وطفل بمفردكما ومحاطان بالغرباء.

وقضيت أول ليلة في حالة من الذعر غير قادرة على مغادرة مقصورتي، وشعرت أنني بالتأكيد كنت محاطة باللصوص والأوغاد الذين يرغبون في انتزاع طفلي مني وإلقاءه في النيل، وكان الباب بدون قفل وإطاره مشوها جدا وملتويا واستغرق جهدا كبيرا لغلقه، ولم أستطيع النوم، وقضيت الليلة في محاولة لتنظيف المقصورة؛ بحيث تكون صالحة للسكن أثناء الرحلة، ولكن هذا القبو الخالي من النوافذ كان كبيرا بما يكفي لسرير مخيمات وشنطة سفر وسلة "عبد الله" التي شغلت ما تبقى من الأرض، على الرغم من أنني أبقيته معي في السرير وخفت عليه منهم، ولكن الغرفة كانت مظلمة جدا، وليست بها تهوية جيدة تساعدني على تحقيق تقدم كبير بهذا الصدد.

وفي صباح اليوم التالي اضطررت لمغادرة مقصورتي للعثور على مياه لأنظف "عبد الله"، وخرجت ممسكة الطفل بين ذراعي، وكانت الحرارة شديدة وأنا أرتدي هذا الثوب الإسلامي عالي الرقبة على الرغم من أننا ما زلنا في الصباح الباكر، وفي لحظة خروجي إلى سطح السفينة تجمعت مجموعة من الفلاحات حولي، ورغبت في العودة بسرعة إلى غرفتي، ووضعت الحقيبة أمام الباب، وأخذن يحدقن في وجهي في صمت، وحدقت أنا أيضا بهم، ولم أستطع التحرك، وأود القول أنني لم أخاف هكذا

منذ ولادة "عبد الله"، لقد كنت خائفة على نفسي وطفلي، ولكن ابتسمت إحداهن في وجهي وتذكرت؛ تذكرت أين كنت، وتذكرت من كان يحيط بي فهن مصريات، ولا يوجد على سطح الأرض من هو ألطف أو مضياف مثل المصريين، وأخذت نفسا عميقا وابتسمت لها، وحييت النساء بكل احترام قائلة: "السلام عليكم."، وبدأن في محادثتي مرة واحدة بسعادة ومرح وود، والغريب أنهن أخذن الطفل من ذراعي ليدللنه وتشاركن معي المياه والغذاء الخاص بهن، وأعطينني أفضل الأشياء وأحلاها وألذها، والأكثر غرابة أنهن لم يسمحن لي بإعادتها، وجعلنني أجلس في الظل على سطح السفينة في مؤخرة الباخرة، وكن يلعبن مع "عبد الله"، وطرحن عليَّ عشرات وعشرات الأسئلة، ودهشن من لغتي العربية، بل ودهشن أكثر لدى سماعهن أني تزوجت مصريا، على الرغم من أنهن لا يوافقن على حقيقة أنه سمح لي بالسفر إلى دلتا نهر النيل بمفردي، حيث لم يسمع من قبل أن إفرنجيا سافر بباخرة حكومية، وأقسمن أنها كانت المرة الأولى على الإطلاق حيث يقوم إفرنجي بذلك، وذلك بناء على كلمة "الريس" نفسه، حيث كنت أول من يراه يفعل ذلك في حياته.

تركت عالم السيدة "داف جوردون "المحاطة بالرجال كالأصحاب والموظفين والمعلمين والأصدقاء، ودخلت عالم النساء حيث لا يوجد رجال باستثناء أطفالنا؛ أولئك الأولاد المحبوبون، وكان القارب يبحر إلى أسفل النيل بخطا ثابتة؛ حتى أننا لم تعرقلنا الريح أو المناخ كما كان يحدث على "دهبية"، وأيامي على متنها كانت نوع من التنفيس السعيد، على الرغم من أنني لم أدرك ذلك وقتها، وقضيت أيامي على الباخرة أخطط، واستغرق الأمر بعض الوقت لإدراك ذلك، ولكن إذا لم يكن

هناك أحد ليعتني بي فلا يوجد أحد يخبرني بما يجب عليَّ القيام به، وما أطلت قدر استطاعتي في الإجابة على استفسارات النساء حول المكان الذي كنت ذاهبة إليه، وبالطبع أسرة زوجي تنتظرني في القاهرة، وكنت أعرف إلى أين أذهب، وماذا سأفعل وساعدني الكذب الأبيض الذي أخبرته للنساء من حولي على رؤية الحقيقة، فلم أرد أن أعطي "عبد الله" لزوجة "عمر" الأولى والعودة إلى انجلترا، ماذا يحملني على فعل شيء من هذا القبيل؟ فقد رمتني السيدة "داف جوردون" وحررتني من عبء الولاء لها، ولن أفعل ما تريده السيدة "داف جوردون"، وإنما زوجي هو من آخذ برأيه، طبعا إذا كان "عمر" هنا لكنت طلبت إذنه وأطعته؛ فأنا زوجة صالحة، ولكنه لم يكن هنا، ولم أرد التخلي عن كل شيء أحبه وأذهب بعيدا، فلن يكون على سيدتي مواجهتي مرة أخرى، ولم أفعل مثل هذا الشيء مهما بلغ تأثير السيدة "داف جوردون"، وسأجد وسيلة للبقاء في القاهرة، وإبقاء "عبد الله" معي، وتصميمي منحني الشجاعة، وزادت وقوة الشجاعة من تصميمي، وسيغفر لي "عمر"، كنت متأكدة من ذلك كتأكدي من أي شيء، وفي ميناء بولاق في القاهرة ظهر المأزق الحقيقي لي مرة أخرى؛ حيث أنه على متن الباخرة كنت مشغولة وأتسلى ومعي صحبة من رفقاء السفر، وحتى الإسهال الذي أصبت به لم يؤثر بصورة سيئة على رحلتي.

وفي القاهرة بمجرد أن رست السفينة، ودعتني النساء اللاتي رافقنني قائلات:

-الحمد لله، وحمد الله على السلامة، وإن شاء الله.

واختفين في الزحام مثل المياه التي تتسرب من سطح السفينة، وسرت إلى أسفل الممشى، حيث شعرت أن الجميع يحدقون بي، وندمت على قرار ارتدائي الملابس الأوروبية في ذلك اليوم،

وقد يكون المصريون طيبون، ولكنهم لا يخجلون من التحديق، ويبدو أنهم لا يعتبرونه وقاحة بأي شكل من الأشكال، وكنت شخصا غير متوقع هبوطه من الباخرة مع شنطة سفر وطفل، كنت بمفردي حيث لم أسمح ل "عمر" بأن يجعل أحدا يستقبلني أحد في بولاق، وأفهمته أنني سأذهب مباشرة إلى منزل والديه لتسليم "عبد الله"، ومن هناك سأتوجه إلى الأسكندرية لأعبر البحر الأبيض المتوسط، وخططت لأختفي بين الحشود في هذه المرحلة، ولكن تم ملاحظة وجودي بين الحشود.

وجدت بنسيون في وسط المدينة بالأموال التي خصصتها سيدتي لسفري إلى انجلترا، ودفعت جزء من المال ل "أم محمود" زوجة صاحب البنسيون المسن لرعاية "عبد الله" لعدة ساعات كل يوم، وهي امرأة طويلة ولها صدر عريض وابتسامة جميلة، وكانت رائحتها كرائحة ماء الورد واليسنون، وأخبرتني أنها تحب "عبد الله" بالفعل، وبدأت بالبحث عن عمل وبدأت في فندق "شبرد" فهو مكان مألوف بالنسبة لي حيث سأجد أشخاصا انجليزيين آخرين وكذلك خادمات انجليزيات أخريات، وتوقف الحديث في بهو الفندق لحظة دخولي، ورأيت نفسي في عيون الجليزية للمرة الأولى منذ فترة طويلة، وأصبح وجهي ويدي ملونان بسمرة الفلاحين الدافئة، وفجأة أصبح ثوبي رثا ولا يطاق وقلنسوتي بالية ومنكمشة، وقفازاي يجب استبدالهما، ووقفت باستقامة واقتربت من أول موظفة انجليزية رأيتها وسألتها:

-هل أنت خادمة لسيدة؟

وكان صوتي يملؤه التوتر وتحدثت بلغة انجليزية غير مألوفة، وكنت أستمع كيف أصبحت لهجتي غريبة، وكانت الخادمة لا تتعدى التاسعة عشر أو العشرين من العمر، ترتدي مثل ما

كنت أرتدى، ولكن ثيابها أنظف وأجدد وأكثر تألقا، فنظرت إليَّ وتراجعت وقالت:

-لماذا تسألين؟

وكانت نبرتها تشبه الصرخة قليلا، فسألتها قائلة:

-هل تعملين هنا في القاهرة؟

فقالت:

-سنسافر غدا للأسكندرية فنحن عائدون إلى انجلترا.

واستجمعت الشابة نفسها وقالت:

-لماذا تسألين؟

كنت أرى اهتمام الناس ببهو الفندق ينصب عليَّ؛ حيث كان هناك مجموعة صغيرة من النساء اللاتي يتناولن الشاي ورجلان يدخنان، وأدركت خطئي؛ ففندق "شبرد" لم يكن مكانا جيدا للبحث عن الانجليز الذين يعيشون في القاهرة؛ حيث يقصده الأشخاص حديثي الوصول للقاهرة والذين يستعدون للمغادرة وفي تلك اللحظة، اقترب أحد موظفي الفندق مني ووضع يده على ذراعي، وصدمت حيث لمسني رجل غريب فقلت له ابتعد بشكل حاد باللغة العربية، فركضت الخادمة التي كنت أخاطبها، وقال مضيف الفندق وهو عابس:

-أنت غير مرحب بك هنا.

وأعرب عن اعتقاده بأنني عاهرة، فهربت من هناك، وبعد ذلك غمرني اليأس، وأصبحت بالكاد قادرة على مغادرة سكني، وقضيت أيامي في غرفتي مع "عبد الله"، وسقط في إيقاع أعدت عليه جيدا في البيت الفرنسي؛ حيث اختبأت بعيدا في انتظارما سيحدث، وعلى الرغم من تردي الوضع بغرفتي؛ حيث أنها مظلمة وباردة، فكان بها مصدات رياح عبارة عن أحد نوافذ خشبية متشابكة بصورة مثالية من تلك التي توجد في القاهرة،

وتطل على شارع ضيق، وجلست كأي فتاة مصرية صالحة تشاهد العالم يمر، وبعد أيام قليلة استجمعت شتات نفسي وذهبت ل "أم محمود" لتخبرني بما يجب عليَّ فعله؛ فوجدت خياطا في السوق وصرفت جزء كبيرا من مال سيدتي لأدفع له ليخيط لي ثوبا مماثلا لفستاني عالي الرقبة، ولكن هذه المرة من القطن المصري خفيف الوزن ومغطى بأغصان أزهار صغيرة.

أدركت الحقيقة الآن؛ فلن يقوم أي شخص انجليزي بتعييني فالوقت الذي قضيته بمصر حولني ولم أعد الموظف المثالي الذي كنت عليه ذات مرة، ولكنني لدي فكرة جديدة حيث يمكن أن تهتم النخبة المصرية بفكرة أن يكون لديهم خادمة انجليزية في أسرتهم؛ حتى لو كانت واحده قد دمرت سمعتها، ولكن كيف أصل لهؤلاء الناس؟ فالسيدة "داف جوردون" كانت تتحرك في عالم يسوده تعريف وتقديم الأشخاص لبعضهم البعض، بل بدا أن كل ما تحتاجه وكل ما نحتاجه لم يكن سوى تقديم التعريف بالشحص بواسطة شخص أو اثنين، ولكن هنا في القاهرة لم يكن هناك أحد ليسهل طريقي في المجتمع، وفكرت فيما يلزم القيام به لأنجو، وهذا جعلني ألهث بشدة في بعض الأحيان وأجلس واضعة رأسي بين قدمي كسيدة عجوز باغتتها موجة من الدخان، ومثل سيدتي نفسها في يوم من أيام مرضها، وذكرت نفسي أنني ليس لديَّ أي وقت لهذا الضعف مرارا وتكرارا، فأجبرت نفسي على الوقوف على أقدامي مرة أخرى.

كانت المدينة تتغير بسرعة، وتم تأمين ضفاف النيل، وأفسح الطريق لموقع بناء واسع كما حدده "إسماعيل" باشا لتنفيذ خطته الكبرى لتحويل "القاهرة" إلى باريس أفريقيا، التي بدأ في تنفيذها منذ ما يقرب من سنتين منذ زيارتي الأولى إلى المدينة مع سيدتي، وقد شهدت المدينة تغييرات كبيرة، حيث أنهى العديد

من القصور والشوارع الواسعة في وسط المدينة، ومهدت الطرق، وزرعت الحدائق، وزادت وتيرة التغيير مع تقدم العمل في قناة السويس، في حين أن عدد كبيرة في "القاهرة" يتطلع إلى أوروبا للإلهام، وازدهر الحي الإفرنجي بالجانب الغربي من البلدة القديمة، ولكنني كنت أشعر بالألم من زيارتي لفندق "شبرد"، وقررت تجنب الأوروبيين، وكانت أموالي تقل على الرغم من سخاء صاحبة البنسيون، إنني بحاجة للعثور على عمل، ولم أكن قد كتبت إلى "ألين" أختي لأخبرها عن مكاني، وكنت آمل ألا تعرف أنني لم أسلم الطفل وأنه لم يصل بعد إلى "عمر" في الأقصر.

وكانت القاهرة هادئة لبضع ساعات فقط كل يوم؛ حيث تكون هادئة قبل الفجر، ومرة أخرى في ساعات بعد الظهر لارتفاع الحرارة، وعندما يسود الصمت لا يقطعه سوى رنة بائع المياه الباردة مع أكواب النحاس ونداثه على الزبائن ليشتروا المياه الباردة والخروب والعناب والشربات، وكنت خلال هذه الساعات الهادئة أبقى مستيقظة من مخاوفي، وأدركت ما يجب القيام به.

وفي ضوء الصباح الباكر أرتديت ملابسي المصرية، بما في ذلك الحجاب والنقاب الذي لم أشعر أبدا بالحاجة له في الأقصر، ولكني أرتديه في كثير من الأحيان في القاهرة؛ حيث شعرت بالضجر من الفضول الذي يسببه وجودي وتركت "عبد الله" مع "أم محمود" مرة أخرى، واستقر في حضن المرأة العجوز دون شكوى، وسلكت طريقي في شوارع القاهرة ، ومثل جميع المارة اضطررت للتوقف كثيرا لآخذ نفسي وكذلك بجوار جدران المباني الحجرية التي تملأ الشوارع للسماح للجمال والحمير

لتمر، وأخيرا وصلت إلى حدود المدينة وبدأت الخروج إلى الريف؛ حيث زرت السيد "هيكيكيان" بك صديق سيدتي في أوقات إقامته بالريف عدة مرات عن طريق السيارة، وأتذكر الطريق كان على مسافة طويلة خلال حقول القطن، وأزعجتني الحرارة واضطررت للتوقف وشرب المياه من حفرة الري على جانب الطريق، وبعد عدة ساعات خشيت أن أكون قد اتخذت منعطفا خاطأ وتهت، وذلك عندما رأيت بيت السيد "هيكيكيان" بك من على مسافة تحيط به أشجار النخيل طويلة القامة يظهر مثل الواحة.

كان المنزل محاط بمجموعه من الجدران، وقمت بسحب حبل الجرس عند البوابة، وكنا في منتصف الفترة الصباحية ودرجة حرارة في شهر يونيو قد بدأت ترتفع، وجاء الموظف إلى الباب وعبس لرؤية امرأة غريبة محجبة تقف أمامه وخاطبته باللغة العربية، وقدمت نفسي، وسحبت الحجاب إلى أسفل ووضعته على كتفي، وأزلت الحجاب فبرزت عيونه من رأسه عند رؤيته امرأة انجليزية وأبتسم على الرغم من كل شيء، وأبلغني الموظف أن "هيكيكان" بك ليس في المنزل، وذهب لإعلام زوجة "هيكيكان" بك التي قابلتها هي أيضا عدة مرات لتأتي، وأعرف أنني خاطرت بالذهاب إلى "هيكيكان" بك للمساعدة؛ حيث من المؤكد أن خبر زيارتي سيصل إلى سيدتي، ولكن الأخبار تنتقل ببطء في مصر، وكنت آمل أنه بحلول ذلك الوقت الذي تعرف فيه ما فعلته سأكون قد وجد وظيفة جديدة تتعدى وظيفتها.

قابلتني زوجة "هيكيكان" بك في صالون المنزل الرسمي بين الآثار التي يشتريها زوجها ويصدرها خارج البلد، وبينما كنت

انتظرها استراحت على أريكة بجوار تمثال من تماثيل أبي الهول من الجرانيت الأسود، ويجلس على فخذه مثل كلب كبير في حالة تأهب، وشاهدت في الغرفة قطعة رخام أخضر في الظل، وعلى الجانب الآخر من الغرفة رأيت مومياء في علبتها الخشبية تميل على الجدار، بعد دقائق معدودة قمت بتعديل ثيابي، وتمنيت فيها لو أنني ارتديت ثيابي الانجليزية بدلا من الثوب المصري لهذه الرحلة الإفرنجية، وظهرت زوجة "هيكيكان" بك وخلفها خادما يحمل عصير الليمون والمخبوزات، ورحبت بي في منزلها بقدر كبير من البشاشة وتبادلنا التهنئات والتحيات، وقالت:

-سمعنا أنك تركت خدمة السيدة "داف جوردون".

فأحنيت رأسي ولم أتحدث، فأكملت قائلة:

-كتبت السيدة" هنري روس" لوالد أطفالي، وقالت أنها تريد إقناع السيدة "داف جوردون" باستئجار خادمة جديدة، حيث لا ينبغي أن تكون في مصر دون خدمة خادمة انجليزية ألا توافقين على ذلك؟

فنظرت لزوجة" هيكيكان" بك وأحنيت رأسي مرة أخرى وقلت:

-لا، أوافق على هذا فهي لا يجب أن تكون بدون خادمة، ولكن "عمر أبو حلاوة"... والد ابني، يهتم بها كثيرا، فقالت:

-نعم، إيجاده كان جيدا ونظرنا إلى بعضنا البعض ولم نقل شيئا، وتساءلت قائلة:

-أين هو طفلك؟ كنت أود رؤيته.

فقلت:

-تركته اليوم مع صديقة في القاهرة... أردت طلب النصيحة من السيد" هيكيكان" بك.

فابتسمت وقالت:

-والد أطفالي خبير في إسداء النصيحة، ولكنه ليس هنا... لا ليس هنا فلتخبريني لماذا جئت، وأنا سأحدثه بالنيابة عنك لدى عودته.

فقلت:

-أنا بحاجة لإيجاد وظيفة جديدة... لم أجد ترحيبا من الانجليز، ولكنني ربما أجده من عائلة مصرية لديها بنات يرغبن في تعلم اللغة الانجليزية ويحتجن إلى جميع الخدمات التي يمكن أن تقدمها خادمة انجليزية، إنني ماهرة جدا.

فقاطعتني قائلة:

-لا أشك في ذلك.

وشعرت أنها أحست فجأة بالضجر مني، وقالت:

-إنها فكرة مثيرة للاهتمام، ولكن والد أطفالي مسافر للعمل وسيعود في نهاية الشهر.

قلت:

- نهأية الشهر؟

وناضلت لإخفاء استيائي فلن يعود إلا بعد أسابيع، وقالت:

-سأتحدث إليه عنك، فمما لا شك فيه أنه سيكون لديه بعض الأفكار لمساعدتك.

فقلت:

-شكرا لك وسأكون في غاية الامتنان.

فقالت:

-أخبريني أين تقيمين؟

وعلى الرغم من أن إعطائها هذه المعلومات تمثل خطرا عليَّ، فلم يكن هناك خيار آخر، فأعطيتها اسم البنسيون الذي أسكن فيه، وكان هذا بنفس قدر مخاطرتي بالمجئ إلى هنا ونهضت للمغادرة، ورفضت تناول الغداء كي أتمكن من العودة إلى "عبد

الله"، وعلى البوابة قالت زوجة "هيكيكان" بك:

-ألم تستأجري عربة؟

وأمكنني سماع الدهشة في صوتها، ومع ذلك أعادت تقديرها لوضعي وأحضرت حمارا وصبيا لقيادته بالطريق، وأثناء عودتنا مرة أخرى إلى القاهرة شعرت أن ثقتي في "هيكيكان" بك بدأت تتلاشى؛ حيث سيمضي وقت طويل قبل عودته إلى مصر، وما هي المقدمات التي قد يمنحني إياها، وأنا بحاجة لفعل شيء آخر في هذه الأثناء؟

وبناء على اقتراح من "أم محمود" كنت في اليوم التالي في طريقي إلى أحد الفنادق الجديدة التي فتحت وكان وضعها سيئا، وكل موسم تشهد القاهرة تدفقا أكبر للسياح من مجموعة أكبر من المجتمعات، وبدأت فنادق جديدة تفتح في جميع أنحاء المدينة، ولم تكن جميعها على نفس قدر فندق "شبرد"، والفندق الذي وجدت نفسي أعمل به لم يحظَ بالاحترام على الإطلاق، وعلى بعد خطوات قليلة من بنسيون أم "محمود" المتواضع، تم التعاقد معي من قبل المالك الإيطالي "روبرتو ماجني"، وهو يتدخل في السياسة ويستغل السياح بتزويدهم بغرف غير نظيفة، وأعرب عن سعادته حيث وجد لنفسه موظفه تتحدث الانجليزية، ومن اليوم الأول فصاعدا كنت أعمل على تعلم كافة مهارات تنظيف الطوابق لتتلاءم مع المناخ الانجليزي، وأراد السيد "ماجني" أن أجلس في الفندق؛ وبذلك أستطيع العمل لساعات إضافية، ولم يكن لديَّ أي نية لأخبره بوضع "عبد الله"؛ ولذلك رفضت، ولكني نادرا ما كنت شخصا سهل المنال، ومع لغتي الانجليزية والعربية قرر التشبث بي على أية حال.

كان الأجر منخفضا، وبعد الدفع ل"أم محمود" مقابل

رعايتها ل"عبد الله" وسداد إيجار الغرفة ووجبات الطعام لم يتبقَ لي شيء، وعلى الرغم من ذلك فهذا العمل يعني أنني لن انفق من مال السيدة "داف جوردون" الذي منحتني إياه للعودة لانجلترا، ولم أكن معتادة على تدبير الأموال؛ فسيدتي كانت دائما تدفع كافة النفقات، ولكني تعلمت ذلك بسرعة، وعلى الرغم من أن العمل كان بسيطا، فإنني شعرت بالارتياح لاكتشافي أنني في بعض الهيئات اعتبر موظفة، وأصبحت أنام في الليل بصورة أفضل الآن، وأستيقظ بسبب "عبد الله"، وكان الاستيقاظ معه حلوا.

وبعد بضعة أيام في الفندق أدركت أن التدفق الجديد من السياح لا يشبه أي شيء قابلته في أي وقت مضى ولا حتى في الأقصر، وكما يبدو فهناك جزء كبير من الإنسانية ذهب في جولة نيلية منذ فترة بعيدة ولم يعد، وكان الخبر الخاص بالراقصة "كبوكي" حسناء مصر ينتشر في جميع أنحاء أوروبا، وجاء السياح يتوقعون وجود فتيات رقص وحريم، وساعات كاملة من العري، وبدلا من ذلك وجدوا أنفسهم في مدينة القرون الوسطى؛ حيث الطبقة المتطورة ذات النمط الأوروبي صغيرة جدا، والفلاحات منعزلات بعيدا عن الأنظار، وكان الفندق والبار التابع له والرجال المغامرون على وشك أن يصابوا بخيبة أمل لافتقادهم لصحبة النساء التي حظوا بها على متن الباخرة، وبذلت قصارى جهدي لإلهائهم، على الرغم من عدم نجاحي الكامل في ذلك بصفتي رئيس متحدثي اللغة الانجليزية.

وفي إحدى الليالي تبعني أحد الرجال إلى بنسيون "أم محمود" وشعرت به وأنا في طريقي أعبر الشوارع، وتذكرت جميع التحذيرات حول وجود امرأه وحدها في المدينة ليلا، وهرعت

لتجاوزه عند مدخل البنسيون وفتحت الباب بقصد الانزلاق من خلاله وغلقه خلفي، ولكنه أمسك الباب بقوة قبل تمكني من إغلاقه؛ حيث وضع ذراعه القوية في طريقه وحاول إمساكي، ولكنه فشل وجريت وصعد الدرج للوصول إلى غرفتي؛ حيث كنت أعرف أن "أم محمود" وضعت "عبد الله" لينم ليلا، وفكرت في إذا ما أمكنني فقط الوصول إلى غرفتي وإغلاق الباب، ولكن الرجل أمسكه معي عندما وصلت إلى المقبض، وندمت على عدم الصراخ منذ دقيقة خوفا من إيقاظ الناس وإلحاق العار بالمرأة العجوز وزوجها، ودفعني الرجل إلى غرفتي وأغلق الباب واعتقدت أنني سأموت وأنه سيقتلني في ظلام الغرفة واستطعت سماعه يتنفس، وأمكنني شم رائحة نفسه النتن الكريه، ورائحة ملابسه التي تفوح منها رائحة الكحول والتبغ الرخيص، وتمسكت بالأرض بينما اتجه نحوي أمسك بحلقي.

وبعد ذلك، حاربت في صمت دون إيقاظ الطفل ودون التسبب بأي ضجيج على الإطلاق بصرف النظر عن اشتباك القدمين وتمزيق الملابس، والهمهمة أثناء استعمالي ليدي. كنت غاضبة مثل الحجر البارد ليس من هذا الرجل فقط، ولكن من كل شيء وكل شخص؛ من السيدة "داف جوردون" لطردي من منزلها، ومن "عمر" لسماحه بمغادرتي، ومن السيد "هيكيكيان" بك لعدم وجوده عندما ذهب لرؤيته، ومن "روبرتو ماجيني" وفندقه المروع، فسمحت بتفريغ الغضب؛ حيث ضربته وعضضته و خدشته ومزقته حتى دفعت ذلك الرجل المندهش وهو ملطخ بالدماء خارج الباب، وأيقظت "عبد الله" واحتضنته كما لو كان يحميني.

وفي صباح اليوم التالي لمهاجمتي بواسطة ذلك الرجل نهضت

من حيث نمت، وكنت قد قضيت الليل نائمة في ثوبي الجديد المتسخ بالدماء والممزق بصورة غير قابلة لإعادة إصلاحه، وذهبت نحو عملي وكأن شيئا لم يحدث، وكأني نمت وطفلي ومرت الليلة في سلام، واغتسلت وأرتديت ملابسي بحذر وكنت ممتنة بشدة لأول مرة للزى الإسلامي البني ذات الياقات العالية؛ حيث ساعدت على إخفاء الكدمات الموجودة على رقبتي، وفكرت بهدؤ في حياتي وأنا أرتدي ملابسي؛ فأنا أعرف أنه حتى أتمكن من التحدث إلى "هيكيكيان" بك يجب عليَّ مواصلة العمل لدى السيد "روبرتو"، حتى إذا كان الرجل من الليلة الماضية لا يزال يقيم في الفندق، وأدرك أنه لا يمكن أن أعتمد على"أم محمود" لرعاية "عبد الله" لأجل غير مسمى على الرغم من طيبتها وحبها له، وكنت أعرف أنني لا أعتمد على المبلغ الصغير الذي تركته لحالات الطوارئ؛ حيث تعتبر كافة الأحوال هي حالة طوارئ، وهي قليلة على الرغم من معرفتي أنني سأموت إذا حدث أي شيء غير مرغوب فيه ل "عبد الله."

وبينما كنت أرتدي ملابسي هذا الصباح قمت باتخاذ قراري، وكنت أجيد وضع الترتيبات، بل كان كل شيء يصير بشكل جيد للغاية حيث حصلت على عمل، وشققت طريقي في المدينة، ولكن ذلك لم يكن كافيا، فقد تضحك عليَّ السيدة "داف جوردون" إذا تسنى لها رؤيتي وأنا أتسول على باب "هيكيكيان" بك ويعتدي عليَّ من قبل هذا النوع من الرجال الذي قضيت حياتي كلها أتجنبه، والأسوأ من ذلك بكثير أنني وضعت طفلي في طريق الخطر، ونظرت إلى نفسي في داخلي، وعندما نظرت في المرآة لم أجد شيئا متبقيا لي، لم يكن لديَّ أي خيار، سأتخلى عن طفلي لزوجة زوجي الأخرى.

الفصل السابع عشر

إن "مبروكة" مختلفة عما كنت أتوقع؛ حيث كانت أطول وتبدو أقوى بطريقة أو بأخرى، وكانت أصغر بكثير مما توقعت، على الأقل عشر سنوات أصغر مني إن لم يكن أكثر من ذلك، على الرغم من أنها كانت زوجة "عمر" لأكثر من ثلاث سنوات بالفعل عندما قابلني، ووصف لي كيف عاشت وترعرعت في بيت أبيها وهي مخطوبة ل "عمر" قبل أن يراها، وتعيش الآن في منزل والده مع أقل قدر ولا تحتك بالعالم الخارجي ومجتمع الرجال إلا قليلا، وقد خيل لي أنها ستكون صغيرة وخجولة وذات صوت هادئ سيجتهد الجميع لسماعه، لكنها لم تكن من هذا القبيل على الإطلاق، ورحب والديّ "عمر" بي بشدة، كما دعوني "ابنتهم" بمجرد أن عرفوا من أكون، ومشيت في طريقي الذي عزمت عليه مدركة لما عليَّ القيام به وما يجب عليَّ القيام به من أجل "عبد الله"، ولكن

أن يدعوني "ابنتنا" لمجرد أنني زوجة "عمر"، ورؤيتي "عبد الله" يؤخذ مني ويحتفل به كحفيد محبوب من عائلته جعلني أدرك مرة أخرى قسوة وضعي، ومنذ لحظة وصولي كان من الصعب أن أسيطر على نفسي، فأنا هنا للتخلي عن طفلي لهؤلاء الناس الذين يعاملونني بهذا القدر من اللطف، وقد لا يستغرب شيء منهم؛ فأنا امرأة لم يلتقوا بها قط، وليس لديهم اتصال بها، وليست مسلمة، وليست مصرية، وتأتي إلى بابهم مع طفل ابنهم، ولكنهم عاملوني كما لو أن كل شيء طبيعي تماما، كما لو أنهم عرفوا من قبل أن "عمر" اتخذ زوجة ثانية، وأنهم يتوقعون أنها كبيرة بالسن وغريبة وانعزاليه مثلي، وسألت والدة "عمر" فقالت:

-متى ستغادرين مصر؟

فقلت في حيرة:

-آوه!

فقالت:

-قال "عمر" في الرسالة أنك يجب أن تعودي إلى انجلترا.

فقلت:

- نعم، ولكن...

وترددت قليلا ثم قلت:

- لم أعد بحاجة للذهاب.

فسأل والد "عمر":

-هل تقيمين في القاهرة؟

فقلت:

- نعم، ولدي وظيفة جديدة.

فعلق قائلا وهو يبتسم:

-هذا أمر جيد.

ثم قاطعنا الخادم وقدم لنا الشاي

كان منزل والد "عمر" هادئا وقديما ومنظما جيدا، وكانت الغرفة التي رأيتها تبدو مريحة ونظيفة جدا، وتحتوي على آرائك منخفضة، ووسائد كبيرة، وجدران مبطنة، وسجاجيد منسوجة جيدا على الأرضيات، ومرايا، وشموع، وبخور، وزهور، وتم دهان الجدران القديمة البالية باللون البرتقالي الدافئ والأصفر، وأغلقت النوافذ ضد الشمس، أما الساحة المركزية باردة ودهنت باللون الأزرق و مبلطة جيدا وبها نافورة صغيرة، واستغرق الأمر بعض الوقت لتظهر "مبروكة"، ومتعة مشاهدة والديّ "عمر" الذين ظلا يصران على أن أدعوهما أمي وأبي. ولعب والد عمر مع "عبد الله" وكاد ينسيني "مبروكة"، ودخلت الغرفة بهدوء ونهضت أم "عمر" لتقدمنا، فقالت "مبروكة" وهي تحمل صغيرتها "ياسمينة" على ذراعها:

-أهلا وسهلا.

لم أتمكن من النظر بعيدا عن الطفلة فهي تشبه ابني "عبد الله" جدا و"عمر" والدهم، وجاءت الطفلة بمثابة صدمة لي، وفي الواقع كان جميع أفراد الأسرة صدمة بالنسبة لي، وتصارعت الأفكار إلى رأسي حول ظروفي منذ ولادة "عبد الله"، ولكن ها هم هنا وها نحن هنا أعطيهم "عبد الله" كما قررت سيدتي "داف جوردن".

لم تتحدث "مبروكة" بعد تحيتي وفي ذلك كانت مطابقة لتوقعاتي، ولكن النظرة التي رمقتني بها كانت مليئة بلوم شديد، وأدهشني هذا على الرغم من أنني ليس لدي فكرة عن ما قد تعنيه هذه النظرة، وكيف تنظر إليَّ، هل على أنني منافستها؛ فالزوجة الثانية يقل وجودها في مصر الآن، على الرغم من أن القانون لا يزال يسمح بوجود زوجة ثانية، ولكنني حتى الآن لم ألتزم بالأعراف الاجتماعية للزواج، ولا أستطيع أن أسهب في

الحديث عن هذه الأفكار؛ لذلك بدأت في الحديث عن "عبد الله" مثلا الأمور التي يقوم بها باستمرار واحتياجاته ونوع الحيل التي تبقيه سعيدا، ومع هذا بدأت شدتي بالانهيار كلما شعرت باقتراب وقت تسليم طفلي، وأصبحت غير قادرة على تذكر المجاملات المصرية، فوقفت وقلت بصورة مباشرة:
-يجب أن أرحل!
ونظرت أسرة "عمر" إلى وجهي مباشرة، ومرة أخرى لم يكن لديَّ أي فكرة عما يفكرون به، وقالت والدة "عمر":
-على الأقل لتبقِ معنا قليلا، ويجب أن تتناولي الطعام.
فقمت بهز رأسي، وكنت أدرك أن هذا تصرف غير مهذب، ولكن قبل أن أتمكن من منعهم بدأت الدموع تتساقط من عيني وقلت:
-هل يمكنني أن آتي لزيارته من وقت لآخر؟
فقال والد "عمر" وهو يشعر بالحيرة والفزع كما شعرت بهما:
-نعم، بالطبع فأنتِ ابنتنا الآن وهذا منزلك.
ونظرت إليه، ونظرت مرة أخرى إلى "عبد الله" المفتون بلحية جده الذي جعله يلعب بها، وكم أتشوق للبقاء في ذلك المنزل، وأن أقيم مع عائلة "عمر" كزوجة مصرية طيبة وإيجاد طريقة لجعل وضعنا الغريب يفيدنا، ولكني بالفعل عصيت السيدة "داف جوردون"، وضللت زوجي بعدم مغادرتي لانجلترا، وكنت أعرف تداعيات الأمر على "عمر" إذا اكتشفت سيدتي الحقيقة؛ لذلك أعطيت "عبد الله" قبلة أخرى وسلمته ل "مبروكة" زوجة زوجي الأخرى وسرت مبتعدة، وعدت للعمل لدى "روبرتو ماجني" ذلك اليوم، وكان فرحا عندما وافقت على القيام بساعات عمل إضافية عندما طلب مني ذلك.

لم يكن هناك أي مؤشر على وجود الرجل من الليلة السابقة، وعندما عدت إلى البنسيون ذلك المساء كانت "أم محمود" قد غادرت العمل بالفعل، حيث كانت مستاءة جدا منذ صباح ذلك اليوم عندما أخبرتها أن "عبد الله" سيغادر، والأموال قليلة جدا لمواصلة العيش في أحد الفنادق الرخيصة، بينما أعمل في آخر، ودخلت إلى غرفتي واستلقيت على سريري وجسدي يتألم ليس من الكدمات التي أصبت بها، ولكن من فقدان طفلي، وهمست قائلة:

-إنه في أمان، فهو آمن، وفي رعاية عائلته التي ستظهر له الحب، إنه آمن.

ولكن لم يطمئني هذا الكلام ولم يهدأ شيء من حزني، وفي بعض الأحيان كنت أذهب وأقف خارج منزل والد "عمر" عندما كنت أهرب من أنظار "روبرتو ماجني"، كنت أقف بالزاوية على يقين من أنه لن يراني أحد داخل ذلك البيت، وكنت أقف لأستمع وأشاهد وانتظر، إلى أي شيء أستمع؟ وماذا أشاهد وأنتظر؟، فلم يكن لدي أية فكرة، حيث أنتظر أي خبر عن طفلي.

وفي إحدى المرات رأيت الخادمة تظهر ومعها حقيبة فارغة في طريقها إلى السوق، وفي مرة أخرى رأيت والد "عمر" يخرج، وجمدت من الذعر حيث لم أرده ينظر إليَّ، ولكنني تمنيت أن يراني، لكنه ذهب في الاتجاه الآخر، ولاحظت أنه يسير وهو محني كما لو أن ظهره يتعبه ويؤلمه، في حد ذاته، جعلني أبكي طوال الليل والنهار، وجرت الدموع من عيني كما تسرب اللبن من ثديي؛ لبن "عبد الله"، وكنت مكتئبة بسبب الحزن والشفقة على نفسي، أعرف أن هذا أفضل ما يمكن القيام به؛ فأنا بحاجة للعمل و"عبد الله" بحاجة لأسرة، لم يكن من الصعب عليَّ

كراهية السيدة "داف جوردون"، ولم يصعب إلقاء اللوم عليها لما حدث لي، لقد كرهتها وأصبحت كراهيتي شديدة وظاهرة وقاسية، والحق يقال في بعض الأحيان اعتدت على تذكرها والسؤال عن مكانها وما إذا غادرت الأقصر وسافرت إلى القاهرة ومنها إلى أوروبا كما كان مقررا، وكيف كانت صحتها؛ فالسفر دائما يضعفها ويجعلها عرضة للعدوى والمرض، وهل "عمر" يراعيها بصورة صحيحة؟... أين هو؟

وفي وقت متأخر من الليل أعاني من حبي له، كما لو كنت أعاني من جرح، وكنت أعاني حيث شعوري نحوه لم يتغير ومازال يؤلمني أكثر من أي وقت مضى، ولا توجد علامة على شفائي منه، وكنت أريح نفسي بسلسلة من السيناريوهات المحتملة نحو وجود "عمر" و"عبد الله" وأنا في غرفتنا الخاصة بمنزل أسرة "أبو حلاوة" بالقاهرة، وأمتلك أنا و"عمر" و"عبد الله" مائة فدان من الأراضي في دلتا النيل الخصب، و"عمر" و"عبد الله" وأنا على متن قارب كبير عائم بلطف، وتظهر هذه المشاهد وتختفي في بضع لحظات، على غبار أرضية غرفتي في فندق "روبرتو ماجيني"، وهذه محاولة لاستحضارهما وبقاؤهما في مخيلتي، ولم تظهر السيدة "داف جوردن" في هذه المشاهد، وبدلا من ذلك كانت تطاردني أحلامي ليلة بعد ليلة، ودائما نفس الحلم؛ حيث أجلس انا وسيدتي في البيت الفرنسي معا والشمس الدافئة المتدفقة في الربيع من خلال النوافذ، وأنا مستلقية نصف نائمة على وسائد الأرضية وسيدتي تضحك وتتحدث على ما يقال، بينما تمشط شعري و"عمر" يبتسم، ويصب لنا الشاي بالنعناع والبومة تقف على عتبة النافذة، ثم استيقظت وأنا أتحسر على فقدان الكسل وسهولة العيش وحزينة على فقداني تلك الحياة التي أصبحت في حد ذاتها

حلما بعيد المنال، ولكن الأهم من ذلك كله حزني على فقدان طفلي الذي لا يسعني سواء الاعتقاد أنه النتيجة الطبيعية لهذا المشهد.

انتظرت أربعة أسابيع قبل أن أعود إلى منزل والد "عمر" لزيارة طفلي، وكانت أربعة أسابيع طويلة وفظيعة؛ حيث قاومت رغبة أقوى من أي وقت مضى، وقد شعرت أنها أقوى من تلك التي جذبتني نحو "عمر" في المقام الأول، لم أزر "عبد الله" على الإطلاق خلال تلك الفترة؛ حيث أردته يستقر في بيته الجديد، وأردت أن أعطي "مبروكة" ووالديّ "عمر" فترة للتعرف عليه بطريقتهم الخاصة، وأردت أن يزول ارتباطي الجسدي به، ورغبتي في تغذيته وأردت أن يصبح محبوبا وسعيدا، وبعد مرور أربعة أسابيع سمحت لنفسي بالسير في الشوارع حتى وصلت لبيت والد "عمر"، وذهابي كان أول شيء في الصباح، حيث رغبت أن أبدو مشرقة ومتحكمة في وضعي، ولم أعمل طويلا لدي "روبرتو ماجني"، ومازال الفندق يتحكم بساعات استيقاظي، ولكن كنت آمل أن أرى "عبد الله" لبضع لحظات، وقمت بسحب حبل الجرس وفتحت الخادمة الباب وتعرفت عليَّ فورا، وهذه المرة كانت أم "عمر" هي من استقبلتني، وأخذت يدي بيديها وابتسمت ورحبت بي، وقلت:

-رجاء، قد تعتقديني وقحة، ولكن هل أستطيع رؤية "عبد الله"؟ من فضلك!

فقالت:

-نعم، بالطبع لابد أنك افتقديه بشدة، كنا في انتظار عودتك .

فقلت:

-أردت أن أعطيه ما يكفي من الوقت.

فقاطعتني قائلة:

-فعلت الشيء الصحيح.
وقادتني مباشرة إلى تربيعة "مبروكة" الخاصة، وطرقت برفق على الباب المفتوح، فقالت "مبروكة":
-أدخلي.
وسرنا إلى غرفة، ووضع طعام الإفطار على طاولة منخفضة، وجلست "مبروكة" زوجة "عمر" و"ياسمينة" على جانب واحد وطفلي على الجهة الأخرى وهو يجلس بنفسه وتسنده وسادتين ويداه متسختان بفاكهة مهروسة، لم أصدق عيني، وأدار وجهه لجدته مع ابتسامة عريضة، ثم تطلع في وجهي، ولم أستطع التحرك، ولم أعرف ما يجب أن أقوم به، وقالت "مبروكة":
-السلام عليكم.
فأجبت:
-الحمد لله.
وقالت الأم:
-رجاء، تعالي وأجلسي مع طفلك، ودعيني أصب لك بعض القهوة.
وكان صوتها منخفضا، ولكنه ذو نبرة رسمية، وقالت:
-هل ستنضمين لنا؟
جلست معهم وشربت القهوة، وبعد بضع دقائق، أخذت "عبد الله" على ركبتي، والتفت ونظر إليَّ وابتسم، وظل يلعب بخدي، وشعرت بهذه النعمة التي بالكاد شعرت بها من قبل، بل كما لو كنت هدفا في المرمى واليوم تم تحريري، وسألتني أم "عمر":
-أين تعيشن؟ فأنت لم تخبرينا آخر مرة أتيت فيها، وليس لدينا أي وسيلة لنرسل لك الأخبار.
فأخبرتهم أين أعمل وأعيش، فقالت والدة "عمر":
-سأعطي "عمر" عنوانك عندما نراه.

قلت:

-هل "عمر" في القاهرة؟

وكنت متأكدة أن وجهي أظهر صدمتي، وتبادلت أم "عمر" و"مبروكة" النظرات، وأجابت أم "عمر" قائلة:

-نعم إنه في بولاق، وبعث رسالة، لكنه لم يأتِ لرؤيتنا بعد؛ فالسيدة "داف جوردون" مريضة جدا، والطبيب يزورها مرتين في اليوم.

وزاد الأمل لديَّ مرة أخرى؛ ف "عمر" في القاهرة ! "عمر" في القاهرة ! ولكني أجبرت نفسي على تقليل أملها مرة أخرى، ولم أستطع التفكير في "عمر"، وما قد يعنيه وجوده بالنسبة لي، حيث تمركز تفكيري حول "عبد الله" واللحظات القليلة التي أقضيها مع طفلي، وقلت:

-أخبريني عنه.

ونظرت إلى طفلي وقلت:

-كيف ينام؟

وقالت "مبروكة" :

-إنه على ما يرام؛ فهو أكثر الأطفال بهجة وسعادة.

ومنحتني ابتسامة دافئة وتسارع الوقت، وقبل أن ينتهي الوقت قالت "مبروكة":

-يجب أن تأتي لرؤيته كما تشائين.

فقلت:

-إذا سمحتم بذلك.

فقالت والدة "عمر":

-بالطبع، يجب أن تأتي كل يوم؛ فأنتِ مُرحب بك في أي وقت.

ولم يكن لديَّ أي فكرة عما إذا كان مجرد عرض مهذب، ولكني نويت أن أقبل عرضهم، فأنا أود رؤية "عبد الله" ولو لبضع دقائق فقط كل يوم، وبعد أسبوع كنت على يدي وركبتي أنظف

سلالم فندق"روبرتو ماجيني"، عندما سمعت صوت "عمر" يقول: "سالي"!، سمعته يقول اسمي مرة أخرى 'سالي'، فالتفتُ للخلف وأنا في بركة المياه، ونظرت إلى أعلى، و لم أكن أهلوس فهذا زوجي يقف أمامي، وسأل "عمر" قائلا بصوت قاسٍ وغاضب:

-أنت تعملين هنا؟

فأجبته قائلة:

- "عمر"!

ونهض.

وقلت:

- "عمر"!

وتساقطت الماء من تنورتي، وقلت:

-لقد وصلت، لا أصدق ذلك!

وأردت أن ينظر إلي وجهي ويقول أن كل شيء قد تغير منذ أن غادرت الأقصر، وتساءلت:

-هل لا يزال يحبني؟

فقال "عمر" بصوت خشن:

-لماذا بقيتِ في القاهرة؟... سيدتي أعطتك المال للمغادرة.

فوقفت في مواجهة ضوء السلم الخافت، ونظفت ثوبي من الأسفل، وأمكنني رؤية أنه صدم بمظهري؛ فقد جعلتني الأسابيع الماضية أكبر سنا، وبدا وجهي متعبا، ويظهر عليه الإرهاق، وأصبحت نحيفة ورفيعة مثل حزام جلدي يغطي العظام، وقلت ما أعتقدت حينها أنه مبرر مناسب:

-ذهبت لرؤية "هيكيكان" بك على أمل أنه سيساعدني في العثور على وظيفة ملائمة، هل سمعت أنه عاد إلى مصر؟

هز "عمر" رأسه وقال:

-يجب أن تعرفي أن "هيكيكان" بك لن يستخدم نفوذه

لمساعدتك.

فعبست وفهمت قول "عمر" وأغلقت عيني وقلت:

-لم أستطع المغادرة على الرغم من أنني وحدي، ولكن كيف يمكن أن أترك طفلنا؟ أليس من السيئ بما فيه الكفأية عدم تمكني من رعايته بنفسي، وكيف تعتقد أنني سأتركه؟ وأنا لا أريد أن أعمل في مكان مثل هذا، ولكن كيف يمكنني البقاء حية؟ لا بد أن أبقى مع طفلنا.

فقال "عمر" والأسف الذي يشعر به يتسارع إلي وجهه:

-سالي، خذي هذا.

وقدم لي نقوده، وكان كل ما يحمله مبلغا صغيرا، وقبل أن يتمكن أيّ منا أن يقول كلمة أخرى، أخذني بين ذراعيه وجذبني إليه، وتذكرنا الليالي الطويلة التي قضيناها معا في الأقصر والقاهرة، فضمني إليه أكثر وأكثر وأردت أن أعيش وأنام وأحلم بين ذراعيه، وشعرت بنفسي يتسارع برقة وأصبح أكثر دفئا ووقارا على الرغم من وقوفنا معا في هذا البهو وأرجلنا في بركة من المياه القذرة، وكان "روبرتو ماجيني" في الزاوية ورآني -موظفته غير الودودة الرقيقة- مُحاصرة في أحضان شهوانية، وسعل بصوت عال؛ فابتعدت أنا و"عمر" ورأى المال الذي كنت أمسكه بإحدى يدي، وقال بلكنته الانجليزية الضعيفة:

-من هذا؟

وعندما لم أجب، تابع قائلا:

-هناك غرفة في الطابق العلوي تحتاج للتنظيف.

ثم تحدث مع "عمر" بلغة عربية ضعيفة قائلا:

-تريد غرفة أليس كذلك؟

وغضب "عمر" من تلميح الرجل؛ فاستدار وغادر سريعا، ثم ألتفت خلفه وقال لي سأعود، وفي تلك الليلة أبلغني "روبرتو ماجيني" عندما أنهيت واجباتي أنه سيخفض أجري لأنني

أستخدمت الفندق لكسب أموال إضافية، وقال:

-رأيتك وزميلك المصري.

وأشار إلى الأمر بإصبع قذر وحشره أنفه القذرة به، وقال:

-أنا مندهش لرؤيتك ترافقين العرب، وأعتقد أنك سترافقين الأجانب.

فلم أ جب، حيث يمكنه أن يفكر كما يشاء؛ فطفلي بأمان، ورأيت زوجي وأعرف الآن أنه لا يزال يحبني.

الفصل الثامن عشر

هكذا استمرت حياتي، ففي الصباح الباكر كل يوم أذهب إلى بيت والد "عمر" لقضاء بضع دقائق مع طفلي، وأصبح مجيئي متوقع، ولم يعد مفاجئة، وتفتح الباب الخادمة أم "ياسين" التي كانت مع العائلة لسنوات عديدة، فأسير خلال الفناء الداخلي، وأمر على كرمة نبات الياسمين القديمة الجميلة المهندمة التي اهتمت بها أم "عمر"، ثم إلى غرفة "مبروكة"، حيث خصص مكان لي على مائدة الإفطار مع كوب من القهوة القوية المحلاة والمخبوزات الطازجة من غرفة الفرن، وأصبحت جزء من روتين حياتهم، ولم يكن هناك روتين أغلي بالنسبة لي في أي وقت مضى، وكان "عبد الله" يجلس على حجري سعيدا وعلماه أن يقول 'ماما' باللغة الانجليزية لدى دخولي الغرفة، حيث ينظر للأعلى ويقول: "ماما"، واعتقدت أنني سأموت ضحكا، وأخبرتني أم "عمر" بحال "عمر" ابنها، وقالت أن صحة السيدة "داف جوردون" تتحسن، فقلت:

-هذا جيد.
وقالت:
-قال "عمر" أنها ستكون على استعداد للسفر إلى أوروبا قريبا.
وأوقفتها بقولي:
-ستسعد سيدتي بلم شمل أسرتها.
وأكملت قائلة:
-يزورنا "عمر" بعد الظهر كثيرا في الوقت الحالي.
ونظرت إلى "مبروكة"، ونظرت إلي وجهي بنظرة ثابتة، وقلت:
-يجب أنه يسر برؤية "عبد الله" و"ياسمين" كل يوم.
ولم أستطع فهمها، ولا يمكن أن أبدأ في تخمين ما كانت تفكر فيه، وقالت:
-حدثينا عن المكان الذي تعملين به أنه فندق.
فقلت:
- بنسيون!
وقالت:
-هل هو كبير جدا؟
فقلت:
-لا، إنه صغير نوعا ما، ويحتوي فقط عدد قليل من الغرف.
ولم أكن متأكدة بماذا يجب أن أجيب، ولم أعرف لماذا كانت تسألني عن "روبرتو ماجيني"، فقلت:
-إنها وظيفة محترمة، وأنا بحاجة للعمل.
والتفت إلى أم "عمر" بقلق وقلت:
-هل أخطأت بالوضع كل هذا الوقت؟ يمكنني المساهمة في مصاريف "عبد الله"، إذا كنتم تحتاجون ذلك، وأنا آسفة لأنني لم أتحدث عن هذا من قبل، فلم أفكر في هذا الآمر.
وبدا أن أم "عمر" صدمت، كما لو التفت وضربت وجهها،

وقالت:
-يا ابنتي، ليس هذا ما تقوله "مبروكة"!
فقلت:
-آسفة!
وكنت محرجة أكثر من أي وقت مضى، وقلت:
-ماذا تسأليني؟
ونظرت إليَّ "مبروكة" مرة أخرى مع هذا التعبير الذي لا أستطيع قراءته، وبدأت تضحك، وقالت:
-سالي، إنني فضوليه فقط!... وأنت تعملين في أحد فنادق القاهرة، وأريد أن أعرف كيف يبدو هذا؟
وضحكت أم "عمر"، وهكذا فعلت، وشعرت بالراحة، وقالت "مبروكة":
-من فضلك أخبريني عما تفعلينه؟
وهكذا أخبرتها عن عملي، ومن ردها أدركت أنه على الرغم من أنه بالنسبة لي عمل متواضع ويدل على الكدح ولكن بالنسبة ل "مبروكة" فأنا أتحدث عن حياة من قرن آخر.

ومنذ ذلك، الحين وفي زيارة كل صباح سمحت لنفسي بالحديث عن ذلك بصورة أكثر بقليل، وحرصت على قول حكاية أو اثنتين عن أحد النزلاء الذين لم يتمكنوا من سداد الفاتورة، وكيف جعله "روبرت ماجيني" يتخلي عن خاتم زفافه أو قصة عن وجود حيرة بسبب الأحذية المتروكة بصورة خاطئة عند الغرف، وكانت "مبروكة" تكافئ حديثي بذكر الشائعات وأحاديث النميمة الخاصة بالجيران التي جعلتهم مستيقظين طوال الليل، والتي تنطوي على فضيحة ابنة جيرانهم، وخطط الأسرة لقضاء العطلة القادمة والعيد، ودائما تكون قصصا رائعة لا نهاية لها حول "عبد الله"، وكل حركة جديدة، وكل

تنهيدة، ولم تتصادف زياراتي أبدا مع وجود "عمر"، وعندما يتمكن من الابتعاد عن المنزل كان يأتي خلال فترة ما بعد الظهر، بينما تستريح سيدتي، وفي القاهرة لا يوجد أحد في الأوقات الحارة من اليوم، كما لم أعرف الكثير عن أنباء السفر المرتقب خلاف الأخبار التي يقولها لهم، وكانت ابنة سيدتي السيدة "روس" تقوم بزيارتها، لكنها غادرت لأوروبا بدون سيدتي، وقالت "مبروكة":

-غادرت لأوروبا بدون السيدة! أي نوع من الأبناء هي؟!

وقالت والدة "عمر":

-حسنا، هذا صحيح، والدتها ليست على ما يرام، ولا يمكنها تأخير سفرها لبضعة أسابيع؟

وانتظرا أن أجيب، فقلت:

-هذه هي السيده "جانيت"، لا تغير أبدا رأيها ولا مخططاتها.

وبدت عليهم الحيرة، ولم أبدأ في تفسير ذلك، وقالت "مبروكة" في يوم آخر:

-أخبريني عن المكان الذي تعيشين فيه.

فقلت:

-أعيش في فندق "روبرتو ماجني"، فلدي غرفة صغيرة، وهناك سرير على النمط الأوروبي ورف لأغراضي. ولم أقل أنها مثل زنزانة سجن بلا نافذة، خانقة في الليل عند غلق الباب

وسئلت:

-هل تحبين الذين يعيشون هناك؟

فقلت:

-ليس لديَّ خيار آخر.

فقالت:

-هل ستظلين هناك، دائما؟

لم أعلم ما يجب قوله، وحملت أم "عمر" "عبد الله"، الذي كان

يزحف نحوها عبر الوسائد، وقالت:
-انظروا له! انظروا هذا الصبي اللطيف بدأ يكبر.
وانصرفنا عن أسئلة "مبروكة"، وعندما غادرت منزل عائلة "عمر"، وفي ذلك اليوم أخذت أفكر هل فاتني شيء مما كانت تقصده "مبروكة" ووالدة "عمر"؟ هل كانا ينتظران مني أن أسأل إذا كان بإمكاني الحياة في منزلهم؟ أم يعتقدان أن إصراري على العيش في مكان عملي كان عادة أخرى من عادات الفرنجة غير المحبوبة؟ هل هم مهذبون حتى لا يسألوا إذا ما كنت أفضل هذا ؟ وكيف يمكنني أن أكتشف الحقيقة؟ وودت رؤية "عمر" أولا وأن يوضح كل شيء، وبالطبع سأواصل العمل لدى "ماجني" وأساهم في دخل الأسرة، وربما يستطيع والد "عمر" أن يخفف العبء من على عاتقه، ولن أحتاج لغرفة خاصة؛ حيث يمكنني النوم مع "عبد الله"، فهذا سيفرحني مرة أخرى وسنحتاج لمساحة صغيرة، ويمكنني أن أكون خادمة الأسرة، فهذا سيناسبني أيضا على الرغم من أنني لا أريد أن تطرد خادمة الأسرة الكبيرة، ولن يكون هذا صوابا، ولكن يمكنني تسهيل الحياة كثيرا بالنسبة لها ومساعدتها في غرفة الفرن والمخزن، ووضعت حدا لهذه الأفكار قبل أن تحملني بعيدا، فأنا في حاجة إلى التحدث إلى "عمر" عن أمري، ولكن كيف؟ لم يكن هناك أي تقدم في محاولة لتوفيق زيارتي ل"عبد الله" معه، ولا يمكنني ترك الفندق في فترة ما بعد الظهر، وإلى جانب ذلك، أردت أن أراه وحده والذهاب إلى بولاق به مخاطر كبيرة جدا.

لم أرد أن تكتشف السيدة "داف جوردون" أنني لا أزال في مصر، فسريعا ما ستعلم ذلك بلا شك، ولكنني متأكدة أن "عمر" لم يخبرها بأنني لم أتبع أمرها أن أعود إلى انجلترا، وكان لديَّ القليل من الوقت؛ سيغادر "عمر" سريعا لأوروبا مع

السيدة، وأنا لا يمكن أن أسمح لنفسي بالتحرك من دون إذنه، وفي الليل جال كل هذا في خاطري، ولكن في صباح أحد الأيام ونحن نتناول الإفطار شعرت تغير أمر، وكان الجو لا يزال ساخنا ولم يقلل الليل كثيرا من حرارة اليوم السابق، وشعرت بحدوث شيء منذ زيارتي الأخيرة، وبدت "مبروكة" عبوسة الوجه، وبدأ "عبد الله" يأكل حيث تخبز له أم "عمر"، وحملته بعيدا قائلة أنها ستجلب مشروبا باردا، فشعرت بالبرودة على الرغم من الحرارة، وتساءلت:

-هل فعلت شيئا خاطأ؟ هل سيحرمونني من زياراتي؟

قالت "مبروكة" :

-قلت له أنك تحبين طفلك ويمكن لأي أحمق رؤية هذا.

لم أعرف ماذا أقول فأكملت قائلة:

-قلت له أن الحياة التي تحييها قاسية جدا على أي امرأة مصرية أو فرنجية، وقال أنه لا مجال للحديث عن مثل هذه الأمور، ولكنني قلت له إنني أشعر بالخجل أن زوجته وهي ابنة هذه العائلة، تعيش بهذه الطريقة، فأحنيت رأسي وحدقت في يدي وكنت أشعر بالعار، فسألت قائلة:

-وهل تعرفين ماذا قال؟

فنظرت إلى "مبروكة" وشعرت أنه لا يوجد أمل، وشعرت أن رأسي قد اشتعل فيها لهيب، وقالت وهي تحاكي صوت "عمر" بمهارة:

-"سالي"، لن تأتي للعيش هنا، في بيت والدي فهي لن تفعل أي شيء من هذا القبيل. وعندما سألت "عمر" لماذا ؟ قال إن هذا قراره، ثم قال لي أن أكف عن الحديث عنك، وأتوقف عن طرح الأسئلة، فمصيرك ليس من شأني وأخبرني أن أصمت. وجلست لحظة ثم وضعت "مبروكة" يدها في يدي وقالت وهي تهمس:

-آسفة.
فأغلقت عيني وجلست في ذلك البيت الهادئ، وسط العائلة التي لن تكون يوما عائلتي، ثم نهضت وعدت إلى المدينة وسرت مباشرة إلى بولاق، وعبرت القاهرة بسرعة كما لو كانت رحلة أقوم بها كل يوم، وفي الميناء استفسرت عن مكان وجود قارب السيدة "داف جوردون"، وعندما وجدتها صعدت على متنها دون أن يراني أحد، وتوجهت مباشرة إلى المطبخ، وكان "عمر" هناك، كما توقعت حيث يعد غداء سيدتي، وقلت:
-رأيتك في الفندق.
فأجاب:
-أعلم، ولكن... جعلني أدرك مدى اشتياقي إليك... إنني اشتقت إليك يا "سالي"، ولكن إذا اكتشفت سيدتي أنك هنا...
فرفعت يدي لإسكاته، وأبقينا صوتنا منخفضا جدا؛ لإدراكنا مدى قرب سيدتي، وسحبني "عمر" تجاهه وبدأ يقبلني واختفت أشهر البعاد وانتقلنا من المطبخ إلى حجرة "عمر"، وأغلقنا الباب، وأصبحنا معا بشكل أسرع من ذي قبل، وسمحت لزوجي أن يقبلني، ويجردني من ملابسي، ثم أصبحنا معا، ولم يسعني سوى الضحك والابتسام، وكان "عمر" أكثر جدية ويشعر بالقلق، ثم تساءل قائلا:
-لماذا جئت إلى هنا؟
فقلت وأنا مازلت أبتسم:
-جئت لأطلب شيئا.
فما لبث أن ابتعد قليلا، ووجدت فجوة بين أجسامنا، حيث كنا متلاصقان بفعل العاطفة، فقال:
- نعم ؟
فقلت :
-اسمح لي أن أعيش مع والديك و"مبروكة" فهم يريدون ذلك

أيضا و"مبروكة" تريدني هناك، وأنا لم أعد قادرة على تذكر لماذا لا أعيش هناك مع "عبد الله"، وأحتاج إلى إذن منك للعيش معهم

فقال سريعا:

-سوف أجد فرصة عمل جديدة لك، وسأساعدك في العثور على وظيفة جديدة.

فقلت:

-أنا في حاجة للعثور على مكان لائق أستطيع العيش به، وأريد أن أكون بالقرب من طفلنا يا "عمر"، أنا بحاجة لأن أرى طفلي لأكثر من بضع دقائق كل يوم من فضلك.

وشعرت بالإنهاك عندما طلبت منه ذلك، فقد استعددت لهذه اللحظة منذ فترة طويلة، والتفت "عمر" مرة أخرى ونظف حنجرته وقال:

-لا، لا يمكنك أن تفعلي هذا، ولن أسمح بذلك.

فجلست، وارتفع صوتي ونسيت نفسي، وقلت:

-لا!... هل تحرمني وأنا زوجتك من الأمن في أسرة والدك؟

فنظف "عمر" حنجرته، وجلس وارتدى قميصه مرة أخرى، وقال:

-إنه أمر غير ممكن، فلا يمكنك العيش في منزل والدي، وهذا مستحيل.

فنظرت له وقلت:

-هذا قرار نهائي؟

ولكنه تجنب نظراتي، والتفت بعيدا، وظهرت فجأة الحقيقة جلية لي، فوضعت يدي على ظهره وقلت:

-إنه ليس قرارك أليس كذلك؟

ونظرت إلي الباب وما ورائه إلى حيث موضع نوم سيدتي، وقلت:

-إنها لن تسمح بذلك، هل ستسمح بذلك؟ وأنت لا تستطيع تحديها.

ولم يجيب "عمر"، وكانت يداه تلكمان بعضهما بشدة ورأيت أظافره تدخل في جلده، ونهضت وارتديت ثيابي كما لو كنت سأغادر، ويمكنني القول أنه شعر بالارتياح، وقال:

-ساجد وظيفة لك، ووضعا أفضل، أعدك بهذا ...

ولكنني رمقته بنظرة شرسة، فتوقف عن الكلام، وأمكنني قراءة أفكاره:

-ستذهب الآن، وهي غاضبة، ولكنني سأجد لها وظيفة جيدة، وأجد لها مكانا أفضل للعيش فيه، وسأكون قادرا على مساعدتها، ويمكن أن ترى "عبد الله" في منزل والدي كلما أرادت، ويمكننا أن نرى بعضنا البعض كما رأينا بعضنا البعض اليوم.

وخرجت من مقصورة "عمر" ثم مررت عبر المطبخ وغرفة الجلوس، وفتحت باب مقصورة السيدة "داف جوردون" ودخلت إليها، وكانت مستلقية على الأريكة، وتشعر بالنعاس والراحة، وفي وقت سابق كانت تشرب الشاي وتدخن النرجيلا، ورأيت أدواتها المألوفة تنتشر على المنضدة الخاصة بها، ونظرت لأعلى ورأتني أقف أمامها، وللحظة رجعنا للخلف عبر الزمن؛ حيث ما زلت مرافقتها الوفية، ولكن تلك اللحظة لم تدم، وقلت:

-أتيت أطلب منك مالا.

فقالت:

-ماذا؟

ودفعت نفسها على الوسائد وجلست، وسندت على المنضدة الصغيرة القريبة من الأريكة، فقلت:

-نعم أعطيت "عبد الله" لزوجة عمر الأخرى "مبروكة" كما

طلبت، وأعمل في القاهرة.
فقالت:
-أعطيتك المال لتعودي إلى انجلترا.
فقلت:
-كان ذلك المال مفيدا عندما وصلت إلى القاهرة ، وأثناء محاولتي لأجد مكانا لي في المدينة؛ حيث حاولت أن أبقي "عبد الله" معي، ولكن كنت على حق، فهو أفضل حالا في منزل والد "عمر"، ففعلت ما طلبتيه، ولكني لن أترك القاهرة.
فهمهمت وقالت:
-نعم!... لن تفعلي، وأنا من سيضمن مغادرتك المرة المقبلة.
واستجمعت نفسي وقلت:
-سيدة "داف جوردون" كنت خادمتك لسنوات عديدة، وخلال ذلك الوقت كنت كل يوم وليلة بجانبك، وعملت عندك في "إيشر" عندما قمتِ بإدارة منزل كبير، وساعدتك مع السيدة "رينة"، وقمت برعايتك في مرضك الذي تطور ليصبح أكثر خطورة، وبمجرد مغادرتنا انجلترا، كنت الطبيب المعالج وكذلك الخادمة الخاصة بك، وعشت معك في الأقصر على بعد مئات الأميال أعلى النيل، ففي أغلب الأحيان لا يوجد أوروبيون غيرنا، وحياتي في منزلك أكثر من مكافأة، ولم أحتج أبدا شيئا. ولابد أن "عمر" الذي اعتقد أنني غادرت قد سمع أصواتنا، فدخل الغرفة ورائي، ولكن في البداية لم ألحظ وجوده، وأكملت قائلة:
-عندما غادرت الأقصر لم يكن لدي شيء، حيث مضت كل تلك السنوات دون مدخرات، وأخرجتيني دون أي اعتبار لسلامتي، وما أطلبه الآن ما هو إلا مستحقاتي.
كان هناك صمت، وشعرت بثقل الهواء، و كان الجو حارا، وربما أكثر أيام الصيف سخونة، وكنت أخاطب سيدتي باللغة

الانجليزية، وردت باللغة العربية ليفهم "عمر" كل كلمة قائلة:
-أنزلي من على قاربي، وإذا لم تغادري الآن سيقبض عليك.
وخاطبت مرافقها قائلة:
-عمر؟!
والتفت بسرعة، فأدركت أن "عمر" واقفا هناك، فقلت بصوت منخفض:
-آسفة.
فنظر إليَّ بغضب وقال:
-نعم سيدتي!
فقالت:
-هل جلبتها هنا لهذا؟
فتحدثنا معا وقلنا:
-لا!
فقالت:
-ظننت أني تخلصت منك، غادري مركبي ولن تأخذي مني مليما واحدا!
وحافظت على لهجتها كما لو كانت معتادة على إبعاد المقربين لها كل يوم، وعند ذلك التفت بتصنع ومضيت ومررت بزوجي وقلت:
-ستغفر لك هذا، فهي دائما ما تغفر لك.
وتركت القارب.

وفي تلك اللحظة وقف "عمر" علي باب غرفة سيدتي غير قادر على التحرك؛ فهو يعرف ماذا سيحدث بعد هذا، وأستطيع أن أراه في ذهني؛ فأنا أعرفه جيدا، وكان طلبي للمال مهينا له، حيث إن معناه أنه لا يستطيع إعالة زوجته؛ ومع ذلك فهذه حقيقة واضحة فهو لا يكسب ما يكفي ل "مبروكة" ولي مع

بقائي بعيدة عن الأسرة حيث لم أعش ولم يسمح لي بالعيش في منزل والده، واستطعت تخيل سيدتي وهي تقول قولها، وكأن شيئا لم يحدث:

-أنا مستعدة لتناول طعام الغداء الآن بمفردي، شكرا لك.

ولكن بدلا من العودة إلى المطبخ جاء "عمر" خلفي، ولم أبتعد كثيرا، وكان من السهل رؤيتي فأنا طويلة القامة بين حشود المصريين، فلحق بي وأمسكني من ذراعي بشدة، فقلت:

-عمر، أتركني.

فقال:

-كيف تذهبين إلى سيدتي من خلف ظهري كما فعلت؟ كيف أمكنك أن تعرضي كل شيء عملت من أجله للخطر؟

فقلت:

-وضعتك في خطر؟

فقال:

-بالذهاب إليها مثل بعض متسولي الشوارع؛ كيف أمكنك خيانتي هكذا يا سالي؟

فقلت صارخة:

-خيانتك؟! أنا خنتك؟! لقد أيدتها في كل أمر اتخذته، وفشلت في الوقوف بجانبي، وتركتني أكافح بمفردي في المدينة، وتجمعت الدموع الحارقة في عيني، لقد رفضت منحي مكانا في عائلتك! حيث يتوقف كل شيء على الاحتفاظ بوضعك مع السيدة "داف جوردون"، هل تتوقع مني أن أخسر كل شيء؟!

فقال:

-فقط لأنك خسرتي.

ثم توقف عن الكلام ، فقلت:

-قل ذلك، قلها يا "عمر"!... فقط لأنني فقدت كل شيء.

ولم أستطع التوقف عن البكاء حسرة على نفسي وقلت:

-لا ليس هذا ما أريد لقد عوقبت، وعوقبت بما يكفي لكلينا وأنت تعرف هذا، ولكنك تؤيد كل شيء تقوم هي به.

فقال:

-لقد تزوجتك وأنت زوجتي.

فتوقفت وخفضت صوتي، وقلت:

-لكن هذا لم يجدي نفعا؛ هل ترى أنه أجدى نفعا؟ فأنت لم تستطع أن تكون أي نوع من الأزواج، وما حدث للتو بيننا هذا لا يعني شيئا طالما أنك تعمل في منزلها.

وحاول "عمر" أن يقاطعني، لكنني رفعت يدي لمنعه من التحدث وأكملت:

-أعلم أنك يجب أن تبقي في بيتها، وأعلم ذلك جيدا، ولكن لن تكون زوجي طوال فترة عملك لها.

ومع ذلك الكلام التفت وسرت بعيدا.

الفصل التاسع عشر

وفي النهاية، لم يسافر عمر إلى أوروبا مع سيدتي؛ حيث تلقت سيدتي رسالة بها تعليمات من السير "آليك" قبل أسبوع من الوقت المقرر للإبحار بعدم اصطحاب "عمر" معها إلى أوروبا، وقالت لي "مبروكة" أن السير "أليك" رأى أنه ليس لائقا أن تسافر السيدة وحدها مع خادم ذكر، وعلى الرغم من ذلك أعربت السيدة عن أسفها لمعرفتها أن عائلتها ستحب أخلاق "عمر" المصرية وكذلك كعكة، وكان ذلك مدعوما بتطلع سيدتي وتوقعاتها حول لم شمل الأسرة، فقبلت طلب زوجها دون شكوى، وقالت "مبروكة" أن "عمر" لن يعترف بخيبة أمله، ولكن يمكنها الجزم أنه شعر بها، ومع ذلك فهو سيبقى في القاهرة، وبمجرد مغادرة سيدتي للأسكندرية والإشراف على إطلاق "دهبية" لفصل الصيف سينتقل مرة أخرى إلى منزل والده، فنظرت إلى "مبروكة" عندما قالت ينتقل مرة أخرى إلى

منزل والده، لكنها كانت تدلل "عبد الله" الذي سكب شرابه، ففكرت أنه سينتقل مرة أخرى إلى منزل والده، ويتحمل دوره كزوج وأب لابنه وزوج "مبروكة"، وتساءلت كيف يكون الزواج من رجل تقضي معه وقتا قصيرا فقط؟ وعلى الرغم من ذلك أصبح لديهم طفلة، هي "ياسمين" الصغيرة الجميلة التي صرت وجرت نحوها كانجذابي وارتباطي ب "عبد الله"، وربما سيحظون بطفل آخر.

وفي أوائل شهر يوليو استقلت سيدتي و "عمر" القطار إلى الأسكندرية، حيث بقوا مع "روس هنري" الذي لم يسافر إلى انجلترا مع السيدة "جانيت" في الشهر السابق، وحجزوا رحلة على السفينة إلى أوروبا بصعوبة، على الرغم من أننا لم نسمع أي شيء عن ذلك في القاهرة؛ حيث اجتاح وباء الكوليرا الأسكندرية وأي شخص يريد تجنبه عليه مغادرة المدينة، وهرب "إسماعيل" باشا إلي الخارج بالفعل، وكان "عمر" سيئ الحظ بالميناء؛ فعندما استخدم "هنري روس" شبكة اتصالاته ونفوذه فقط وجدت السيدة مكانا على متن باخرة، وأرسل "عمر" إلى "مبروكة" أنه سيعود للقاهرة قريبا، وطلبت سيدتي بطريق غير مباشر من السيد "هيكيكان" بك أن يعثر لعمر على وظيفة أثناء غيابها، وقالت:
-قلت ل "هيكيكان" بك أن الوظيفة الجديدة يجب أن تكون مؤقتة؛ فأنا لا أريد أن يسرقك أي شخص مني وأنا بعيدة.
ووعدها أن يكون هناك لمقابلة سفينتها عندما تعود، وفي منتصف يوليو لدى عودته إلى القاهرة انتقل "عمر" مرة أخرى إلي منزل والده، وبالكاد تحرك في القاهرة مع هذه الحرارة، حيث تبقى النوافذ مفتوحة، وفي فجر كل يوم تقوم والدة "عمر" وخادمتها أم "يس" بجر الحبال والبكرات لغزل قماش كمفرش

كبير لسد الفجوة في السقف فوق الفناء، ويتحرك الجميع في المنزل ببطء في الظلام، وكانت الشمس تتخلل المنزل من خلال أي فتحة في النوافذ كقضبان حديد بيضاء ساخنة، وكان الطفل وأخته ، حالة خمول وبالكاد لديهما طاقة تكفي لتناول الطعام أو اللعب، ولم أسمح لوجود "عمر" في المنزل أن يؤثر على زيارتي في الصباح ل"عبد الله"، ومعظم الأيام يكون غادر المنزل بالفعل قبل وصولي؛ ولذلك أقنعت نفسي تقريبا أن لا شيء قد تغير، وفي وجبة الإفطار كنا جميعا نخبز طعامنا، ونتناوب على الفرن مع بعضنا البعض، وقالت "مبروكة":

-إنه لا يستطيع أن يأكل هذا .

وكانت تقصد قطعة من كعكة كانت تحاول "ياسمين" وضعها في فم "عبد الله"، فأبت الطفلة، وأصرت على أن يأكلها، وبالفعل أخذ "عبد الله" الكعكة منها، وبدأ يمضغها على السن الوحيد لديه لفترة طويلة، ولم تختلف معاملة "مبروكة" لي؛ حيث استمر حرصها على تناقل الأحاديث وسماع أخبار اليوم السابق، وفي الحقيقة هي لا تحمل أي علامات على أن زوجها عاد ليقضي الوقت معها مرة أخرى، وكان من الأفضل لي التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، فوضوحها وطيبتها مكناني من الاستمرار في الحياة.

وفي درجات حرارة الصيف العالية كانت محلات المخبوزات تفتح لعدة ساعات في الصباح الباكر، وبعد ذلك مرة أخرى في المساء، والمطبخ كالجحيم، وكان "عمر" يعمل لدى والده، إنه ينتظر سماع خبر من "هيكيكيان" بك، وأعدت والدة "عمر" وجبات الطعام مع أم "يس"، وأخبرتني "مبروكة" أنه عندما تغيب الشمس يتجمعون معا لتناول الطعام، وأصبحت هذه القائمة تحتوي أقل الأنواع التي تتطلب الذهاب لغرفة الفرن

مرة أو مرتين في اليوم، على الرغم من أنهم لا يزالون يخبزون الخبز ويطبخون الفاصوليا والسلطات وكذلك الشاي، وبعد العشاء يصعد "عمر" إلى سطح المنزل ليسترخ علي الأرجوحة، ويحصي النجوم، وينظر إلى المدينة؛ حيث لم يقضي بها يوما بعيدا عن سيدتي منذ فترة طويلة جدا، وشعر بشعور غير عادي من الحرية في بيته ومدينته، وقالت "مبروكة" أن "عمر" يشعر بالراحة لكونه بعيدا عن الأقصر، والأخبار التي تأتي عبر النيل إلى بولاق وعبره من صديقه والمسافرين كل تلك الأخبار لم تكن جيدة؛ فقد أتت الفيضانات السنوية هذا العام أعلى بكثير من المعتاد، وتسببت في أضرار كبيرة بالفعل، وتجريف العديد من البيوت الصغيرة في المنطقة، وتركت دمارا موحلا بعدها، وذلك بالإضافة إلى قيام "إسماعيل" باشا بتوظيف عبيد السخرة؛ حيث أخذ أكثر من ثلث الرجال من أهالي الأقصر، وكثيرا من هؤلاء الرجال يعرفهم "عمر"، ويدرك جيدا أنهم لن يعودوا أبدا، ولكن سيموتون في خدمة مخططات الباشا، وكان كل يوم يجلب معه نوعا جديدا من الضرائب الباهظة على كل رأس من الحيوانات والجمال والأبقار والأغنام، ومعظم الفلاحين لم يتمكنوا من دفعها، وفي القاهرة كان "عمر" عاجزا عن المساعدة بصورة أكبر مما كان عليه في الأقصر؛ فقد أدت الأعمال الخيرية اليومية القليلة التي قام بها هو وسيدتي أدت إلى اختلاف صغير بحياة أولئك الذين بقوا في القرية، وفي المدينة كانت وتيرة التغيير سريعة جدا، وخطط بناء الباشا متقدمة جدا، ويستحيل القيام بأي شيء خلاف الجلوس والمشاهدة والتساؤل عما سيؤدي إليه كل ذلك، فالقيام بشيء آخر يعد تهورا على الأقل في القاهرة، ورأى "عمر" أن السيدة "داف جوردون" قد نالت اهتماما أقل من الباشا ورفاقه؛ فقد كانت مجرد واحدة من العديد من الإفرنجيين الذين يمرون خلال هرج ومرج المدينة.

وخيل لي أن "عمر" قلق عليَّ؛ حيث أصبحت مشكلة يجب إيجاد حل لها، فماذا يستطيع أن يفعل مع "سالي"؟... يمكنه مساعدتي في العثور على وظيفة أفضل، وآمل أن هذا سيمكنني من سداد أجرة مكان أفضل للعيش فيه، ولكن حقيقة أنه لا يوجد ما يرفع حرجه من وجودي في القاهرة؛ فليس لديه استعداد لتحدي السيدة "داف جوردون" ونقلي لمنزل والده، فلو فعل هذا لحل العديد من المشاكل، ولكن ذلك لم يكن خيارا، وبدلا من ذلك فهو محاصر بوجود زوجة في المنزل وأخرى تصلح بشكل عام أن تكون عشيقته، وليس أم ولده، وأعرف أنه يخجل مما حدث في ذلك اليوم على متن "دهبية"، وبالطبع من مواجهتي مع سيدتي، ولكن فضلا عن الطريقة التي خرج بها عن شعوره، واستدراجه للفتاه -أنا- انتقص من أمانته، فهو لم يريد زوجتين، فقد تزوج "مبروكة"، ثم وقع في الحب معي، ولكنه كان رجلا مطيعا؛ حيث يطيع سيدتي و"مبروكة"، وعائلته، وسيجد وسيلة؛ فمن الواجب عليه أن يجد وسيلة.

رسمت له صورة على السطح وهو يجلس في أرجوحته، يوقظه النداء للصلاة من على السطح، وينزل إلى الساحة للصلاة مع والده الذي نهض من فراشه خصيصا للصلاة، وبعد ذلك يذهب لمكان إقامته و "عبد الله" و "ياسمين" نائمان على الحصير، ف"عبد الله" قد استغرق في النوم في سلته، وأحزن ذلك الجميع، وفي الغرفة أسدلت "مبروكة" الستار حول مكان النوم، فيدخل من الفجوة، ويحاول رؤية مكان زوجته في الظلام، وتقترح أنفاسها أنها نائمة ولكن "عمر" يعرفها جيدا، ويدرك أنها مستيقظة وتنتظره، فتجرد من ملابسه، ولبس ثياب النوم ثم صعد إلي السرير مع زوجته، وكما توقع لم تكن نائمة، واستمرت راقدة لبعض الوقت، ورقد "عمر" على ظهره،

وحاول جاهدا عدم التفكير، وبدأت "مبروكة" في الكلام قائلة:
-كنت خائفة أن تطلقني، كان يمكنك أن تطلقني، وتبقي "ياسمين" معك، وتجعلني أترك بيت أبيك، وتأتي بتلك المرأة الأخرى أم "عبد الله".

فقال:

-لا، لم أفكر في ذلك يا "مبروكة".

وانقلب على جنبه ليقابل وجهها، وأكمل:

-يجب أن تعرفي أنني لم أكن لأطلقك.

فقالت:

-أعلم، لقد أكد والديك لي ذلك كل يوم بعد سماعنا للأخبار، ولكن "سالي" إفرنجيه يا "عمر".

فقام بوضع يده على بطنها، وكانت ملابسها الليلية تستثيره، وقال:

-أنا لن أطلقك، فأنت والدة طفلتي.

أخبرتني "مبروكة" بهذا الحديث، ولم تصف لي ما حدث في تلك الليلة، وأنا لست ساذجة، وتخيلت ما حدث؛ حيث تحرك "عمر" نحو "مبروكة" وأخذ نفسا عميقا وحبسه، واتجه نحوها، فقد مر وقتا طويلا على مشاركتهم للفراش، وأطول بالنسبة لرغبة "مبروكة" بأن يبقى معها، وحرك شعرها الأسود، وتساءل كيف تختلف رائحتها عني، وكيف يختلف شعوره معها، وكيف اختلف عندما قبلته، ثم أجبر نفسه على التوقف عن عقد هذه المقارنات، أوه! نعم، أعتقد أنه جعل نفسه يفكر، فأنا أتذكر فعله هذا، وأتذكر كيف كان يشعر، وقال لنفسه:

-يا لي من رجل محظوظ!

وبعد فترة من الوقت، وفي الظلام شعر أن "مبروكة" تبتسم، وأنا لا أعرف إذا كان هذا هو ما حدث بينهما فعلا، ولكنني أعرف ما يكفي لفهم أنه ربما يحدث بهذه الطريقة؛ فهما زوجان.

وفي الواقع، وجد "هيكيكان" بك عملا ل"عمر" مع رجل انجليزي هو السيد "سميث"، الذي أتى إلي القاهرة للعمل مع الطبيب "ماربيت" في خدمة الآثار المصرية، وقرر على غير العادة البقاء في المدينة خلال فصل الصيف الطويل، وعاش السيد "سميث" في منزل جديد في حي الفرنجة على النيل، وأراد "عمر" ليكون بمثابة خادمه؛ حيث سيحتاجه بالنهار خلال معظم أيام الأسبوع، وفي المساء عندما يكون السيد "سميث" لديه زوار فقط، وهذا لا يحدث كثيرا، وقالت لي "مبروكة" أنه لا يوجد سيدة، إنه أمر محير بالنسبة لها؛ حيث كثير من الإفرنجيين عن الزواج، وتساءلت هل كان "عمر" سعيدا على مواصلة العيش مع عائلته، ومنذ اليوم الأول تضمنت واجبات "عمر" تجاه السيد "سميث" جولات في المدينة سيرا على الأقدام لتسليم رسائل، وهذه الرحلات قادته إلى فنادق جديدة تم فتحها في جميع أنحاء المدينة، وبدأ "عمر" يسأل عن فرص عمل لي، و كنت أواصل العمل لدى "روبرتو ماجيني"، ولكن الوضع أخذ في التدهور، و بدا أن عملاءه أصبحوا أسوأ مع كل شهر يمر، وحتى "روبرتو ماجيني" نفسه أصبح عاجزا عن التوقف عن الشراب، ومبادراته تجاهي تصبح أكثر عدوانية، لدرجة أنه في إحدى الليالي التي كنا نعمل فيها معا، قال:

-إن وظيفتي ستكون أقل تكلفة بالنسبة له في حالة زواجنا؛ حيث لن يضر لإعطائي مرتب.

وحقيقة الأمر، لم يمكنني منع نفسي من الضحك على هذا العرض غير الرومانسي للزواج، وحتى "روبرتو ماجيني" وجد روح الدعابة به، ولكنني أصبحت بحاجة للمغادرة ، وقمت بزيارة أم "محمود" التي عرضت عليَّ غرفة، وقبلت أن أقوم بأعمال التنظيف لديها بدلا من الإيجار، ولكنني كنت أعرف أن الزوجين المسنين لن يتحملا الخسارة التي ستترتب على ذلك،

وأنه عند وصول نزيل آخر يستطيع سداد إيجار الحجرة، فسأخرج للنوم على الأرض في المطبخ الصغير الحار، تماما كما حدث عندما ذهبت للخدمة لأول مرة كخادمة حجرة غسيل الأطباق في "إيشر"، وواصلت زيارة "عبد الله" كل صباح، وبدأت زياراتي تتزامن مع وجود "عمر" في المنزل، ولم أمانع الآن رؤيتي له؛ حيث لم يكن هناك أي إمكانية للخصوصية ولا حتى للمحادثة، بالإضافة إلى أننا لم نعد بحاجة للخصوصية، ورؤية "عبد الله" كل يوم كان كافيا للحفاظ على سعادتي، وكنت أتطلع إلى زيارة "مبروكة" أيضا، فعلى ما يبدو أنها قد اتخذت على عاتقها أن تعطيني التوجيهات الخاصة بالحياة القاهرية، وقالت في أحد الأيام: قال "عمر" أنه سيجد وظيفة جديدة لكِ يا "سالي"، فالفنادق الجديدة تبحث عن أمثالك.

فابتسمت حتى لا أظهر ل" مبروكة" يأسي، ولكنها تعرفني جيدا الآن، ولديها معرفة كافية بوضعي لتدرك ما أشعر به حقا، وأخبرتها عن عرض "روبرتو ماجيني"، فغضبت نيابة عني وقالت:

-أوه! كيف يجرؤ؟!

وكانت عابسة الوجه بشدة، فبدأت في الضحك، فقالت:

-لا تضحكي!

ولكنها بدأت في الضحك هي أيضا، حيث لم نعد نستطيع السيطرة على الهستيريا التي تسببت فيها هذه الفكرة، وهرعت والدة "عمر" لمعرفة لماذا كنا نحدث مثل تلك الضوضاء، ولكن لم نخبرها، وأصبحتُ مصدرا للتوتر بين "مبروكة" و"عمر"، فحقيقة أن " مبروكة" تشهد يوميا ما يحدث لي بسبب ظروفي غير المستقرة، واعتيادهم على الحياة معا مرة أخرى، وشعرت "مبروكة" أنها قادرة على إثارة بعض المواضيع عندما يكونا معا في مسكنهم الخاص، وقالت "مبروكة":

-سأتغلب عليه يا "سالي"، سوف تنضمي لمنزلنا، وسترين؛ فنحن النساء نعرف كيفية الحصول على ما نريد.

واحمرت خجلا عندما ذكرت هذه الإشارة إلى حياتها الزوجية، ونظرت بعيدا، ولكن بعد ذلك توقفت "مبروكة" عن الحديث عن محاولة تغيير رأي "عمر"، وهذا الموضوع لم يعد يطرح، وكنت أتساءل ماذا حدث وما الذي جعل "مبروكة" تتخلى عن هذا الموضوع، وشعرت أنه يمكن تخيل محادثتهم في وقت متأخر ذات ليلة بعد أن ناما معا، وهما يتأبطان ذراع بعضهما البعض، حيث تحدثت "مبروكة" بينما كان "عمر" على وشك أن ينام، وربما كانت نبرتها أكثر حدة مما قصدت وقالت:

-أطلب منك مرة أخرى يا "عمر أبو حلاوة" أن تدعو والدة ابنك للعيش في بيت أبيك؟ ولم يكن "عمر" على استعداد لمناقشة هذا الموضوع، واتضح من تظاهره بالنوم، فهمست "مبروكة" وقالت:

-عمر!

ولكنه تجاهلها ولم يرد إغضابها فقال:

-هذا قراري، ولدي أسبابي يا "مبروكة"

فقالت:

-ماذا؟ ما هي أسبابك ليكون لديك زوجة تعيش وحدها في المدينة؟ وأي نوع من الأزواج أنت؟

فقال:

-كثير من النساء في وضعك.

ثم توقف ليرتب كلامه وينمقه وأكمل قائلا:

-سيكونون مسرورين لقراري .

فقالت:

- حسنا، لكنني لست كذلك فأنا أراها، وأرى كيف تعاني، وأنا مندهشة لرؤيتي والد طفلتي يمتلك مثل هذا القلب البارد

والقاسي، فهذا يعرض سمعتي للخطر بقدر سمعتها.
وأصبح غاضبا الآن، وجلس، ورأت "مبروكة" أنها تمادت جدا، وقال "عمر":
-قررت السيدة "داف جوردون" الأ تعيش "سالي نالدرات" مع عائلتي، وإذا أردت الاحتفاظ بوظيفتي في بيتها فلا بد لي من طاعة أوامرها، لقد قالت ذلك فليس لدي خيار آخر.
وصدمت "مبروكة" فقالت:
-يا والد طفلتي!
وبدأت تعتذر، ولكن "عمر" قاطعها قائلا:
-يا "مبروكة"، "سالي" انجليزية ونحن مصريون، هل تريدينني أيضا أن أشاركها فراشها وفراشك لا؟
ونهض وغادر الغرفة وذهب للنوم على الحصيرة بجوار "عبد الله"، وهكذا انتهت المحادثة، وبعد بضعة أيام هرعت "مبروكة" عبر الفناء عند وصولي إلى المنزل، وقالت:
-وجد "عمر" فرصة عمل في أحد أروع المنشآت الجديدة "فندق النيل"، وقابله ساعي الرئيس بحماس في اليوم السابق، وقال له:
-امرأة انجليزية، تتحدث العربية بطلاقة، ومدربة تدريبا جيدا
فرد عليه الرجل قائلا:
-لترسلها لنا يا سيد أبو حلاوة، من فضلك.
وأكملت "مبروكة" قائلة:
-يجب يا "سالي" أن تكوني في فندق النيل غدا الساعة العاشرة صباحا.
وكانت متحمسة بشدة كما لو أنها سترافقني بنفسها.
وهكذا في اليوم التالي بذلت قصارى جهدي في محاولة ارتداء الملابس الانجليزية المناسبة، فارتديت الحذاء والثوب النسائي والمشد والقفازات والقبعة، فقد قمت بإصلاحها جميعا،

وقمت بكيها بعناية (الثياب الملونة أو البالية)، وسلكت طريقي في المدينة، حتى وصلت إلى الرخام الكبير، وفي "فندق النيل" كان هناك بهو كبير فيه سجاد ونخيل في أصيص، وتعرفت على السيد "جيليسبي" المدير الاسكتلندي للفندق الذي يملكه بريطاني، وتساءل السيد "جيليسبي" قائلا:

-تتحدثين العربية أليس كذلك؟

فقلت:

- نعم، يا سيدي.

فقال:

-كيف هذا؟ أنت تبدين لي فتاة انجليزية عادية .

فقلت:

-أنا يا سيدي انجليزية، ولكني عشت هنا في مصر طوال السنوات الماضية في خدمة السيدة "داف جوردون".

فقال :

-السيدة "داف جوردون"؟! وأين تلك السيدة العظيمة الآن؟

فقلت:

-ذهبت إلى انجلترا، يا سيدي.

فنظر إليَّ السيد "جيليسبي"، وبدأ يشك في تصرفي ويفكر فيه في نفس الوقت، وقال:

-وتركتك هنا وحدك؟!

وأصبحت متأكدة من معرفته لقصتي بالفعل، ولكنه أراد أن يسمع ما كنت سأقوله أنا، فقلت:

- نعم أرغب في البقاء بالقاهرة؛ فأنا أفضل البقاء هنا.

فقال:

-هل تفضلين هنا؟ !يا له من أمر غريب جدا! دعينا نستمع إلى حديثك بالعربية.

فترددت ولم أعلم ما يجب أن أقول، فقلت:

-هم دائما يقولون الحمد لله.
فقال:
-هذا صحيح، أنا بحاجه لشخص مثلك؛ لذا دعينا نرى خطابك المرجعي من رؤسائك السابقين.
وتماديت في قول أنصاف الحقائق قليلا وقلت:
-للأسف السيدة "داف جوردون" نسيت أن تعطيه لي قبل مغادرتها، وكتبت لها على الرغم من أنني متأكدة من رجوعها قريبا جدا.
فلاعب السيد "غيليسبي" شاربه وقال:
-حسنا، لتبدئي غدا، وهناك بالخلف مكان مخصص لموظفينا الأوروبيين، فدعينا نحضر السيدة "غيليسبي" زوجتي ورئيسة شؤون إدارة الفندق، وسوف تريك المكان، ولكن هناك بعض اللوائح المتبعة هنا؛ حيث يمنع شرب الخمر والرجال، ويبدو أنك بعيدة عن هذه الأمور حاليا.
فتخطيت التعليق على هذا بالصمت، وقال:
-لتحضري لي هذا المرجع بمجرد وصوله.
ثم وقف، وبدون تنبيه سمح بدخول السيدة "غيليسبي".

وهكذا مر فصل الصيف؛ حيث يخرج "عمر" ويدخل منزل رب عمله السيد "سميث"، وهو منزل بارد، وكل مساء قبل أن يتوجه إلي منزله يضع الملابس الذي أعدها للسيد "سميث" ليرتديها في اليوم التالي، وأنا في فندق "النيل" حيث جعلني تحدثي للغة العربية بطلاقة بصورة سريعة في طليعة صفوف الموظفين المتعاملين مع المصرين والأجانب. والحق يقال، قد كانت هناك حاجة دائمة للوساطة بينهم، وفي المنزل كنت مع "عبد الله" و"مبروكة" و"ياسمين"؛ حيث واصلت زيارة ابني كل يوم، وتريد "مبروكة" أن تسمع كل شيء عن الفندق

الكبير الجديد وحياتي هناك مع زملائي، فسريعا ما تعرفت على العاملين هناك، وكنت أرفه عن نفسي أثناء العمل من خلال قص النوادر على مبروكة خلال زياراتي.

والعجيب في الأمر، أنني بدأت سرد قصص من حياتي في "إيشر" أيضا، تلك الحياة التي شعرت أنها بعيدة كالحلم، وكنت أجد المتعة في رؤية الدهشة المتزايدة على وجه "مبروكة" كلما أخبرتها عن كيفية أخذي القطار إلى لندن بنفسي لزيارة الآثار المصرية في المتحف البريطاني، ووجدت "مبروكة" صعوبة في تخيل ما كان عليه التحرك خلال العالم كما فعلت أنا بدون حماية، وبدون أمان؛ فهي لم تسير في الطريق وحدها طوال حياتها كاملة، فحقيقة العمل والعيش المحاط بالرجال كان أمرا غريبا بالنسبة لها، وفي المقابل أكافأ بسماع كل شيء عن يوم "مبروكة" مع "عبد الله"، وأسعد عند الاستماع إلى حكاية كبيرة حول الطفل وإنجازاته الاستثنائية؛ حيث جلس وحده، ثم سحب نفسه للوقوف إلى جانب الطاولة، وأكل كل العنب!

وفي الليل في الغرفة التي يشاركني فيها امرأتان أخرتان، إنها أفضل بكثير مما كان لديَّ أثناء عملي لدى "روبرتو مارجيني" (الذي أصابه نوبة غضب عارمة، وكسر كرسيا عندما قلت له أنني سأغادر في اليوم التالي)، وحاولت تصور نفسي في حياة "مبروكة"، وهي زوجة وابنة مصرية تؤسس الحياة يوميا، ومؤمنة بالله، وتراعيه، وهي بعيدة عن المدينة بقدر الإمكان، وأدركت من زيارتي الأولى لمنزل والد "عمر" أنني في الواقع سأكون أسعد في حياة "مبروكة"، وأود أن أتبادل الأدوار معها، حيث انعدم الأمن بما يكفي لبقية حياتي، وكل ما أردته هو السلام وهدوء النفس وطفلي، ولكن هذا لا يمكن، فأنا أكسب

عيشي بنفسي، ويجب أن أستمر في كسبة مرارا وتكرارا، ولكني شعرت بترحيب حققي في بيت والد "عمر"، وكنت ممتنة لهذا، ونادرا ما رأيت "عمر" نفسه، ومر عليَّ في فندق "النيل" ليرى كيف تسير الأمور، ولكن سرعان ما أدركنا من النظرات التي تبادلناها أن هذه لم تكن فكرة جيدة، وكان وضعنا غير قابل للتفسير، فهو زوجي المصري، ولكني لا أعيش معه، لا يمكن لأحد أن يصدقني، ولم أستطع تحمل تعريض سمعتي للخطر مرة أخرى، ولكن كان معروفا من السيد "غيليسبي" أن يمنحني إجازة في المساء، وبهذا كنت أسلك طريقي إلى بيت زوجي، وأول مرة قضيت أمسية مع الأسرة جلست قبالة "عمر" و"مبروكة" أشاهدهما بينما كانت "مبروكة" تتدخل في المحادثة ووضعت يدها على ركبة "عمر" لفترة وجيزة، وكانت تحرك يدها كما لو كانت تزيل بعض الوساخة عن سرواله، ونظر إلي وجهي واحمر خديه، فأدركت إذا أن ما اعتقده حق، فهي زوجته مرة أخرى، ومن أكون أنا؟! فرفعت "عبد الله" الذي تزايد وزنه كل يوم وحضنته، ومثل "عمر" حاولت دفع التفكير بعيدا. وتحدثت إلى "عمر" وحده في ذلك المساء عندما كانت "مبروكة" تضع الأطفال بالفراش، ووالداه كانا خارج الغرفة مشغولين في مكان آخر في المنزل، وقال "عمر":

-رأيت أختك "إلين"، ولكني لم يكن لدي فرصة لأخبرك>

فقلت:

-متى رأيتها ؟

فقال:

-عندما جاءت السيدة "جانيت" لتخبر سيدتي بأنها ستتوجه إلى أوروبا من دونها.

فقلت:

- نعم.

فقال:
-الآنسة "نالدريت" سافرت مع السيدة "جانيت"، وبطبيعة الحال اعتقدت أنك قد غادرت بالفعل إلى انجلترا.
فأومأت وقلت:
-كيف كانت؟
فقال:
-كانت غاضبة جدا من أجلك، واعتقد أنها ستضربني.
فابتسمت، وقلت:
-ماذا قالت؟
فقال:
-قالت لي أني مثير للاشمئزاز، وتظاهرت أن لغتي الانجليزية ليست جيدة بما فيه الكفاية لفهم ما كانت تقوله، وهذا الأمر أشعل غضبها.
فضحكت، وأكمل قائلا:
-قالت أنني خربت حياتك، وأنك خسرت وظيفتك بينما كان وضعي أنا يزدهر عن طريق تسلقي على كتفيك، والسماح بإغراقك، وأنك ستنتهين في مزراب -مجاري لتصريف المياه- لندن، وأن هذا خطأي بالكامل.
فابتسمت وأخذت رشفة من الشاي، وقلت:
-هذا كله صحيح. بالطبع بصرف النظر عن مزراب لندن.
فقال:
-ولكنك على ما يرام الآن؛ أليس كذلك؟
ونظرت إليه، وتساءلت:
-هل يستحق أن أخفف عنه بؤسه؟ من يدري؟ ربما لست أفضل قاضٍ ليحدد هذا،
وقلت لزوجي :
-على ما أعتقد.

أخبرتني "مبروكة" أن سيدتي كتبت ل"عمر" مرة واحدة وهي مسافرة، وأخبرتني بمحتوى تلك الرسالة، ودفع "عمر" لشخص يستطيع القراءة ويعمل كاتبا ليأتي إلى المنزل لقراءتها، ومثلت هذه الرحلة إلى "مرسيليا" عبئا ثقيلا على صحتها كما تنبأ "عمر"، على الرغم من أن عبور البحر الأبيض المتوسط استغرق أسبوعا واحدا فقط، ولم تكن بصحة جيدة للمواصلة إلى باريس عندما وصلت هناك، فكتبت للسير "آليك"، وسافر للقائها، ثم سافر جميع أفراد الأسرة من طرق متنوعة إلى مدينة "سودين" في بداية شهر أغسطس، ونزلوا في غرف مستأجرة، وأتصور أنهم استغرقوا بعض الوقت ليتعودوا على بعضهم البعض، وصاروا أكبر مما كانوا عليه سابقا؛ حيث بلغت "رينية" ست سنوات الآن، وأصبحت ذات قامة طويلة، وعلى الرغم من اختلافها عن المرة التي رأتها فيها سيدتي، إلا أنها تذكرت والدتها، وقالت سيدتي ل"عمر" أنها كانت سعيدة بوجودهما معها.

وكبر "موريس" الآن وأصبح شابا، ووالدة سيدتي السيدة "سارة أوستن" أصابها الشلل نتيجة إصابتها بالنقرس، وأحزنني هذا الخبر؛ لأنني كنت مغرمة جدا بالسيدة "أوستن"؛ حيث كانت دائما لطيفة معي، واستغرقت سيدتي وقتا لتتذكر أسلوبها الأوروبي، وقالت أن ملابسها الانجليزية تثير الحساسية ببشرتها، ولكنني أتخيل أنها استعادت أسلوبها الألماني في التعامل، واستعرضت لغتها العربية لمن يهتم، وذكرت أن العطلة ستستمر لمدة شهر واحد، شهر واحد والأسرة الكريمة معا، وعلى الرغم من أن سيدتي لم تبلغ هذا ل"عمر"، لكنني متأكدة من أن الأمور لم تسر بسهولة بينها هي والسير "أليك" كما كانت عندما زار مصر في الخريف الماضي؛ حيث استمر

منزعجا من حقيقة عدم وجود خادمة لسيدتي؛ لشعوره بوجوب أن يكون لديها واحدة، وهم في جدال حول ما إذا كانت ستعود للعيش في مصر دون العثور على خادمة جديدة، وقال أنه في الواقع قد رتب لاستئجار فتاة جديدة بدون استشارتها، وقدم شابة بلجيكية تدعى "ماري" لزوجته كأمر واقع في نهاية إقامتهم، ولم تستطع سيدتي الاعتراض في ذلك الوقت؛ فقد تصاب بالبرد والمرض مرة أخرى، وكانت تسعل حتى تبصق دما باستمرار، وكتبت سيدتي ل"عمر" أن الوضع أصبح سيئا للغاية، وأن السير "أليك" انتقل إلى غرفه خاصة به، وترك صافرة لسيدتي لتنفخ بها إذا كانت في حاجة للمساعدة، وفي ليلة أصدرت الصافرة صفيرا قويا، أسرع إليها حيث وجدها ملقاة في بركة من دماء النزيف، وعالجها الطبيب الألماني، وأصر على عدم سفرها حتى تتعافي تماما، ولكن كالعادة لم تنفذ سيدتي شيئا من هذا، وما أن شعرت بالألم المألوف يزحف إلى جنبها، وأن رئتيها ممتلئتان بالسوائل حتى أرادت العودة إلى الأقصر في مصر؛ حيث تستطيع التنفس بصورة أفضل، وكتبت ل"عمر" قائلة أنها إذا استطاعت استعادة شخصيتها المصرية، لأستطاع هواء الصحراء الجاف أن يعالج صدرها، ذلك إلى جانب أنه قد حان وقت رحيل الأطفال والسير "أليك" للعودة إلى الوظائف والمدارس في انكلترا، وأنها لا تريد أن تترك بمفردها في ألمانيا، أصبحت خادمة السيدة البلجيكية شيئا مفيدا؛ فبمساعدتها أصبحت السيدة قادرة على السفر في وقت مبكر عن الوقت الذي نصح به الطبيب، وقالت أنها ستعود لمصر في أوائل أكتوبر.

نسي السيد "غيليسبي" أن يسأل عن خطابي المرجعي، حتى فات الأوان؛ حيث أثبت أنه لا غنى عنِّي بالنسبة للفندق،

كما فعلت ذات مرة مع السيدة "داف جوردون"، وكان فندق "النيل" مكانا جيدا للعمل به، وربما أفضل مكان نظرا للظروف، وأخذت في الترقي سريعا بصفوف الخدم، وحصلت على حرية غير مسبوقة؛ حيث أستطيع فعل ما أريد، وأعطاني عملي قدرا أكبر من القوة والهيبة بصورة أكبر من أي وقت مضى، حتى مما كنت أمتلكها لدى سيدتي؛ فقد كنت شديدة الانشغال بأمور المنزل المزدحم الخاص بعائلة "جوردن" في "إيشر"، ثم ذهب "عمر"، وعاد إلى الأقصر مع السيدة "داف جوردون"، وعادت " مبروكة" لتكون بدونه مرة، وكان عدم افتقادي لوجوده أقل هذه المرة، مع العلم أن "مبروكة" كانت تفتقده أيضا.

الفصل العشرون

القاهرة ١٥ يوليو ١٨٦٩: بعد أربع سنوات

كنت هناك أشاهدها، وحرصت على أن أكون بعيدة في مدينة الموتى، ولم أرد أن يراني أحد، ولكنني استطعت رؤية ما يحدث، ورأيت رجال القارب وهم ينزلون جسدها، وتم لفها في كفن من الكتان مثل المسلمين، ولم يحتج الرجال إلى بذل جهد؛ فالمرض جعلها خفيفة، والموت جعلها أخف وزنا، وكان الطبيب -ذلك الطبيب الذي فحصني قبل أيام من ولادتي ولم يدرك وضعي- يتحدث، لكنني لم أسمع أيًّا من كلماته، وكان هناك إمام وكاهن مسيحي، واحني "عمر" رأسه في صمت، وربما كان يبكي.

وعندما أفكر في "عمر" أتذكر الوقت الذي قضيناه معا في الأقصر بعد ولادة "عبد الله"، وأشعر بدفء دموعه على بطني وهي تبرد سريعا، وإذا بقيت سيدتي في انجلترا ولم نسافر إلى

مصر لسرعان ما لقت حتفها، فقد أعطتها مصر سبع سنوات إضافية من الحياة، ولكن مقابل أي شيء؟ فقد كانت كما لو أنها ماتت مع عبورنا للبحر المتوسط أول مرة، فحياتها في مصر كانت نوعا من حياة الآخرة، واختارت السفر لمصر، وجعلت الموت في وضع حرج لبعض الوقت، وفازت سيدتي في معركتها الأخرى أيضا؛ حيث أبعدتني وأبعدت "عمر" عني، وجعلته يبقى بجوارها واحتفظت به حتى يومنا هذا، ولذا أصبح لديَّ كل الأسباب لأكرهها، ولكني لا أكرهها؛ فلولاها لما أتيت إلي القاهرة، مدينة أحلامي، ولما قابلت "عمر"، ولم يكن لدي طفلي، ولكن ذلك لم يكن بقصدها، وليس انتصارها؛ وإنما انتصاري أنا، نعم أنا فقط.

ويمكن أن يكون انتصار للعمة كلارا -لا أعرف حقيقة- فهي لم ترغب في الاحتفاظ بي أنا و"إلين" عندما مات والدينا في صدام القطار، الذي حدث في "كلافام"، وعلى الرغم من أنها قد تبدو فكرة غريبة، إلا أنني لم ألقِ بالوم على العمة "كلارا" في ذلك الوقت، حينما اختفي والدِينا وحياتنا السابقة بين عشية وضحاها، كما لم يفاجئني عدم رغبة أحد تحمل مسؤولية تنشئتنا، وكنت مجرد طفلة ولا أعرف من الحياة سواء ما عشته بالفعل لا أكثر ولا أقل، ولكني الآن أعرفها جيدا، وفي ضوء سلوك سيدتي نحوي نظرت للخلف؛ وألقيت باللوم على العمة "كلارا"، وتساءلت كيف أمكنها أن ترسلني فور وفاة والداي من منزلها إلي الخدمة وأنا أكبر أبناء أختها الوحيدة ؟ ولماذا يمتلئ العالم بأشخاص يمكنهم الاستغناء عن الآخرين بمجرد أن يناسبهم هذا؟ ولكني أوقفت نفسي عن التفكير على هذا النحو؛ فأنا أجيد إحراز التقدم بالمهام التي تسند إلي، وهذا يناسبني، وكنت أشاهدهم وأنا لا أدرك أننا نتقدم أكثر وأكثر نحو المقابر، ووقف

حشد صغير من الناس في المقابر لعدة دقائق، ثم مر شخص بطريقي؛ كانت شابة انجليزية ترتدي ثيابا انجليزية كما لو أنها خرجت للتو من قطار لندن، وبشرتها لا تزال فاتحة ولم تتأثر بالشمس التي تراها عيوننا، نعم، هي خادمة سيدتي الجديدة، وقمت بسحب طرحتي على وجهي وابتعدت، لقد رأيت ما يكفي؛ فالسيدة "داف جوردون" ماتت، وأنا "سالي نالدريت" ما زلت على قيد الحياة، وسأحيا بعد موتها.

انسحبت بعيدا لأعود إلى القاهرة، ولكن بينما كنت أترك مقبرة الموتي الواسعة التي تضم العديد من الموتى؛ رأيت والد "عمر" يشق طريقه بين القبور ومعه "عبد الله"، وقبل أن أتمكن من النداء عليهم رآني ولدي، وأسرع تجاهي بذراعين مفتوحين وهو يبتسم.

ملاحظات المؤلف

تعد قصة "لوسي دوف جوردون" مشهورة جدا، وتعود شهرتها في المقام الأول إلى كتابها الرائع "رسائل من مصر"، الذي يطبع باستمرار منذ نشره عام ١٨٦٥، ولم يرد شيئا عن حياة مرافقها المصري "عمر أبو حلاوة" وكذلك عن خادمتها "سالي نالدريت"، وصادفتني قصة "سالي" و"عمر" لأول مره عندما قرأت السيرة الذاتية ل"كارثين فرانك" الممتازة؛ بعنوان "رحلة لوسي داف جوردن إلى مصر" في عام ١٩٩٥، ومن خلال صديق مشترك قابلت "كاثرين فرانك"، وكانت سخية ودعمتني لأكتب رواية عن "سالي نالدريت"، وأجابت على العديد من أسئلتي، كما أعطتني نسختها الخاصة من كتاب المؤلف "إدوارد لانسيس" بعنوان "بعض الآداب سيئة السمعة وأعراف المصريين الحديثة"، الذي لا يزال لديَّ حتى الآن، وأنوي إرجاعه لها وشكرها.

لقد استغرقت سنوات عديدة في كتابة هذه الرواية، وقد منحتني جمعية المترجمين منحة بحثية للسفر إلى مصر في الفترة من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٧، وقام صندوق الأدبوالذي مكنني من مواصلة الكتابة، كما التزم وكلائي "راشيل كالدر" و"آن مكدير" بمساعدتي خلال أحلك الظروف، وأتوجه بالشكر أيضا إلى "ميلر سيمون"، و"توماس سو"، وأول قرائي الممتازين "عامر حسين" و"مرسيل سيجال" و"ليزلي برايس" وكذلك "روثي وبيتري" على عينها الثاقبة كمحررة، وأشكر أيضا "يوسف عمر" الذي حاول أن يعلمني اللغة العربية.

وتعتمد قصة "عاشقة مصر" على قصة حقيقية، وقمت بتغير الإطار الزمني ليناسب أغراضي، وقمت بضم سنتين هما

١٨٦٣-١٨٦٥ لجعلهما سنة واحدة، واختزلت رحلتي "لوسي دوف جوردن" إلى وطنها في رحلة واحدة، كما تعيش أسرة "عمر أبو حلاوة" في الأسكندرية وليس القاهرة، وبالنسبة للكتابات الحرفية باللغة العربية؛ فقد استعملت هجاء "لوسي دوف جوردون"، وكذلك ترجمات حرفية قياسية بصورة أكبر، وكافة التحويرات والأخطاء في هذه الرواية يعود لفعلي أنا، والاقتباسات الخاصة ب "لوسي داف جوردن" تم أخذها من كتاب "رسائل من مصر"